شرح القدّاس الإلهي

لمؤلفه نقولا كباسيلاس

نقله إلى العربيّة وعلّق عليه
الآب منيف حمصي

المنشورات الأرثوذكسيّة

شرح القدّاس الإلهي

لمؤلفه نقولا كباسيلاس

نقله إلى العربيّة وعلّق عليه
الأب منيف حمصي

المنشورات الأرثوذكسيّة

الطبعة الأولى
١٩٨٧

الطبعة الثانية
١٩٩١

ἈΝΑΝΕΩΣΙΣ ΤΗΣ ΡΩΜΑΙΪΚΗΣ
ΚΑΙ ΠΑΤΕΡΙΚΗΣ ΠΑΡΑΔΟΣΕΩΣ

إحياء التراث الرّومي الآبائي

الاهداء :

زوجتي العزيزة نجاح

ولدي الحبيبين اليان ودوريس

كلمة واجبة

يرى بعض الدارسين البارزين في مؤلفات القديس نيقولا كاباسيلاس أن كتاباته هي بحق من روائع الأدب المسيحي الليتورجي لما تمتاز به من إشراق نسكي وفهم عميق لليتورجيا الأرثوذكسية وقدرة فريدة على الخلق والإبداع؛ والسبب يعود إلى أن فكر كاباسيلاس هو فكر ليتورجي مشبع بروحانية إنجيلية خالصة. ولا غرابة في هذا، ما دامت الليتورجيا بالنسبة لكاباسيلاس هي اطار متكامل لنمو الروح.

من هنا يرى كاباسيلاس ان الحياة الإلهية، تتجلى في الليتورجيا. والليتورجيا بالنسبة اليه، هي ميدان إنسكاب الروح. وهذا، صحيح فالليتورجيا هي أيضاً إطار الأسرار الكنسية كلها، وهذا نلمسه لدى مطالعة، كتابه « الحياة في المسيح ».

والكتاب هذا « شرح القداس الالهي بحسب كاباسيلاس » يسهم على قدر ثقله في نهضة نرجوها في ليتورجيا الشرق المسيحي عموماً، والأرثوذكسي على وجه التخصيص.

ما هي الليتورجيا؟ أو بكلام آخر، ما هي غاية القداس الإلهي؟ غاية الذبيحة الالهية هي ان تتحد الخليقة بالخالق، بعد سقطة كلّفت البشرية الكثير. القداس الالهي هو الرباط الوثيق بين الإنسان والله. وربما هذا ما

حدا كاباسيلاس الى الشّروع بعمله الثاني « الحياة في المسيح »، ايماناً منه بضرورة هذه اللحمة بين المخلوق والخالق،لتزول نتائج السقوط، فيلتئم الجرح، وتتبدد الأوجاع.

وليس اسمى من القداس الإلهي وسيلة لتحقيق الاتحاد بالله. فهو محطة طقسية مهمة جداً في السنة الكنسية. ودوره يكاد يشمل كل المحطات الليتورجية الكنسية على مدار السنة؛ فليس من عيد كنسي الا ويتوّج بخدمة القداس الالهي. والقداس الالهي تراث كامل. انه الكتاب المقدس وقد تَمَسْرَح. فيه كل غنى الكتاب المقدس، ومن الكتاب الإلهي يستلهم كل مادته وغناه. فالكتاب المقدس هو صورة العلاقة بين الله والانسان. فيه تاريخ الخلاص. منه نتعلم ما هي ارادة الله لخلاص الانسان. فيه نرى أنفسنا في الخطيئة. لا سيما وان الكتاب الالهي هو مرآة النفس البشرية. والقداس له دوره البارز في كشف مضامين الكتاب الالهي.

لست أشاء في الواقع التفصيل أكثر، الا انني اعتقد ان هذا الكتاب كما هو بين ايديكم، هو شارح نفسه. لكنني رغم هذا لا بد لي من كلمة ارسم فيها الهيكلية العامة لهذا الكتاب. يتألف الكتاب من :

١ ــ مقدمة علمية وضعها الاستاذ اسبيرو جبور دقيقة ومفصّلة وتفي بالغرض المطلوب.
٢ ــ نص القداس الالهي للقديس يوحنا الذهبي الفم / طبعة مسرة، بيروت ١٩٦٢ مع تحضير الذبيحة الالهية.
٣ ــ شرح القداس الإلهي.
٤ ــ اسئلة عامة ليتورجية تتعلق بالقداس الالهي.

وكما ترى أخي القارىء، فاني قد جعلت نص القداس أمامك لتتمكن من متابعة كل شيء متابعة دقيقة،عساني أكون قد وُفّقْتُ بما فعلت لمساعدتك على الوصول الى صورة أفضل،وعلاقة أمتن مع القداس الإلهي.

يبقى أن أذكر، ان النص الذي بين يديك هو وليد نصّين لا نص واحد. انه وليد النص اليوناني والنص الانكليزي. فقد آثرت اعتماد النصين معاً بغية الوقوف على كل ما تيسر فيهمامن تفاصيل، لا سيما ان هناك بين النصّين فروقات عديدة من جهة تبويب الكتاب أولاً، ومن جهة وضوح المعاني والعبارات ثانياً. فلم يخرج الكتاب تعريباً عن أحد النصّين انما هو عصارة الاثنين معاً. لا يسعني أخيراً الا أن أذكر الذين ساعدوني في هذا الكتاب وساهموا فيه لاخراجه بحلته الحالية. وأخص بالذكر الاستاذ اسبيرو جبور الذي قدّم له ونقّحه ووثّقه وراجع لغته. وأيضاً الاستاذ ميشال سابا الذي اشرف على طبعه بهمة المتبرعين من ذوي الاريحية الارثوذكسية. وزوجتي العزيزة نجاح التي هي سند دائم لي وناقد لا يعرف الهوادة والاستلطاف، فقد تعهدت بقراءة كل شيء يخرج من يدي.

كاباسيلاس وعصره:

لا نعرف الا القليل عن حياة القديس نيقولا كاباسيلاس. ونجهل تاريخ ولادته وتاريخ رقاده بدقة. والباحث فيه يرى أن المتوفر عنه من حقائق، تجعله يعتقد ان كاباسيلاس وُلد قرابة سنة (١٣٠٠) م. لكن منذ عهد قريب أُجري بحث خرج ليؤكد ان ولادته كانت في العشرينات من القرن الرابع عشر.

الا أن كاباسيلاس، في جميع الأحوال، عاش في زمن كانت فيه الامبراطورية الرومية قد تحجّمتْ وتقلص نفوذها بداعي الحرب التي دارت رحاها بين الكانتا كوزين والباليولوغيين. وكان كاباسيلاس احد اعوان الامبراطور يوحنا السادس كانتا كوزين. وكان من المقربين للامبراطور، الذي كان بنفسه يدوّن تاريخ عصره وزمانه، وقد جاء على ذكر كاباسيلاس مرة وأكثر في كتاباته. ومن هذه الكتابات، عرفنا أن كاباسيلاس كان سنة ١٣٤٦ احد السفيرين اللذين أوفدتهما سالونيك الى عمانوئيل كانتا

كوزين في فيريا. وعمانوئيل هذا، كان الابن الثاني ليوحنا السادس المذكور، والذي كان يدافع عن قضيته في وقت تمت فيه الإطاحة بالأب وأُرغم على النزول عن العرش. الا انه بعد اتفاق تم ابرامه سنة ١٣٤٧ تربّع يوحنا على العرش، ولكن بصعوبة. وكان بجواره الوصي السابق القاصر يوحنا باليولوغ الخامس وذلك سنة ١٣٥٥. الا ان النفور بين السدّتين نما على نحو دفع يوحنا الخامس سنة ١٣٥٣ الى اعتماد لغة السلاح سبيلاً الى الحل. فاستعاد يوحنا كانتا كوزين مكانته بمؤازرة العثمانيين. الا انه سارع في مدة قصيرة إلى اشراك ابنه متّى معه في الإرجوان وهذا كان فوق قدرة القسطنطينية على أن تحتمله، فأُرغم على الاستقالة. وهنا تابع يوحنا باليولوغ، الوريث الشرعي، دفة الحكم، أما يوحنا كانتا كوزين المترهّب تحت اسم جوزاف، فكان المحاور اللاهوتي والمؤرخ. ومصيره هذا لم يكن بالأمر الجديد. لقد سبق له منذ سنوات ان عزم على دخول الدير.

هذا الكلام مهم، لا سيما لقارىء هذا الكتاب، لأن جزءاً من الخطة كان ينص على أن يكون كاباسيلاس نيقولا واحداً من صديقين رغب به الامبراطور لفصاحته ورجاحة عقله وحكمته وعفته وحسن سيرته. الا ان هذا المشروع لم يؤل الى نتيجة. ولا نعرف إذا كان كاباسيلاس قد رافق الامبراطور وتقرب منه في ذلك الحين.

وبمناسبة ترقية متّى كانتا كوزين سنة ١٣٥٤، قام كاباسيلاس بتقديم كلمة تأبينية حُفظت لنا الى اليوم. الا ان بطريرك القسطنطينية كاليستوس، رفض أن يبارك متّى هذا، وبالنتيجة خُلع. وعندما اجتمع الأساقفة لاختيار خلف له، رفعوا إلى الامبراطور ثلاثة اسماء، واحد منها كان كاباسيلاس، الذي كما يخبرنا الامبراطور نفسه انه كان علمانياً. الا ان اختيار الامبراطور لم يقع على صديقه كاباسيلاس، فليس لدينا من المعلومات ما يؤكد ان كاباسيلاس شغل منصباً كنسياً او انه قد شُرطن الى درجة كنسية. على

كل حال، الى ان تظهر لنا ادلة تغير هذا الواقع سيبقى كاباسيلاس علمانياً. واذا كان كاباسيلاس علمانياً فان هذا سيوضح،حتماً،ان اللاهوتي العلماني كان معروفاً في النصرانية المشرقية اكثر منه في الغربية.

عاش كاباسيلاس في أزمنة سادها صراع سياسي وجدل لاهوتي أيضاً. في أيامه برزت المسألة البالاماسية (نسبة الى القديس غريغوريوس بالاماس) وضع كاباسيلاس العديد من المؤلفات والعظات وسير القديسين. الا ان شهرته تعود الى عملين هامين هما:

١ ــ « الحياة في المسيح »

٢ ــ « تفسير القداس الإلهي ».

هذه محاولة ليتورجية أرجو أن تكون لمجد الله له المجد الى الأبد، آمين.

الأب

منيف حمصي

تصدير

من أمسك بيد باسيليوس الكبير او يد يوحنا فم الذهب لكتابة خدمة القداس الالهي الفائقة الروعة؟ ما لون الدهشة التي كانت تعتمل في قلبيهما وهما يرسمان خطوط هذه الخدمة الالهية لا الأرضية؟ هل كانا على الأرض؟ وان كانت اقدامهما عليها، ألمْ يكن عقلاهما وقلباهما مختطفَين الى السماء الثالثة؟ فما هي هذه الخدمة الالهية؟

ان طالعناها، قلنا انها مجموعة ابتهالات وحركات ذات هدف. وهدفها هو استدرار الروح القدس على الخبز والخمر، ليصيرا جسد الرب يسوع ودمه، لنتناولهما دواء للخطايا، وعلاجاً للنفس المتَهرِّئة بالأثم، وزاداً للحياة الأبدية. والدم هو دم الذبيحة الالهية المسفوك على الصليب. والجسد هو الضحية التي قرَّبها يسوع على مُحرقة الصليب للآب السماوي بالروح القدس. في العهد القديم صُور ورموز لذلك. ابراهيم مدَّد ابنه اسحق على حطب المحرقة في المكان الذي دُعِيَ «الرب يرى» (تكوين ٢٢:١٤)، ليذبحه، ويحرقه بالنار (تكوين ٢٢:١ ــ ١٨). النار نزلت من السماء على ذبيحة ايليا فأحرقتها.

ولكن الصورة الوافية تتضح من مقارنة الفصلين(٩ و١٠) من الرسالة الى العبرانيين بما يقابلهما في العهد القديم[1]. فيسوع هو رئيس كهنة

١ ــ الخروج ١٢:٥ ــ ١١ و١٣ و٢١ ــ ٢٤ و٢٧ و٤٦ والفصول ٢٥ و٢٦ و٢٩ و٣٠ و٢٤:٥ ــ ٨ والأحبار (اللاويون) ١٦ و١٧ والعدد ١٩:٣ ــ ٥ و٩ و١٧ واشعياء ٥٣:١٢ والمزمور ٣٩ ــ ٧ ــ ٩ وارمياء ٣١:٣٣ ــ ٣٤. الخروف الفصحي: خروج ١٢:١ واحبار (لاويون) ١٤ واشعياء ٥٣ ويوحنا ١:٢٩ و١٩:٣٦ واعمال ٨:٣١ ــ ٣٥ وكورنثوس الأولى ٥:٧ وبطرس الأولى ١:١٨ ــ ٢٠ ورؤيا ٥:٦ و١٢.

العهد الجديد الذي دخل قدس الاقداس بدمه لا بدم الثيران والعجول والكباش. دخله مرة واحدة، فأوجد لنا فداء أبدياً. دمه يطهّر ضمائرنا، بينما رماد ذبائح اليهود لا يُطهِّر الضمائر. يسوع قرَّب نفسه ذبيحة للآب السماوي بالروح القدس. النار في الكتاب المقدس ترمز الى الروح القدس. الكتاب قال: « الهنا نار آكلة » (تثنية ٤:٢٤). الروح القدس الساكن في يسوع هو النار التي شَوَت ذبيحةَ الصليب. ولكن هذه الذبيحة حيّة، اذ قام يسوع من بين الأموات.

يسوع هو خروفنا الفصحي الذي نأكله، فننال الحياة الأبدية.

في العهد القديم كان المستغفَر الموضوعُ كغطاء فوق تابوت العهد يحمل صورة كاروبيمين، هو رمزاً لقبر المسيح حيث شاهدت النسوة ملاكين. قبر المسيح هو قبر الخلاص والغفران. هو مائدتنا الفصحية التي نتناول منها يسوعَ خروفَنا الفصحي المذبوح على الصليب مشويًّا بالروح القدس الساكن فيه. واذ نتناول يسوع ــ الضحية القائم من بين الأموات ــ نحصل على الروح القدس السّاكن في يسوع. لذلك نقول في خدمة القداس: « حتى إن الهنا الذي تقبّلها على مذبحه المقدس السماوي العقلي لرائحة زكية روحانية يرسلُ لنا عوضاً عنها النعمة الالهية وموهبة الروح القدس نطلب »[1].

---

١ ــ سر التدبير الالهي، ص ٦٥ ــ ٦٦. وقد استشهدت فيه في مكان آخر بقول لأثناسيوس: « صار الكلمة حامل الجسد لكي يستطيع الناس ان يصيروا حاملي الروح القدس » (مين اليوناني ٢٦:٩٩٦). هذا المعنى يتكرر مراراً لدى القديس سمعان اللاهوتي الحديث مع التوضيح: غاية التجسد الالهي هي اعطاء الانسان الروح القدس ليؤلّهه :

Catéchèses 6,1. 112s; Hymnes, Tome I, p.243, 32-34; II, p.287-120-128; III, p.81-83:147-160; p.95:345; p.193:88-104; p.197:140; p.233:306-318; Ethiques 1, 10, 129-132.

الآباء القديسون سمّوا جرن المعمودية رَحِماً تلد المؤمنين لأن الروح القدس الذي يحلّ في جرن المعمودية. يعطيه هذه الوظيفة (افرام السرياني وسواه). سمعان اللاهوتي يستلهم غالباً هذا الرأي فيقول ان الروح القدس هو بركة تجدِّدُ الذين تحتضنهم فيها Hymnes III, p.95-97

في العهد القديم احتلّ الاسم الالهي « يهوه » مكانة كبرى[1]. أُحيط بخوف ووقار كبيرين حتى خشي اليهود النطقَ به. استعملوا بدائل منه. أهمها « ادوناي » أي « رب »، « الاسم »، « المقام »،...

في العهد الجديد،زال هذا النوع من الخوف، لأن ابن الله تجسَّد، وصار يدخل افواهنا في القربان المقدَّس، ويضمَّنا به الى ذاته، لنتحوَّل اليه او بالاحرى ليحوِّلنا الى ذاته، فيجعلنا آلهة بنعمته. فالمسيحية تختلف عن اليهودية في عقيدة التعالي Transcendance. يسوع اقرب الينا من قرب النفس من الجسد (كاباسيلاس) والرأس من الجسد (الذهبي الفم). يسوع أنقذنا من خوف العبيد ورفعنا الى خشية الأبناء ورهبة الأحبَّة، لكي نواجه ضحيّة الصليب بسجود، ورهبة، وشكر، وتسبيح، ودَهَشٍ. الكاهن الذي يبارك الخبز والخمر يقوم بمَهمة لم يكلِّف اللهُ الملائكةَ مهمةً مثلها (الذهبي). الكاهن مطالبٌ بأن يتطهّر، **بأن يكون فوق الملائكة**، فيدخل الهيكل ساجداً وعقلُه في قبضة النور الالهي. رأى نفر من رجال الله النار الالهية[2] تحلُّ في الهيكل، وتدخل الكأس المقدسة[3]. وبعضهم كان يرى شبه نسر يحل[4]. المائدة اقدس من علّيقة موسى. القربان الجاثم على المائدة هو المسيح الجاثم في القبر الناهض منه، الجالس الآن عن يمين الآب[5]. عندما يزور المسيحيون قبر المسيح يُدهشون، مع ان القبر صار فارغاً، بينما يقف يسوع على المائدة. الملائكة يساهمون معنا

---

١ ــ راجع كتاب « يهوه ام يسوع »؟

2 - Irina Goraïnoff, Séraphim de Sarov, Spiritualité orientale, n° 11; p.124 - Les Sentences des Pères du Désert; 3° Recueil, Solesmes, 1976; p.55-57.

3 - Goraïnoff, p.29 et 123-124.

4 - Les Sentences, Nouveau Recueil, Solesmes 1977; p.38. n° 68.

٥ ــ يوحنا كرونشتادت (ص ١٨٦ ــ ٨٧).

في الخدمة[٦]. ولكن هل ندخل الكنيسة ونحن نعي اننا محاطون بالملائكة، اننا ملائكة في اجساد، لتسبيح الثالوث القدوس؟

احد الرهبان رأى الملائكة تُناول ــ أثناء القداس ــ الرهبان المستحقين وتخطف القربان عن سواهم[١]. يوحنا السلّمي قال: « ان القوات العقلية تشارك الهادىء الحقيقي صلاته وعبادته، وترتاح إلى السكن معه »[٢]. وذكر عن نفسه انه كان يواظب[٣] على الصلاة التي لا تفتر[٤] بين الملائكة: « فصار أحدهم ينيرني ويروي عطشي إلى المعرفة.. هذا ولست أعلم هل عاينتُ هذه الرؤيا في الجسد أم خارج الجسد[٣]. ولكن هل ندخل نحن الساقطين المتعجرفين الغافلين الكنيسة ونحن نعي وعياً وافياً اننا محاطون بالملائكة، اننا ملائكة في أجساد لتسبيح الثالوث القدوس؟ يوحنا كرونشتادت[٥] وصف اهمالنا وطالب :

١ ــ باستعداد واسع للمشاركة في القداس الالهي.

٢ ــ بيقظة اثناء حضوره لئلا يشرد الذهن تائهاً في متاهات الدنيا وتفاهات العمر. وقال في الكاهن: « آه! كم يجب ان يكون الكاهن غير مكترث بأشياء الأرض وذلك لئلا يكون، عندما يحتفل بالخدم، الأسرار العظيمة والإلهية، مأخوذاً بفخاخ العدو، لكي يستطيع دائماً أن يحترق

---

٦ ــ خدمة القداس واضحة. وقد تساءل الرهبان عن اسباب عدم حضور سيرافيم احياناً الى الكنيسة ليتناول القربان. فكانوا يعرفون ما جاء في حياة القديس اونوفريوس، وأشار اليه كاباسيلاس في هذا الكتاب: « ملاك من قبل الرب يأتيني جالباً القرابين القدّوسة ويناولني. ولا يجلب لي وحدي المناولة الالهية، بل للنسّاك الآخرين أيضاً » (ص ٥٠ ــ ٥١ من كتاب Goraïnoff).

١ ــ Les Sentences, Nouveau Recueil, p.272, n° 434.

٢ ــ السلّم الى الله، ٩:٢٧ ص ١٧٠ من ترجمة دير الحرف، منشورات النور ١٩٨٠.

٣ ــ كذلك ٤٧:٢٧ ص ١٧٤.

٤ ــ كذلك ٤٦:٢٧ ص ١٧٤.

٥ ــ يوحنا كرونستادت (ص ١٨٦ ــ ٨٧).

بمحبة طاهرة لله ولاخوته.. بالإجمال يُطالب كرونشتات الكاهن بأن يكون الإنسان المثالي والقدوة الصالحة. ولكن الواقع المر يبقى الواقع.

وفي أيامنا كثُرت الأسئلة والتساؤلات حتى صرنا عاجزين عن القيام بالواجب. انما تُعبِّيء الكتب الثمينة بعض النقص، فيتفرّغ أهل المعرفة لأسئلة اخرى عن امور أشد غموضاً. ويزداد عدد الذين يحضرون خدمة القداس الالهي يومياً واسبوعياً لأن النهضة الروحية القائمة تغزو العقول والقلوب وتنيرها. ففي هذا الكتاب الجواب الشافي على الكثير منها، وان كان كاباسيلاس أقرب الى التأمل الروحي اللاهوتي منه الى التفسير. ونحن بحاجة الى هذه النفحات الروحية لنجدِّد بها يومياً ما يعلو نفوسنا من صدأ. وهل التجديد الا الإندماج في خدمة القداس والتهام جسد يسوع ودمه بفم من نار لا من لحم وعظام؟ جسده ودمه نارٌ تحرق الآثام ونورٌ يضيء كل إنسان.

إنه الاشتراك بنار الحضرة الإلهية. « الهنا نار » (تثنية ٤:٢٤) وصلواتنا نار.

فالكتاب الذي تُسلَّمون الآن،هو كتاب مسطور بضمير حي، ليكون خدمة جليلة للمطالعين. وقد أحسن المترجم الخيار، لأن لغتنا العربية فقيرة جداً في باب الكتب المطبوعة. تراثها مخطوطات بعدد هائل في اوروبا واميركا. ونشرُها مستحيل لانعدام الاختصاصيين والأموال. وصرنا بحاجة قصوى وسريعة الى كتب مركزية: أي كتب تعرض العقائدَ بتمامها ولو نسبياً، الروحانيةَ، النسكياتِ، شرحَ خدمة القداس، تفسير علمي روحي للاناجيل. النشر العربي المعاصر شبه حائر. بعضهم يطرح علناً ترجمة الآباء. اين الاختصاصيون؟ ليس لدينا القوت الضروري. نفكر في الكماليات المستحيلة قبل الضروريات. نحن بحاجة الى كتلة من التعليم

الديني الروحي الصوفي كمصلِ حياةٍ لجماهيرنا المحتضِرة روحياً في شرقنا المختنق تحت وطأة عصور الانحطاط.

هذا الكتاب سدَّ لنا ثغرة في فهم خدمة القداس الالهي. أرجو ان يسلك الآخرون مسلك سدّ الثغرات بفهم وعمقٍ ولغةٍ جيّدة واضحة. سُدُّوا الثغرات أولاً ثم أُسعوا نحو الكماليات.

أما موضوع الكتاب فلن يجد المطالعون صعوبات كبرى في قراءته وتمثُّله. فكاباسيلاس عاش الخدمة الالهية، وعَصَرَ نفسه، فأعطانا عصارتَه. لم يشرح لنا نصوصاً جامدة بل بثَّنا نفثات روحه: كتابه كتاب انسان اندمج بالقربان المقدس، اندمج بيسوع ذبيحتنا الحية، فانطلق دم المسيح من فكره وقلمه، لينثرَ علينا روائحَ هذا الدم الزكية، فتنعش رميم عظامنا المنخورة.

لكل كتاب لون. وفي كل كتاب لذة ومتعة. ولكن كل اللذات والمِتَع زائلة، ما عدا لذة الروحانيات: الصلاة والقربان والكتاب المقدس وكتابات الآباء القديسين هن ذوات طعم روحي خالد. وأقواها طعماً هو القربان المقدس ان تناولناه، والقلب لهيب نار، والعقل مختطف في صلاة بارة. وخدمة القداس هي خدمة مناولة القربان القدوس.

وبالتالي يكون التعمق في استيعابها تعمقاً في الذهول بذبيحة الصليب، لكي نتناول يسوع المصلوب الناهض من الأموات الجالس عن يمين الآب بقلب طاهر ونفس مشتعلة بالشوق اللاهب.

ولهذا،كانت وظيفة هذا الكتاب عجيبة: يدمجنا دمجاً قوياً بخدمة القداس ومركز دائرتها،أي تقديس القرابين وتناولها المحيي.

وليس لي بعد هذا من المزيد سوى الابتهال الى الله لكي يُنعم على المطالعون بفائدة هذا الكتاب، ويعوِّض على المترجم وزوجته نجاح وطفليه ايليان ودوريس بغنى فيض أنواره الالهية، حتى يبلغوا الى ملء قامة المسيح، جزاءً على الجهد المبرور المبذول.

اسبيرو جبور

المقـــدمَة

خدمة القداس الالهي هي اجلّ خدمة تقوم بها الكنيسة. هي خدمة دينية يرتقي، أثناءَها، المؤمنون بالصلوات وتلاوة الكتب المقدسة الى مستوى روحي رفيع، يشتركون معه في الخدمة مع الملائكة والقديسين، لكي يبلغوا ذروة أولى يستدعي فيها الكاهن الروح القدس، لكي يحوّل الخبزَ الى جسد الرب، والخمرَ الى دم الرب. فيجيب المؤمنون : « آمين » وينتقلون معاً من ذروة الى ذروة، فيلتمسون ان يكونوا مستحقين على الطلب بجرأة ودالّة الى الله لكي ينادوه: « أبانا ». فيتلو الجميع الصلاة الربّية « أبانا الذي في السموات.. » فيتجاسرُ الخاطئون على مناداة الثالوث القدوس « أبانا »[1] بصيغة الجمع دون تفريق بين مؤمن وآخر. انه امر تقشعِرُّ له الأبدان وترتعد من هوله الملائكة. ليس الثالوث أباً لفرد بل أباً للمجموعة، للكتلة، لجمهرة المؤمنين. وبما اننا أبناء، نتجاسر قليلاً

١ ــ القديس مكسيموس المعترف اعتبر اللفظة موجّهة الى الثالوث القدوس لا الى الآب لوحده. وفسَّر عبارة « خبزنا الجوهري » بمعنى القربان المقدس لا القوت الجسدي الذي علّمنا يسوع ان لا نهتم به. أما زعم استاذي الأب بوريس بوبرنسكوي ان لفظة « أبانا » تنصرف الى الآب فهي مخالفة لرأي مكسيموس وانداده: Bobrinskoi, Le Christ dans la Liturgie, Conférences Saint Serge, Roma, 1981.

على تناول جسد الرب ودمه. وبذلك يدخل يسوع جسمنا فيحوِّلنا الى ذاته. الأعلى يبتلع الأدنى. الله ينقل الانسان من انسان الهُراء والنتن الى التألّه. يحوّلنا فيصنعنا آلهة بالنعمة. في كل الأسرار، نحظى بنعمة. أما في هذا السر فجسد يسوع ودمه المتحدان بلاهوته يتحدان بنا. ما انا سعيت نحو يسوع، يسوع هو أحبَّني، ففتَّش عني انا الغريقَ في نار جهنم الخطايا، لكي يجدني، لكي ينتشلني من قعر آثامي، لكي يضمَّني الى ناسوته (الطبيعة البشرية)، وذلك لأصيرَ وايَّاه واحداً. ان هذا السر لرهيب حقاً.

والكنيسة اعتادت منذ العنصرة ان تقيم خدمة القداس، فيتحلَّق المؤمنون حول الذبيحة الإلهية كحول أشهى مائدة، جياعاً، عطاشاً، يلتمسون خبزَ الحياة ودمَ الفداء، للشفاء من النجاسة والتعفّن، من البؤس والشقاء، وينشدون شفاءَ اجسادهم من البلى والفساد.

وقد عرفت الخدمة تطوراً عبر العصور بدخول عناصر جديدة على صلواتها، وتعميقٍ لاجوائها، لكي ينتقل المصلّون من الأفكار الأرضية الى الأفكار الملائكية. وكان حظ الارثوذكس منها حصةَ الأسد. فقد اعتنوا بقدَّاسهم نصاً وموسيقا حتى بلغ ذروة من ذُرى الإتقان.

موسيقياً، الترتيل البيزنطي على الحان القسطنطينية وعلى الألحان الروسية خلب الباب السامعين من ارثوذكس وسواهم. الخرافة تقول ان الروس قدموا القسطنطينية لدراسة دينها، فسمعوا الترنيم الأرثوذكسي فعبَّروا عن ذهولهم به بالقول انهم لا يعرفون ما اذا كانوا في الأرض ام في السماء. ولا يقلّ الترتيل الروسي روعة عن اليوناني. والعربي والروماني والبلغاري القديم « متأثرون » باليوناني. ما زال القسطنطيني (الاسطمبولي) وترنيمُ جبل آثوس أجود ألحاننا وترانيمنا.

أمّا نصّ الخدمة الحالي فمعقَّد جداً بما بثَّه آباؤنا القديسون من معانٍ صوفيَّة نلحظها في شروح ديونيسيوس المنحول ومكسيموس المعترف

(٦٦٢) وكاباسيلاس (النصف الثاني من القرن ١٤) وسمعان التسالونيكي (١٤٢٨).

لقد كتب عدة آباء عن المعمودية. اما خدمة القداس، فعلى ما نراه لدى كاباسيلاس: كان الناس يعيشون خدمة القداس، فوجدوا في عيشها الكفاية والاستغناء عن الشروح. لذا جاء شرح كاباسيلاس أنواراً كاشفة على خطوط كبرى، لا شرحاً مُسهباً. واستفاض في معالجة امور كانت مطروحةً على بساط النقاش في ايامه، مثلاً وقت الاستحالة لدى اللاتين، ومعنى كلمة UПÉP بعد الاستحالة. فشرحها شرحاً مُسهباً ليثبت ان معناها هو الاستشفاع بالقديسين لا الابتهال من اجلهم. وأطالَ التدليلَ، عبثاً، ليُثبت ان ابرارنا الراقدين يتناولون. فاعتبرت ميرالوت بورودين ذلك رأياً له خاصاً به لم يقل به احد سواه من قبل. وأطالَ ليثبت ان الخدمة التي يُقيمها كاهنٌ غيرُ مستحق ذو سلوك منبوذ، هي صحيحة. فهو وسيط **فقط** في السر، لا فاعل أصيل. الله هو الفاعل الأصلي.

نيقولا كاباسيلاس علماني (لا اكليريكي) معاصرٌ للقديس غريغوريوس بالاماس. مال الى التقوى وحياة الهادئين رهبان جبل آثوس المقدس، فعاش يقلّدهم في صمته وهدوئه وتقواه وسلامه الداخلي. كتابه « الحياة في المسيح » مُتْرَعٌ بالمعاني المستقاة من بولس الرسول. طالعَ آباء الكنيسة وتضلّع منهم. في كتاباته نفحات من يوحنا فم الذهب، وغريغوريوس النيصصي، وكيرللس الاسكندري، ومكسيموس المعترف، ويوحنا الدمشقي، فضلاً عن ديونيسيوس المنحول وسواهم.

البطريرك الياس الرابع معوَّض أتحفَ القرَّاءَ العرب بلؤلؤة مؤلفات كاباسيلاس: « الحياة في المسيح ». وهو كتاب شائق ونادر بين كتب التصوُّف والتقوى.

كتابنا هذا يدخل في التصنيف نفسه لجهة النبرات الروحية اللاهوتية الصوفية. الا انه لا يتناول المادة بكل جوانبها وتفاصيلها. انما هو كتاب مركزي لفهم خدمة القداس. كاباسيلاس من نوادر الذين غاصوا وراء لآلىء خدمة القداس بنجاح. والكتاب معاصر تقريباً لكتاب المائدة والمذبح في « الحياة في المسيح » وكان جديراً بالوجود في هذا الكتاب. فليراجعه القرَّاء في ترجمة المغبوط البطريرك الياس (الرابع).

كاباسيلاس لا يتناول موضوعه مثل الشرّاح المعاصرين بنداً بنداً، كأنه استاذ هندسة. في الروحانيات، يفشل هذا الأسلوب. مكسيموس المعترف دائرة معارف يونانية في زمانه. ولكنه لم يستطع ان يخضع لمنطق ارسطو. لأن تجلّياته الروحية تأبى الانضباب والانحصار في منطق ارسطو. التصوُّف نفحة إلهية لا ثرثرة عقلية.

وقد تمَّ تداركُ نقص الكتاب بالحواشي المستفيضةِ والتعليقاتِ واضافةِ نصِّ خدمة القداس الى الشرح كلما كان ذلك لمصلحة وضوح المعنى. فتمَّت اضافة فصل كامل من قسمين عن اغلاق الأبواب في نهاية قداس الموعوظين، وعن الشيروبيكون (الترنيمة الشيروبيمية). وكان من الممكن اضافة فصل آخر عن انديفونات قداس الموعوظين. الا ان ذلك يُخرج كاباسيلاس كثيراً عمَّا رسم لنفسه من حدود.

لقد شهدت الثلاثون سنة المنصرمة انتعاشاً واسعاً لأبحاث الليتورجيا. معجم الآثار المسيحية والليتورجيا الفرنسي كان قبل ٢٤ سنة ٢٢ مجلداً كبيراً واقفاً على حرف ل. اللقاءات الليتورجية المطبوعة بعنوان Conférences Saint Serge, Roma نافت على ثلاثين مجلَّداً.

بقي كتاب كاباسيلاس رائداً لمن بعده من الشرَّاح كسمعان التسالونيكي والمعاصرين. وقد استحق اهتمام اللاهوتية الرائدة الكبيرة ميرا

لوث بورودين الروسية الأصل، فخصَّته بمقالات مجموعة في كتابها الثمين عن كاباسيلاس[1].

تولَّت مقدمة المترجم التعريف بكباسيلاس. اما المقدمة الحالية فمبنية على طلب الاخوين الحبيبين الأب منيف حمصي وزوجته نجاح ان أقرأ لهما الكتاب. ما كان لي الخيار. طالعته حرفاً حرفاً، والقلم بين الأنامل ليدوِّن الملاحظات. الا ان نظري لا يساعدني على المقارنة. فلم ارجع الى الأصل اليوناني او الترجمتين الفرنسية والانكليزية الّا حيث بدا الأمر غامضاً وعسيراً. فالأمانة لدى المترجمين تعيق حرية تصرّفهم.

أشهد للكتاب بالسلامة لاهوتياً وتفسيرياً. فهو خالٍ من المآخذ. ولغته العربية واضحة وسليمة دون تعقيدٍ او سعيٍ الى بلاغةٍ لا تعني شيئاً لـ ٩٩,٩٩٪ من المواطنين. بولس الرسول سخر من بعض الناس (كورنثوس الأولى ١٤) المنتفخين. الاقتراب من عقول عامة الناس لتلقينها الدينَ خير من سحر اللغة الخاص بـ ١/١٠٠٠٠ وربما ١/٥٠٠٠٠ من المواطنين. لذلك عمد المترجم أحياناً الى التصرف في ترجمته ليتَّضح المعنى تماماً، ويكون الكتابُ مفيداً. وقد اعتمد النصين اليوناني والانكليزي للوصول الى غايته.

ثم ان إقحام نصّ الخدمة في الشرح جمَّلها جداً جداً وسهَّل فهمها. والتعليقات سدَّت الفراغ والنقص. فصار المطالع اللبيب قادراً على استيعاب النص والامتلاء من معانيه الشائقة.

1 - Borodine, Nicolas Cabasilas, éd. de l'Orante, Paris 1958.

القسم الأول

في هيكل بعض الكنائس كرسي يرتقيه المطران او البطريرك تَحوط به كراسي للكهنة. يمثّل الموقف يسوعَ محفوفاً بالشيوخ الأربعة والعشرين المذكورين في سفر الرؤيا[1]. ويتمّ الحدَث أثناء قراءة الرسالة.

وبعد الانجيل يتلو الكاهن طلبات حارة تنتهي بالطلب من الموعوظين أن يخرجوا من الكنيسة. ويتم إغلاق الأبواب لكيلا يبقى احد سوى المؤمنين المعتمدين لحضور قداس المؤمنين.

مكسيموس المعترف يقول ان نزول رئيس الكهنة من العرش وصَرْفَ الموعوظين يُشير بصورة عامة الى الظهور الثاني أي مجيء ربنا يسوع المسيح من السماء، ليدين البشرَ، فيميّز الخرافَ من الجداء أي القديسين من الخاطئين، ويكافيء كل منهم بالعدل[2]. ويعني أيضاً طردَ كل اهتزاز في الايمان من قلوب المؤمنين على صورة إخراج الموعوظين. فالمؤمنون رسخوا في الايمان. وبولس قال ان يسوع يسكن فينا بالايمان[3].

---

١ ــ رؤيا ٤:١٠ و٥:٨ ــ ١٤ و...

٢ ــ متى ٢٤:٣١ ــ ٤٦.

٣ ــ افسس ٣:١٧.

فالمؤمن خرج من الأمور الأرضية ودخل العالم المعقول اي حجرة زواج المسيح والانعدام الكامل للنشاط الخدّاع الذي تقوم به حواسنا. ويفرّق مكسيموس بين العاملين والعارفين. بالنسبة للعاملين يعني حالة عدم الهوى الكاملة apatheia. وهي حالة يتم بموجبها[1] طرد الفكر الممزوج بالهوى[2] والغير المستنير[3] من حيّز النفس. وبالنسبة للعارفين يعني معرفة الأشياء المعلومة معرفة متفهِّمة، يتم بموجبها طرد كل صور الأشياء المادية[4] من النفس[5].

---

١ ــ apatheia. لفظة يونانية من الاستعمال الفلسفي الرواقي. معناها المسيحي في فكر الآباء غريغوريوس النيصصي ــ مكسيموس المعترف هو ايجابي positif لا انفعالي passif كما لدى الرواقية. مسيحيا تعني: زوالَ حالة التمزق الداخلي والانتصار على الاهواء، وبلوغَ السلام الداخلي. فهي نصر لا موقف انفعالي سلبي بائس. فاحد اقطاب الرواقية انتحر. اما « السلام فهو التحرُّر من الأهواء؛ ولا يمكن اقتناؤه بدون فعل الروح القدس » (مرقس الناسك، الناموس الروحي، العدد ١٩٢ ص ٨٤ من ترجمة الأب يوحنا يازجي في « فصول في الصلاة والحياة الروحية »، ١٩٨٣).

٢ ــ لدى ايفاغريوس وسواه. مرقس الناسك تعرَّض أيضاً للموضوع (الفصول ٨٧، ٩١، ١١٩، ١٣٩ ــ ١٤٢، ١٦٢، ١٦٨ ــ ١٧١، ١٧٨، ١٧٩ ــ ١٨٢ من المرجع المذكور، منشورات النور). مكسيموس استفاض في ذكر ذلك في مئوياته الأربع عن المحبة: هناك الفكرة او الخاطر الذي يخطر لنا، فنحاوره، ونميل الى هذا الخاطر ميلاً عاطفياً بهوىً. التفريق بين الخاطر والهوى يعني أننا نجحنا في السيطرة على الهوى، فيخطر الخاطر كعابر سبيل لا يعلق بنا شيء منه، ولا يشغل بالنا، ولا يستقطب أية حالة انفعالية فينا. القديس نيلوس سورسكي (١٥٠٨) يعتبر فاتحة الأمور هي « ايحاء » suggestion تعقبها « معاشرة » ثم الرضى (القبول) فنقع أسرى الايحاء، ثم الهوى (Spiritualité orientale, n° 29 - 44 - 49). القديس يوحنا السلمي استعمل لفظة « ايحاء » (٢٢:١٨ ــ ٢٠ ص ١٢٢ و٢٧:١ ص ١٦٩) وسواها. يوحنا كرونشتادت (١٩١٠) طرق الموضوع تربوياً. فنبه الى خطر ترك الأولاد يصيرون اصحاب نزوات ومتقلّبي الأطوار capricieux. فهذا يؤدي في رأي احد آباء البرية، الأب إيليا الى عداء؛ « حبُّ الانسان لقريبه، الذي له سبب دنيوي يتحول مع الزمن إلى بغضاء ضارية » (Les Sentences des Pères N.R.P 243 n.390) وقال كرونشتادت أيضاً « النزوة (caprice) هي جرثومة (أصل) فساد القلب، صدأ القلب، عثُ المحبة، بذرة الشر، رجاسة أمام الرب » وقد ترجمت « صدأ » فإن كان

هذا التفسير الصوفي سنراه مجدَّداً في نهاية القسم الثاني من هذا الفصل. فمكسيموس ذو رؤية سماوية لخدمة القداس الالهي كخدمة تجري في السماء، لا على الأرض: أي على غرار ليتورجيات سفر رؤيا يوحنا الانجيلي.

= كرونشتادت يقصد متى ١٩:٦ فالترجمات المعاصرة فضّلت ترجمة اللفظة اليونانية المقابلة بلفظة « سوس » بدلاً من صدأ. أما يوحنا السلمي فقال « التربية او العشرة علة لأعظم الشرور أحياناً... المعوج النفس هو فاسد في كل مكان » (السلّم الى الله، ترجمه دير الحرف » ١٢٤ ص ١٥٧، منشورات النور (١٩٨٠).

٣ ــ بذلك يركز مكسيموس على الاستنارة بالروح القدس، لا على الجهد الفردي فقط. يطرد المرء الخاطر الممزوج بالهوى بقدرة الروح القدس الذي هو نور (انظر أيضاً السلّم الى الله ١:٢٧).

٤ ــ لدى ايفاغريوس والناقلين عنه ينتهي المتصوّف الى حالة يخلو معها ذهنه من كل صورة للأشياء المادية وكل شكل. في هذا المستوى لا يبقى الا الله شاغلاً النفس، فيعرفه معرفة مباشرة فيها الفهم الكامل على قدر طاقته. في اللاهوت النوراني الذي كمّل فيه سمعان اللاهوتي الحديث وجبل آثوس وبالاماس خط مكاريوس المنحول السوري ومكسيموس المعترف ويوحنا السلّمي واسحق النينوي* تتم الإستنارة بالله. فعرف الله نوراً. ونوره القائم فينا هو أداة المعرفة. هو النور والمنير.

٥ ــ مكسيموس، ميستاغوجيا، الفصلان ١٥ و٢٤).

* الثلاثة من الكرسي الإنطاكي والسلّمي رئيس دير سيناء (في مشرقنا)

القسم الثاني

الشيروبيكون (التسبيح الشاروبيمي)

أهمل كاباسيلاس معالجة هذا النشيد المهم جداً. يبدو انه كان في البداية في قداس باسيليوس ثم دخل قداس الذهبي الفم (على ما في المخطوطات). الا انه معروف منذ القديم لا في القرن الثاني عشر كما ذكرت بورودين[1]. فأقدم ما لدينا منه يعود الى القرن العاشر[2] في قداس باسيليوس. وهو مكتوب قبل هذا القرن. فيه تركيز على الوهة يسوع وناسوته.

المرنّمون يرنّمون:

« أيها الممثلون الشيروبيم تمثيلاً سرياً والمرنمون التسبيح الثالوثي قدسه للثالوث المحيي، لنطرحْ عنا كل الاهتمامات الدنيوية، اذ اننا[3] عازمون ان نستقبل ملك الكل »، أي يسوع.

---

1 - Myrrha Lot - Borodine, Nicolas Cabasilas, Paris 1958, p.35.

2 - Zuzek, Le Christ dans la liturgie, Edizioni Liturgiche, Roma 1981, p.364-

٣ ــ او: لأننا.

اما الكاهن فينصرف الى تلاوة هذا الابتهال الرائع:

« ليس احد من المرتبطين بالشهوات واللذات الجسدانية مستحقاً أن يتقدّم اليك او (ان) يدنو منك او (ان) يخدمك يا ملك المجد[1] لأن الخدمة لك عظيمة ومرهوبة عند القوات السماوية نفسها أيضاً. لكنك لأجل محبتك للبشر الغير الموصوفة والغير المحصاة، صرت انساناً بلا استحالة[2] ولا تغيير وحصلتَ لنا رئيس كهنةٍ[3]. وبما انك سيد[4] الكل سلّمت الينا خدمة هذه الذبيحة الكهنوتية الغير الدموية، لانك ايها الرب الهنا انت وحدك تسود السماويين والأرضيين، الراكب على كرسي الشيروبيم، وربُّ السيرافيم[5]، وملك اسرائيل[6]، القدوس وحدك[7] والمستريح في القديسين[8]. فاليك اذاً اتضرع ايها الصالح[9] والسميع الحسن[10] وحدك. انظر اليَّ أنا عبدك الخاطىء والبطّال[11]. وطهّر نفسي

---

١ ــ « ملك المجد » هو يهوه في المزمور ٢٣:٧ ــ ١٠ وصموئيل الثاني ٦:١٢ ــ ١٥ ويوحنا ١٢:٤١ ــ ٤٦.

٢ ــ اللفظة مستعملة في تحديدات المجمع الرابع المسكوني.

٣ ــ العبرانيين ٥:٤ ــ ٦ و٨:١ ــ ٣.

٤ ــ لفظة موجَّهة الى يهوه في أيوب ٥:٨ واخبار الأيام الأول ٢٩:١١ (السبعينية اليونانية).

٥ ــ اشعياء ٦ وحزقيال ١.

٦ ــ صفنيا ٣:١٥ ويوحنا ١:١٩.

٧ ــ اشعياء ٥٧:١٥ احبار ١١:٤٤ ــ ٤٥؛ ١٩:٢؛ ٢٠:٧، ٢٦؛ ٢١:٨؛ ٢٢:٣٢. ورؤيا ١٥:٤.

٨ ــ كورنثوس الثانية ٦:١٦ ــ ١٨.

٩ ــ لقب الله في مرقس ١٠:١٨ ولوقا ١٨:١٩.

١٠ ــ كلمة كثيرة الورود في المزامير. الأفضل « الحَسَن السمع » أي المستجيب.

١١ ــ العشار قال: « ارحمني انا الخاطىء » (لوقا ١٨:١٣). « العبد البطال » متى ٢٥:٣٠ و٢٦. انظر الحكمة ٩:٥ والمزمور ١٤٢:٧.

وقلبي من الضمير الرديء[1]. واجعلني كفوءاً[2] بقوة روحك القدوس ــ اذ انا لابس نعمة الكهنوت ــ ان اقف[3] لدى مائدتك هذه المقدسة، وأخدم جسدك القدوس الطاهر ودمك الكريم، لأني اليك اتقدم حانياً[4] عنقي، واطلب اليك. فلا تصرف وجهك عني[5] ولا ترذلني[6] من بين عبيدك. لكن ارتض ان أقدّم لك هذه القرابين، أنا عبدك الخاطىء والغير المستحق[7] لأنك أنت المقرِّب والمقرَّب، والقابل والموزِّع ، أيها المسيح الهنا. ولك نرسل المجد مع أبيك الذي لا بِدء له، وروحك الكلي قدسه الصالح والصانع الحياة، الآن وكل اوانٍ والى دهر الداهرين. آمين ».

هذا الدعاء الرائع موجَّه الى الرب يسوع المسيح. المرتبطون بالجسد وشهواته ولذّاته غير مستحقين للتقدم الى خدمة يسوع، لأن يسوع اله. والاقتراب من الله « أمر هائل » حتى بالنسبة للملائكة[8].

ولما ظهر الله لموسى كان الظهور محفوفاً بحوادث خارقة جداً[9] حتى ان موسى قال: « اني خائف مرتعد »، لأن « المنظر » كان « هائلاً ».

---

١ ــ كورنثوس الثانية ١:٧.

٢ ــ عند بولس الرسول: كفاءة لخدمة العهد الجديد، عهد الروح اذا زال عهد الحرف (كورنثوس الثانية ٤:٣ ــ ٦). الله يمنح هذه الكفاءة وهو يدعو الكهنة كما دعا هرون (عبرانيين ٤:٥ ــ ٦). اذن: يسوع هو الله.

٣ ــ جبرائيل الواقف أمام الله (لوقا ١٩:١) لدى ظهوره لزكريا أبي المعمدان.

٤ ــ مثل العشار لوقا ١٣:١٨.

٥ ــ المزمور ٧:١٤٣.

٦ ــ عبرانيين ١٧:١٢.

٧ ــ متى ٨:٨.

٨ ــ اشعياء ٤:٦ ــ ٥ وحزقيال ٤:١ ــ ٢٨. انظر عب ٣٠:١٠.

٩ ــ عبرانيين ١٨:١٢ ــ ٢٩ وخروج ١٩ و٢٠ وتثنية ٤ و٥ و١٩.

ومع هذا الهول الذي يضرب الملائكة والبشر، ارتضى يسوع بفائق محبته للبشر ان ينحدر الينا، متنازلاً، منسحقاً، متواضعاً ليأخذ صورة عبد ويصير انساناً مثلنا[1]. ولكن انسحاقه هذا لا يبدِّل لاهوته. فهو انسان واله بدون استحالة ولا تغيير.

وما جاء سائحاً، بل جاء رئيس كهنة ليخدمنا، ليقدِّم ذبيحة عن خطايانا. فالكهنة مقامون لخدمة الشعب والتكفير عنهم. يسوع قدَّم نفسه ذبيحةً على الصليب. ولكنَّ ذبيحة الصليب مستمرة في الكنيسة. وهي مركز الدائرة فيها، حيث تَعلقُ الأبصار من كل جانب. فالمؤمنون يتحلّقون حولها وقلوبهم مشدودة اليها بمغناطيس الهي. يسوع قال: « حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا اكون هناك فيما بينهم »[2] ولكن حضوره هذا بيننا حضور غير منظور. أما حضوره على المائدة فهو حضور حقيقي منظور، لأن ما نراه بعد الاستحالة، ليس خبزاً ولا خمراً بل يسوع نفسه[3].

وقد أقام يسوع الكهنة خدَّاماً يخدمون هذه الذبيحة الكهنوتية غير الدموية. فهو نفسه أوصى تلاميذه باقامة العشاء السري لذكره. ذبيحة الصليب ذبيحة دموية انفجر فيها الدم من جسم يسوع بالمسامير والحربة واكليل الشوك وحتى بالجلدات بمقرعات فيها رصاصات (أي اجسام حادّة تجرح). أما ذبيحتنا نحن فهي غير دموية. لا نَذبح فيها، انما الصلوات تستدّر من الآب السماوي حلولَ الروح القدس على القرابين ليتمّ تحويل

---

١ ــ فيلبي ٢:٥ ــ ٩. في عب ٤:١٥: « مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ».

٢ ــ متى ١٨:٢٠.

٣ ــ القديس سمعان التسالونيكي، مين اليوناني ١٥٥:٩٦٨ آ، ب. وقال أيضاً: « الضحية في فعل مخلصنا نفسه. فهو نفسه الذي يضحِّي والذي يضحَّيه كهنته وخدامه » (المجلد نفسه: ٢٤٢ آ؛ ٤١٨ د).

الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه. هذا التحويل يضع أمام عيوننا يسوع نفسه الذي حبلت به العذراء: منذ حبله حتى ولادته وآلامه وصلبه ودفنه وقيامته وصعوده الى السماء وجلوسه عن يمين الآب[1].

وليس الأمر بعسير على يسوع لأنه رب السماء والأرض القادر على كل شيء القدوس المستريح في القديسين لأنهم هيكله، وبيته، ولذلك يتضرّع اليه الكاهن اذ هو صالح وحده وحسنُ السماع. انما لا بدّ من التذلّل أمامه بالتوبة والخشوع والتطهّر من الرجاسات، ليقف الكاهن أمامه مثل جبرائيل الواقف أمام الله وعن يمين المذبح عندما كلّم زكريا. فهو لابس نعمة الكهنوت. هذه النعمة تخوّله القيام بالخدمة، ولكنه يلتمس قوة الروح القدس ليكون واقفاً بجدارة واستحقاق، لأنه ليس بخادم للأشياء الأرضية، بل لجسد يسوع ودمه. ويدعم طلبَه لدى الله بحني عنقه والالتماس. فحنيُ العنق تذلّلٌ وخشوعٌ وطاعةٌ وتواضع. يلتمس التفاتةَ الرب وهو تائب، لا مرذولٌ مثل عيسو غير التائب (عبرانيين ١٢:١٧) وأضرابه. ويسأل رضوانَ الله ليقدِّم القرابين وهو تائب مثل العشار، وشاعرٌ بعدم استحقاقه مثل قائد المائة، لا مثل أداة صماء[2].

ويتوارى الكاهن متواضعاً، فيعلن أنه أداة فقط[3]. اما يسوع فهو الكل في الكل. يسوع ــ من وراء الكاهن ــ هو الذي يقرِّب الذبيحة

---

١ ــ سمعان، الموضع نفسه و Boulgakov, L'Orthodoxie, Paris 1932; p.186

٢ ــ Borodine, p.40-44.

« فأي انسان أكل خبز الرب او شربَ كأسه وهو على خلاف الاستحقاق فهو مجرم الى جسد الرب ودمه » (كورنثوس الأولى ١١:٢٧).

٣ ــ ولكن على الكاهن ان يتطهَّر ليكون ملاكاً في جسد امام المائدة، ليكون مقدِّساً للشعب قد قدَّس نفسه اولاً. والا خان نفسه وكان عقابه مضاعفاً.

وهو نفسه الذبيحة (المقرَّب)، وهو الذي يقبلُ الذبيحةَ بما انه إلَهٌ، وهو نفسه يوزِّعه علينا الكهنة. هو الاله وهو الانسان. يقرِّب جسده ودمه لذاته ذبيحةً ويقبَلها ثم يوزِّع نفسه علينا. فأي شكر يستحق يسوع والآب والروح القدس على هذا الاحسان السامي الجليل؟

وبعد هذا الدعاء يتلو الكاهن ثلاثاً « ايها الممثلون... » بتمامها. أي يتلو أيضاً الجزء الذي يقوله المرتلون بعد الدخول:

« مَحفوفاً بالمراتب الملائكية بحال غير منظورة، هليلويا، هليلويا، هليلويا »

من هم الذين يمثّلون الشيروبيم تمثيلاً سرّياً (صوفياً mystically)؟ هم المؤمنون المشتركون مع الملائكة في ترنيم التسبيح الثالوثي قدسه » أي: « قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت » الذي سمع اشعياءُ الملائكةَ تنشده لله (٦:١ ــ ٦). وبما اننا شركاء الملائكة في الخدمة وممثِّلون لهم بصورة صوفية، فعلينا ان نجرِّد نفوسنا من اهتمامات الأرض ونوجِّهها نحو الله، لأننا مزمعون ان نستقبل ملك الجميع تَحُفُّ به الملائكة. فالموكب جليل: يتطلب منّا انتباهاً كاملاً يجرِّدنا من هموم الأرض، وعشقاً الهياً يدمجنا بالله.

« هللويا » كلمة عبرانية انتقلت الى المسيحيين. تعني: « هلِّلوا لِيَهْ ». يَهْ اختصار للفظة يهوه. وهي كلمة تهليل لله. وبعض المزامير منسوب اليها. فاستقبال ملك الكل يحتاج الى احتفال لائق به مصحوباً بالتهليل.

ثم يتناول الكاهن المبخرة ويبخّر حول المائدة، والمذبحَ والايقونات والشعب.

اثناء دورته حول المائدة يتلو ٣ طروباريات الاثنتان الاوليان تتعلقان بالقبر والنزول الى الجحيم والقيامة والوجود في كل مكان. الثالثة للعذراء

المسكن المقدس الالهي للتجسّد، كما ان القبر هو مثوى ذبيحتنا الفصحية.

يكرر الكاهن هنا ما سبق فقام به بعد الذبيحة من تبخير وصلوات. وامام الباب الملوكي يقول ٣ مرات: « هلموا نسجدْ ونركعْ للمسيح... » ثم المزمور الخمسين « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك... » هذا مزمور توبة داود. وهو اشهر المزامير. فالموقف موقف سجود وتوبة واستغفار لأن المرحلة تمثِّل انتقال جسد يسوع من الجلجلة الى القبر.

وبعد التبخير يتلو الكاهن ٣ طروباريات توبة واستغفار، بما انه ــ مثل الابن الشاطر والعشّار ــ غارق في أمواج الأفكار الباطلة ساقطُ النفس.

ثم يسجد ثلاثاً امام المائدة المقدسة ويقبِّل الانديمنسي، ويقف في الباب الملوكي حانياً رأسه وطالباً المغفرة من الشعب[1]. وهذا تصرّف رائع جداً بحد ذاته أولاً، ولمنفعة الشعب ثانياً، فيتعلّم الشعب من كاهنه التواضعَ وطلب المسامحة[2].

وينتقل الكاهن بعدها الى المذبح وهو يتلو طروباريتين رائعتين في نغمة التوبة ثم ثالثة عن انزال يوسف جسد يسوع عن خشبة الصليب وتكفينه وتقريظه.

(راجع نص الخدمة للوقوف على مضمون هذه الطروباريات).

---

١ ــ النص العربي لم يورد ما جاء في طبعة صغيرة يونانية صدرت ١٩٨١ عن « الخدمة الرسولية » في اثينا بعنوان « الليتورجية الالهية للقديس يوحنا فم الذهب » (ص ٢٨): الكاهن يقول للشعب:

٢ ــ « يا اخوة! سامحوني أنا الخاطىء »
اللهم سامح الذين يبغضوننا والذين يحبوننا ».

فالكاهن وضع نفسه في صف المجرمين والابن الشاطر[1] (حرفياً: الخليع)، وقد جرَّحه اللصوص كما جرَّحوا الانسان النازل من اورشليم الى اريحا. فيطلب الى يسوع طبيب النفوس ان يسكب عليه زيت رحمته العظمى.

طروبارية انزال يوسف للجسد والطروباريات المقولة أثناء التبخير تدلُّ على ان المذبح يمثّل الجلجلة.

يقف الكاهن أمام المذبح ويقول **ثلاثاً** (أي على اسم الثالوث القدوس): « يا الله اغفر لي انا الخاطىء وارحمني ».

ثم يقبِّل القرابين كما قبَّلها في نهاية التقدمة (الذبيحة)، وهو يتلو صلاة مشابهة للصلاة السابقة:

« قدوس الله الآب الذي لا بدء له. قدوس القوي الابن المساوي له في الأزلية. قدوس الذي لا يموت الروح المعزي، المنبثقُ من الآب المستريحُ في الابن. ايها الثالوث القدوس المجد لك ».

في صلاة التقدمة: « الروح الكلي قدسه. ايها الثالوث القدوس المجد لك ».

فهذه الصلاة موجَّهة الى الثالوث القدوس الذي صنع خلاصنا بموت الرب يسوع ذبيحة على الصليب من اجلنا. ولفظة « المجد » هي خاتمتها كما في اشعياء ٣:٦ ورؤيا ٩:٤ و١١ و١٢:٥ و١٣ و١٢:٧ و٤:١٥.

ثم يخرج الكاهن حاملاً القرابين بيديه (الصينية باليمنى والكأس باليسرى) هاتفاً: « جميعنا ليذكر الرب الاله في ملكوته السماوي... » في اليوناني جاء: جميعنا لا جميعكم. هذا يذكّرنا بقولِ اللص ليسوع: « اذكرني متى اتيتَ في ملكوتك ».

---

١ ــ الابن الشاطر = asotis = prodigal

ثم يدخل الكاهن ويضع القرابين على المائدة المقدسة، وهو يقول طروباريات تتعلق بإنزال يوسف جسد يسوع، ولفّه بالكتان النقي، وتحنيطه بالطيوب، واضجاعه في القبر، وظهور الملاك مبشّراً النسوةَ بقيامة يسوع، ونزول يسوع الى الجحيم مبيداً، واقامته الأمواتَ وسط تسبيح الملائكة لجلاله.

كل هذا يدعم رأي سمعان التسالونيكي الذي قال ان هذه الدورة ترمز الى نقل الجسد من الجلجلة الى القبر، بينما يبدو كاباسيلاس يقول ان هذا الدخول يرمز الى مجيء يسوع من بلده ودخول اورشليم يوم الشعانين ليموت فيها.

مكسيموس المعترف يعطي الدخول الكبير تفسيرات صوفية ويستشهد بقول الرب يسوع:

« اقول لكم اني من الآن لا أشرب من عصير الكرمة هذا الى ذلك اليوم الذي فيه أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي »[1].

فالدخول هو غوص في عمق المعرفة اللاهوتية واسرارِ الخلاص. ويفرّق (مكسيموس) بين درجات الناس: ١ ــ لدى العاملين يعني الانتقال من العمل الى المشاهدة لدى الذين أغلقوا احاسيسهم، وصاروا خارج الجسد والعالم باقصائهم طاقات هذه الاحساسات... ٢ ــ لدى العارفين يعني الانتقال من التأمل الطبيعي الى الفهم البسيط للأشياء المعقولة...

ميرا لوت بورودين تنسب الأمور الى تأثير فيلون اليهودي (المعاصر للمسيح) وسواه. وغيرها يربط الأمور بمخطوطات البحر الميِّت. فيلون مفسِّر يهودي متأثر بالفلسفة اليونانية. الاسّانيّون (اصحاب مخطوطات البحر الميت) فرقة يهودية. تبقى في أحضان العهد القديم.

---

١ ــ متّى ٢٦:٢٩.

ديونيسيوس المنحول ومكسيموس وبالاماس يبقون الى حد بعيد ــ وبخاصة الأخيران ــ في خط الكتاب المقدس.

ان استطعنا استنفاد كل الروابط القائمة بين سفر الخروج ورؤيا يوحنا وانجيل يوحنا اكتشفنا: السماوي

١ ــ موسى اقام كل شيء على أساس النموذج السماوي الذي أراه اياه الله.

٢ ــ يوحنا يمثّل تسابيح الكنيسة وعبادتها في اواخر القرن الأول.

٣ ــ أعاد يوحنا النموذج الأرضي الى الأصل السماوي. فالأول رموز والثاني حقيقة. يوحنا وصف لنا عبادتنا التي تجري في السماء حيث يسوع هو هيكلنا وذبيحتنا ورئيس كهنتنا وملكنا والهنا.

واستشهاد مكسيموس بمتى ٢٦:٢٩ يضعنا في هذا الإطار. ليتورجيتنا (خدمة القداس) لا تجري على الأرض، بل في السماء.

وقداس المؤمنين الذي يبدأ بالشيروبيكون يجري في السماء. ورأينا ــ منذ بدايته ــ الملائكة مساهمين معنا في الخدمة. ومكسيموس يعير وجود الملائكة في الكنيسة أهمية خاصة.

وخلال خدمة القداس يتردّد كثيراً امر اشتراك الملائكة معنا واشتراكنا معهم.

وفي هذا الإطار يطيب لي ان اورد هذه الفقرات الرائعة من القديس الروسي المعاصر يوحنا كرونشتادت[1]:

« ان الليتورجيا الالهية هي حقيقة خدمة السماء على الأرض، التي خلالها، الله نفسه، بصورة خاصة، هو حاضر (وهو) يقيم مع الناس، بما

---

1 - Jean De Cronstadt, Ma vie en Christ, Spiritualité orientale, n°27. 1979:p 186-87

انه هو نفسه المحتفل (بالخدمة) غير المنظور الذي يقرِّب ويقرَّب. فلا شيءَ على الأرض اقدس من الليتورجيا، ولا اسمى، ولا أعظم، ولا اكثر احتفالاً، ولا اكثر إحياء. في هذا الوقت المعيَّن، تصير الكنيسة سماءً ارضية، الذين يحتفلون (بالخدمة) يمثِّلون المسيح نفسه، والملائكة ، والشيروبيم، والسيرافيم، والرسل...: عرس الحَمَل (الخروف)، عرس ابن الملك، حيث كل نفس مؤمنة هي عروس ابن الله؛ والروح (القدس) هو الذي يقود اليه العروس.

« عندما نزل الرب على جبل سيناء، تلقَّى الشعب اليهودي الأمرَ بأن يستعدَّ سلفاً وبأن يتطهَّر. في الليتورجيا الالهية، لا نحظى بأدنى من ذلك، بل بأكثر من نزول الله على جبل سيناء: هنا، امامنا، يوجد وجهُ الله نفسُه، الذي أعطى الشريعة. فلما تراءى الرب لموسى في العليقة الملتهبة، أُمِرَ (موسى) بأن يخلع نعليه من رجليه. وهنا اعتلان الله يتفوَّق على اعتلانه في حوريب : هناك الرسم فقط؛ هنا، الحقيقة ».

والشيء بالشيء يذكر. فقد مرّ معنا في التقدمة (الذبيحة) وفترة الشيروبيكون، تسبحة يتلوها الكاهن للثالوث القدوس. انها توسيع لترنيمة التسبيح الثالوثي القدس: « قدوس الله. قدوس القوي. قدوس الذي لا يموت ». هذا التوسيع، أعطى هذا السبح في الكنيسة الأرثوذكسية معنى الإختصاص بيسوع وحده، خلافاً للسبح. السبح الآخر : « قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت. السماء والأرض مملوءتان من مجدك. هوشعنا في الاعالي مبارك الآتي باسم الرب. هوشعنا في الأعالي »[1].

بالنسبة للتسبحة الأولى الخيار ممكن. بالنسبة للتسبحة الثانية، الإشكال وارد. فالقسم الثاني « هوشعنا... » هو هتاف الجماهير ليسوع لما دخل

1 - Gerhards, Le Phénomène du Sanctus adressé au Christ, p.65-84, Edizioni Liturgiche, Roma 1981 (Le Christ dans la Liturgie), نخالفه جزئياً، (ص ٧٥).

اورشليم في أحد الشعانين. والقسم الأول قابل للتفسير الثالوثي وللتفسير المفرد أي الخاص بيسوع لوحده. فيوحنا الإنجيلي اعتبر ظهور مجدالله لاشعياء ظهوراً ليسوع. فتكون « قدوس، قدوس، قدوس... » قابلة للتطبيق على الرب يسوع[1] الا ان الإبتهال السري (الافشين السري) ينطبق على الثالوث القدوس وحده.

اسبيرو جبور

---

١ ــ راجع كراسة « شهود يهوه معلمون كذبة » ص ١٤ ــ ٢١.

شرح القداس الالهي

ما هي الغاية من القداس الالهي؟[1]

ان الهدف الأساسي من اقامة القداس الالهي، هو تحويل الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه الالهيين. اذاً الغاية من القداس الالهي هي تقديس المؤمنين وغفران خطاياهم وميراث ملكوت السموات. وكتحضير لذلك، هناك الصلوات والمزامير والقراءات من الكتاب المقدس. وباختصار، هناك كل الأعمال المقدسة والحركات والأشكال التي أجريت وقيلت قبل وبعد تقديس الخبز والخمر. فالله يهبنا كل الأمور المقدسة حقيقة، وبحرية، بدون أي مقابل من جهتنا، بل ان هذه الخيرات هي هبات مطلقة منه، انما تفترض ان نكون اهلاً لتقبلها وحفظها. والله لا يسمح لغير المستعد بأن يتقدس « من لم يولد من الماء والروح لا يدخل ملكوت السموات... » (يوحنا ٣:٥). فالله يدعونا الى المعمودية والميرون، وبها يستقبلنا الى وليمته الالهية للاشتراك فيها. والمسيح يسوع، أوضح لنا في مثل « الزارع » ان الله يتعامل معنا. كيف؟ « خرج الزارع ليزرع... » (متى ١٣:٣). الزارع لم يخرج ليحرث الأرض، انما خرج ليزرع. لماذا؟ ما السبب؟ خروج الله الزارع للزرع يعني ان عملية الحراثة والفلاحة منوطة بالانسان. تهيئة الأرض لنا وبذر الحب هو لله. وهذا يعني ان قطاف ثمار

---

١ ــ العنوان من وضع الأب منيف حمصي.

الأسرار الالهية يستوجب الدنو من الأسرار في حالة نعمة، في استعداد عميق وجيد. ومن الضروري ان يتمثل هذا الاستعداد في ترتيبات ليتورجية. فالصلوات، كما يتبين للذين يمارسونها لها فعلها العميق وتأثيرها الحي الأصيل على حياتنا. فهي تطهرنا وتجعلنا مستعدين للقداسة لتقبّلها وتمثّلها والاحتفاظ بثمارها.

والصلوات تقدّسنا : فهي تعيننا مع القراءات والمزامير وتُوجّهنا نحو الله وتهبنا الصفح عن الخطايا. اما القراءات من الكتاب الالهي، فهي تُعلن لنا حب الله للناس وتكشف عدالته. القراءات تُدخل الى نفوسنا مخافة الرب وتُلهب فينا محبته فتنهض فينا الشوق لحفظ وصاياه وتمثّلها. فالقراءات مع الصلوات الجماعية تُقدس الكاهن والشعب معاً فتجعل الكل أهلاً لاقتبال الأسرار المقدسة والمحيية. هذه هي غاية الليتورجيا. فهي تضع الكاهن في الاطار اللائق استعداداً لاتمام الذبيحة الالهية التي هي غاية التعليم (Mystagogy). فالذبيحة الالهية، (القداس الالهي)، هي غاية كل الصلوات. والكاهن يصلي لئلا يُدان وهو غير مستحق لإقامة هذا السر العظيم. لذا فهو يستعد لهذه المهمة الرهيبة بيدين نظيفتين، وقلب طاهر نقي، ولسان عفيف لا يطال احداً في شيء ، او في سوء.

ثم ان الصلوات الجماعية تُقدسنا، ففيها نستحضر حياة الرب يسوع والأعمال التي قام بها والمعجزات التي اجترحها والآلام التي تكبدها حباً بنا. وهي باختصار صورة تُوجز مخطط عمل الفداء الذي اعده الله حباً بنا من اجل تحريرنا من عبودية الشيطان وثقل الخطايا الرهيب بغية تربية نفوسنا للتوجه اليه. وهكذا تنتصب أمام الذين يشتركون في القداس الالهي كل اوجه المخطط الالهي. وتقديس الخبز والخمر هو في ذاته تذكير بموت الرب وقيامته وصعوده الى السماء. فالمسيح يسوع هو الصورة المركزية في كل الأسرار المقدسة. فالأحداث التي تسبق الذبيحة الالهية، تُمثّل ما حصل قبل موت الرب على الصليب بالجسد من اجلنا، مجيئه

الى العالم، ظهوره الأول، ثم، اعتلانه الكامل. اما ما يلي الذبيحة، فانما يذكرنا بوعد الآب (لوقا ٢٤:٤٩ اعمال ١:٤) وأعني حلول الروح القدس على الرسل واهتداء الأمم على ايديهم. لهذا فالتراتيل الافتتاحية والقراءات المختلفة، وقبل ذلك، كل ما يجري من أجل اعداد القرابين، فإنها انما تُمثل المراحل الأولى من مخطط الخلاص. فالقراءات والتراتيل وسواها تنقلنا الى الفضيلة وتجعل الله ينظر الينا بعين العطف. والملابس بدورها تؤدي مهمة خاصة وتُظهر لنا عمل وكرامة من يلبسها. كذلك القراءات من الكتاب المقدس، فهي تحثنا على الفضيلة وتُقدس من يقرأونها ويُنشدونها. كل حركة ليتورجية لها معنى ومدلول. كل حركة لها هدف وفائدة. لكن في الوقت نفسه، كل حركة تُمثل وجهاً من وجوه حياة وأعمال وآلام الرب يسوع. كذلك هناك بعض الحركات ذات معنى تصويري كطعن الحمل (القربانة)، ممثلة بذلك عمل الصليب « وانّ واحداً من الجند طعن جنبه بحربة للحال خرج من جنبه الطاهر دم وماء... » (يوحنا ١٩:٣٤). كذلك هناك ما يجري في نهاية الخدمة تقريباً، وأعني الماء الساخن المسكوب في الكأس « حرارة ايمان تستوعب روحاً قدساً ».

ففي المعمودية هناك حركات ليتورجية أيضاً. فالمرشحون للاستنارة يتوجب عليهم خلع احذيتهم وثيابهم، (تعبيراً عن رفض الانسان العتيق انسان الخطيئة)، والتوجه نحو الغرب لرفض الشيطان. فكل هذه الحركات هي في النهاية لتعليمنا واجب مقت الشر. وكيف ان من رغب ان يكون مسيحياً يتوجب عليه إبرام قطيعة ابدية مع الشيطان.

اذاً نلاحظ ان كل الحركات الليتورجية ذات صلة وثيقة بمخطط عمل الخلاص فهي ترمي الى وضع تصميم الخلاص الالهي نصب اعيننا لتتقدس به نفوسنا فنصبح أهلاً لتقبل القرابين الطاهرة. فكما ان عمل الخلاص عندما أُنجز في البدء اعاد لحمة الكون، هكذا الآن عندما يتمثل امامنا،

فإنه يجعل الناظرين اليه افضل وأكثر تألهاً. ولن يكون الأمر هذا نافعاً الا اذا كان خلاصنا موضوع حياة وايمان وتأمل. فالله قد سبق الانبياء وبشروا عنه ورتبوا لمجيئه، وهكذا خلق، في الذين عاشوا طيلة حياتهم شوقاً اليه، حباً وكرامة اكثر،لم يسبق ان كانت من قبل. هذه هي بعض وجوه الاستعدادات التي ينبغي ان نتحلى بها عندما ندنو من الأسرار الالهية والا لن يكون في نفوسنا خشوع وايمان ومحبة نحو الله. لهذا كان لا بد من اعمال تقدر على تحريك حواسنا وايقاظها. كان لا بد ان نعاين فقر من أغنى الكل. كان لا بد ان نرقب مجيء الحاضر في كل مكان الينا. كان لا بد ان نتأمل في آلام من هو غير متألم. كان لا بد ان نعاين مقت الناس له وحبه لهم. كان لا بد ان نتأمل في كل ما صنع حتى يُعد لنا المائدة المقدسة لنشترك في حياته. وهكذا فإننا بعد تأمّل، سننذهل أمام مراحم الله واحساناته فنندفع اليه جاعلين حياتنا بين يديه. ولكي نبلغ الى أعماق هذه الأمور،لا بد ان نرغب بلقاء الرب. لا بد أن نطرد عنا كل الأفكار الغريبة. لأن المرء ان لم يكن مستعداً ان يعطي قلبه كله لله، يستحيل ان ينال أية بركة او تقديس مهما كانت اعماله ومظاهره وحركاته. لهذا فإن الاطار الكامل للخدم الالهية بكل رمزيته ومدلولاته يرتسم أمامنا جسراً رائعاً عليه نعبر الى المشوق اليه يسوع المسيح. وعندما نمتلىء من كل هذه الأفكار وتلطف ذكراها ومعانيها جفاف قلوبنا، نسرع الى المناولة لنضيف على نقاء النية، قداسة الكيان باتحادنا بربنا يسوع المسيح، وهكذا ننتقل من مجد الى مجد(٢ كور ١٨:٣). هذه هي أهمية المسرحية الالهية (القداس الالهي)، فلندخل الى عمق التفاصيل.

قلنا ان مخطط الفداء يترامى بين جنبات الخدمة الالهية[١]. لذا دعونا

---

١ ــ القداس الالهي.

ننتقل تدريجياً عبر عالم القداس الالهي الجميل للوقوف على كل ما فيه من تفاصيل.

اولاً، لماذا لا يُؤتى بالقربان والخمر الى المائدة مباشرة لتُذبح؟

لماذا تكرس كتقدمات اولاً؟ ما السبب؟

في ظل الناموس القديم كان هناك انواع عدة من الذبائح. فقد كان اليهود يُقدّمون لله دم الحيوانات المفترسة. كذلك كانوا يُقدمون له الهدايا من ذهب وفضة ونحوها. ويسوع، في نهاية حياته على الأرض، صار ضحية عندما بُذل ليمجد اباه. لقد تكرس يسوع الانسان منذ البداية لله. كان الانسان يسوع مطيعاً ليسوع « الله » في كل شيء. لكنه في نهاية حياته الأرضية قدم ذاته ذبيحة من اجل خلاصنا. لهذا السبب فإن التقدمات التي تُمثل يسوع لا تُحمل مباشرة الى المائدة لتذبح، لأن الذبيحة تأتي في نهاية المطاف. فتكريسها يسبق ذبحها. انها تقدمات عظيمة نقدمها لله. وهذا ما فعله يسوع نفسه في العشاء الأخير عندما أخذ الخبز والخمر بيديه الالهيتين وكرسهما للآب. فالكنيسة تفعل ما علّمها اياه ربها. وربنا هو الذي قال: « اصنعوا هذا لذكري » (لوقا ٢٢:١٩). لذا ما كان من الكنيسة الا أن حذت حذوه.

السؤال الآن: **لماذا تأخذ القرابين هذا الشكل؟**

القدماء قدموا بواكير غلالهم ومحاصيلهم واغنامهم ومواشيهم وقطعانهم وسواها. ونحن نخصص لله بواكير حياتنا، وأعني القوت البشري. فالقوت يصون أجسادنا. الحياة تقوم بالطعام، تُمثّل بالطعام. والرب يسوع أمر أن تُعطى الصبية طعاماً لتأكل وذلك بعد ان اقامها من الموت. وهذا كان لكي يُبرهن على حضور الحياة بالطعام (مرقس ٥:٣٥ ــ ٤٣). لذا من الطبيعي ان نعتبر الطعام باكورة الحياة نفسها. لماذا اذا تأخذ القرابين هذا

الشكل؟ التغذية تشترك بها كل الخلائق. فالحبوب مأكول الطيور. واللحم مأكول الحيوانات. ونحن نشترك في هذه وتلك. من هنا فإن الحاجة الى خبز الخبز واستخراج الخمر هما امران محصوران بالانسان دون سواه. لهذا السبب نحن نقدم من قوت حياتنا تقدمة نتفرد بها بين سائر خلائق الله. (للمزيد راجع السؤال المتعلق بالخبز والخمر).

سؤال: لماذا اذاً نقدم القرابين على انها باكورة حياتنا؟

الله يهبنا حياته مقابل تقدمتنا. لذا يليق ان تكون التقدمة على قدر المكافأة لا أن تكون بعيدة عنها. وما دامت مكافأة الله لنا هي الحياة نفسها، اذا ينبغي ان تكون تقدمتنا حياة أيضاً رغم الفرق السحيق بين حياة الله وحياة الانسان. فالله هو الذي يأمرنا بأن نقدم الخبز والخمر (متى ٢٣:٥ ــ ٢٤). فكما انه اعطى الرسل سمكاً مقابل سمك، جاعلاً الصيادين في البحر صيادين في المجتمع، وكما انه وعد ان يعطي الشاب ــ الذي سأله عن الملكوت ــ كنوز السموات مقابل كنوز الأرض (متى ٢١:١٩)، هكذا هنا هو يأمر الذين سيعطيهم الحياة الأبدية، ان يقدموا بالمقابل دعامة الحياة الأرضية (الخبز).

وهكذا بتنا نأخذ حياة مقابل حياة، خلوداً مقابل الشيء المؤقت. والأمر نفسه نجده في المعمودية، نموت مع المسيح لكي نملك معه في حياته (رومية ١:٦ ــ ٦). ففي المعمودية نقايض حياة بحياة. نعطي حياة فاسدة فنأخذ اخرى لا تفسد. فالمخلص الذي مات وقام عنا رغب في ان نشترك في حياته. ويبقى السؤال: **ما هي** تقدمتنا تحديداً؟ انها الاقتداء بموته. وكيف ذلك؟ عندما تُدفن أجسادنا بالماء كما لو في قبر، (ثلاث مرات). كيف نموت مع المسيح؟ كيف نقوم معه؟ الموت، في هذا العالم هو اعنف سلاح في يد الشيطان. فالشيطان يوجّه افكارنا الى الموت لنتخلى عن الايمان بالرب. وبولس الرسول في رسالته الى أهل روميه يقول:

« ...وبالخطيئة دخل الموت... » (رومية ٥:١٢). والموت باق ببقاء الخطيئة. لذا لا ندوس الموت الا اذا دسنا الخطيئة « ... لأنه من اهلك نفسه من اجلي ومن اجل الانجيل يجدها (مرقس ٨:٣٤ ــ ٣٧). ولا نقدر ان ندوس خطايانا الا اذا دسنا العالم ومطربات العالم. فلا بد لنا من الانفطام عن العالم. لا بد ان نفطم انفسنا عن العالم وأن نفطم العالم عن المطالبة بنا. وهذا ما نتعلمه من الرسول الالهي بولس « ...صُلبت للعالم وصلب العالم لي... ». ونحن في حياتنا لسنا ملزمين بالموت الجسدي سبيلاً للشهادة للرب. نحن في اوان الشهادة لا الاستشهاد (كما كانت حال المؤمنين في عصور الاضطهاد). الا أن الشهادة والاستشهاد صنوان. فالانسان من الآن يمكنه ان يذوق الحياة الأبدية، اذا تمسك بالرب. فالعبودية للرب هي السبيل الوحيد الى الحياة كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم.

السؤال الآن: **لماذا لا تُقدَّس كل القرابين التي تحمل الى الكنيسة بل يكتفى بالجزء الذي يفصله الكاهن؟**

لا بد من القول اولاً ان الرب يسوع هو المقرَّب والمقرِّب بآن، فهو الذي قدم نفسه ذبيحة حب من اجل الانسانية. هو الذي اودع هذه التقدمة في حضن الآب (في يديك استودع روحي) (لوقا ٢٣:٤٤ ــ ٤٥). لهذا السبب فالقربانة التي ستتحول الى جسد الرب، تنفصل عن سائر القرابين على يد الكاهن الذي يضعها على صينية معدة... ثم يحملها الى المائدة المقدسة ويقدمها ذبيحة.

وما دامت التقدمة على المذبح،فهي مجرد تقدمة لا اكثر ولا أقل. الا ان لها خاصية جديدة فهي مُعدة ان تتحول الى جسد الرب بفعل حلول الروح القدس عليها. القربانة هي تقدمة، لأنها تمثل ربنا أثناء المرحلة الأولى من حياته على الأرض عندما صار قرباناً. وهذا حصل في لحظة ولادته

لأنه كبكر، صار تقدمة منذ ولادته وذلك بمقتضى الناموس. لقد قدّم نفسه قبل اوان الصلب. لهذا السبب يرسم الكاهن على القربانة اشارات الذبح قبل نقلها الى المائدة المقدسة لتكون ذبيحة. كيف يفعل هذا؟ عندما يأخذها من بين التقدمات ويقدمها بعد أن ينقش عليها اشارات آلام مخلصنا وموته.

في الحقيقة ان موت الرب قد تنبأ الأنبياء عنه منذ القديم لا بالكلمات فقط، بل بالحركات أيضاً. فها اسحق قد مضى الى الذبح على يد ابراهيم (تكوين ٢٢). فالكاهن في القداس الالهي يصور لنا كيف بدأ الرب يتألم، وكيف مات، وكيف طُعن جنبه بحربة، وكيف سال دم وماء من جنبه الطاهر. والكاهن في هذا كله، يحاول التعبير عن احداث تعجز عن التعبير عنها السنة الفصحاء والفهماء.

اعداد الذبيحة الالهية

وبعد أن يستعد الكاهن لاقامة الذبيحة الالهية يفتح علبة الأواني المقدسة وهو يقول: « استعدي يا بيت لحم فقد فُتحت عدن للجميع... » القنداق (صفحة ٦٩). ثم يُمسك القربانة التي منها سيأخذ الحمل، ويقول: « لتذكار ربنا والهنا... » فهو يُطيع يسوع لأنه هو قال: « اصنعوا هذا لذكري » (لوقا ٢٢:١٩). وهذه الكلمات التي ينطق بها، لا تنطبق على القربانة فقط، بل على الخدمة الالهية كلها. فهو يبدأ بهذا التذكر وينتهي به، لأن ربنا لفظ هذه الكلمات: « اصنعوا هذا لذكري »، بعد ان كان قد أنجز السر.

ما هو هذا التذكر؟ كيف نتذكر الرب في القداس الالهي؟ أياً من أعمال يسوع نستحضر؟ ماذا نستدعي منه ومن حياته؟ هل نستدعيه لأنه اقام الموتى واعاد البصر للعميان وهّدأ الرياح والعواصف وأطعم الآلاف بالقليل من الخبز؟ لا. انما ينبغي ان نتذكر الحوادث التي تشير الى الضعف:

صليبه، آلامه، موته... هذه هي الحوادث التي يدعونا الى تذكرها. وكيف نعرف ذلك؟ انه تفسير الرسول بولس الذي فهم جيداً كل ما هو متعلق بالمسيح. فقد كتب الى أهل كورنثوس عن هذا السر فأورد اولاً كلمات الرب « اصنعوا هذا لذكري »، ثم اضاف: « لأنكم كلما اكلتم هذا الخبز... » (اكور ١١:٢٦). وربنا نفسه شدد على هذه الناحية لما أسّس هذا السر عند قوله: «هذا هو دمي... وهذا هو جسدي » (لوقا ٢٢:١٤ ــ ٢٣). لم ينوّه لتلاميذه بعجائبه قائلاً: انا أقمت الموتى وشفيت البرص... بل تكلم عن آلامه فقط، عن موته ودفنه وقيامته. لماذا اذاً يذكرنا بآلامه؟ السبب هو لأن آلامه ضرورية اكثر من عجائبه. آلامه هي سبب خلاصنا، وبدونها ما كان ممكناً للبشرية ان تُفتدى. من ناحية ثانية، كانت العجائب بمثابة براهين وذلك لكي يؤمن الناس بالمسيح مخلصاً حقيقياً.

من اللائق فعلاً ان نتذكر الرب بهذه الطريقة. فالكاهن بعد أن يقول: « لتذكار ربنا... » يقوم بما يرمز الى صلب يسوع وموته. فعندما يطعن القربانة، يتذكر ما قاله نبي العهد القديم في آلام المسيح: « كشاة سيق الى الذبح » (وهنا يغرز الحربة عن يمين الختم في القربانة) (اشعيا ٥٣:٧). وفصل الحمل عن القربانة يمثل عبور ربنا يسوع من العالم الى الآب « انا اترك العالم وامضي الى الآب... » (يوحنا ١٦:٢٨). ثم يغرز بعد ذلك الحربة في شمال الختم قائلاً: « مثل حمل بريء من العيب صامت أمام الذي يذبحه هكذا لا يفتح فاه. ثم من الجهة العليا ويقول: « بتواضعه ارتفعت حكومته ». ومن جهة تحت فيقول أيضاً: « اما جيله فمن يصفه ». فالكلمات التي يتلوها الكاهن أثناء فصل الحمل عن القربانة تجسد حقيقة ما يجري. وهكذا ينفصل الحمل عن القربانة، تماماً كما انفصل يسوع عن جماهير الناس الذين اشترك في طبيعتهم بداعي حبه لهم. بعد ذلك يرفع الحمل من القربانة الى الصينية ويقول: « لأن حياته ارتفعت من الأرض. ثم يقلبه في الصينية ويذبحه بشكل صليب قائلاً: « يُذبح حمل

الله الرافع خطيئة العالم من اجل حياة العالم وخلاصه. وبعد ذلك يقلب الختم « الحمل » جاعلاً الطابع الى فوق ويطعنه كما طُعن جنب يسوع ويقول: « وان واحداً من الجند طعن جنبه بحربة للحال خرج من جبنه المقدس دم وماء. والذي عاين شهد وشهادته حق » (يوحنا ١٩:٣٤ ــ ٣٦). ويشير الكاهن الى سيلان الدم والماء بعد الطعن وذلك بسكب الخمر والماء في الكأس قائلاً: (مبارك هو اتحاد قدساتك).

لماذا نتذكر الرب؟ ماذا كان سبب هذا الطلب؟ ما الهدف من مطالبة الرب ان نتذكره على هذا النحو؟ السبب هو لكي لا نكون عديمي الشكر، سريعي النسيان. فالمديونون بالشكر يمكنهم رد ديونهم الى المحسنين اليهم بحفظ ذكراهم. والبشرية ابتكرت وسائل كثيرة للتذكر والتخليد: نصب تذكارية، تماثيل، اعمدة، مهرجانات، احتفالات، العاب، وكلها ترمي الى غاية واحدة الا هي تخليد العظماء الصالحين. والرب يسوع عمل بالمثل، فهو يعلم ان الناس يطلبون العلاج الناجع ضد النسيان وذلك ليحفظوا ذكر المحسنين اليهم. فالانتصارات في التاريخ نُقشت على اعمدة تخليداً لذكرى الأبطال، كذلك اسماء المعارك التي فيها فازوا او التي بسببها صاروا في بحبوحة وازدهار. ونحن بنفس الطريقة ننقش على تقدماتنا موت الرب الذي حقق نصراً كاملاً على قوى الظلام. فالشعوب في نُصبها وتماثيلها ترسم المحسنين اليها، اما نحن فعلاوة على ما يفعلون، نمتلك جسد سيدنا ودمه الطاهرين. فالعهد القديم أنجز الأمور بالرمز الى ان جاء يسوع فحقق هذه الرموز وجسّدها. كان هناك ذبيحة الحمل الذي حفظ دمُه ابكار العبرانيين في مصر. وهنا في العهد الجديد عندنا يسوع المسيح الرافع خطايا العالم. هذا هو هدف التذكر.

ثم يتابع الكاهن عملية التقدمة، فيأخذ قطعة صغيرة من كل القرابين المقدمة ويصنع منها التقدمة المقدسة. **ماذا يقول وهو يقطع هذه الأجزاء؟**

١ ــ « لإكرام وتذكار سيدتنا المجيدة الفائقة البركات والدة الاله الدائمة البتولية مريم التي بشفاعاتها يا رب اقبل هذه الذبيحة على مذبحك السماوي ». بعد هذا يرفع الجزء بالحربة ويضعه عن يمين الحمل قائلاً: « قامت الملكة عن يمينك موشحة ومزينة بثوب مذهب ».

٢ ــ لاكرام وتذكار رئيسي طغمات الملائكة العظيمين ميخائيل وجبرائيل وجميع القوات السماوية ». بعد هذا يضع الجزء عن شمال الحمل. (والجدير بالذكر ان الكاهن يقتطع تسعة اجزاء يضعها كلها على يسار الحمل).

٣ ــ « والنبي الكريم السابق المجيد يوحنا المعمدان والآباء القديسين... موسى وهرون وايليا واليشع وداود ويسّى والفتية الثلاثة... ودانيال وسائر الانبياء القديسين ». (الاجزاء التسعة ترتبط كل منها بمقطوعة ادوّنها هنا بأرقام).

٤ ــ والقديسين المجيدين الرسل الكلي مديحهم بطرس وبولس ويعقوب ويوحنا والقديس مؤسس الكنيسة (فلان) وسائر الرسل القديسين.

٥ ــ وآبائنا القديسين معلمي المسكونة رؤساء الكهنة المعظمين باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم واثناسيوس وكيرلس ويوحنا الرحوم ونيقولاوس اسقف ميرا واسبيريدون العجائبي وسائر رؤساء الكهنة القديسين.

٦ ــ والقديس استفانوس اول الشهداء ورئيس الشمامسة والقديسين المجيدين الشهداء العظام جاورجيوس الحائز راية الظفر وديمتريوس المفيض الطيب وثاوذوروس التيروني وثاوذوروس قائد الجيش وسائر الشهداء والشهيدات القديسين والقديسات.

٧ ــ وآبائنا الابرار المتوشحين بالله: انطونيوس الكبير وافثيميوس وسابا واونوفريوس وارسانيوس واثناسيوس الذي في آثوس وجراسيموس وباييسيوس وبطرس وديونيسيوس الاولمبي وسائر الأبرار والبارات القديسين.

٨ ــ والقديسين الصانعي العجائب العادمي الفضة قزما ودميانوس وكيرلس ويوحنا وبندلايمون وارمولاوس وثالالاوس وتريفن والقديسات العادمات الفضة.

٩ ــ والقديسين الصديقين جدي المسيح يواكيم وحنة والقديسين يوسف الخطيب وسمعان الشيخ... وجميع قديسيك الذين نسألك بهم ان تفتقدنا يا الله وترحمنا. (ويرفع جزءاً على نية كاتب القداس القديس يوحنا الذهبي الفم أو سواه).

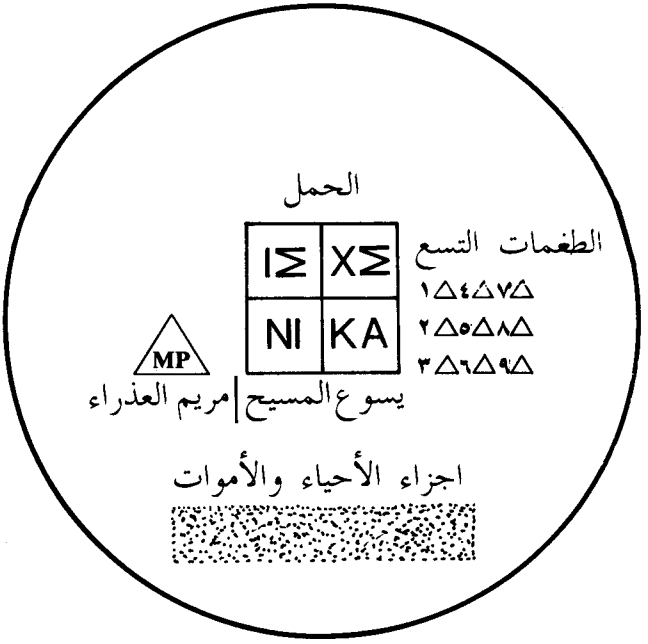

ما معنى كل هذا؟ انه يعني ان التقدمة لها سبب: الشكر لله والتضرع اليه. فنحن بتقدماتنا نُظهر شكرنا للمحسن الينا على كل ما حصلنا عليه. هذا أولاً. ثانياً، نحن بتقدماتنا نتوقع الاحسان الينا، وهذا هو التضرع. ففي التقدمة الأمران حاصلان : شكر مع تضرع. من هنا فإن تقدماتنا هي شكرية وتضرعية في الوقت ذاته.

سؤال: ما هي المنافع الممنوحة لنا؟ ماذا نترجى بعد؟ هي ذاتها في كل حين وآن: انها مسامحة خطايانا وميراث ملكوت السموات. هذا ما طلبه المسيح منا اولاً. وهذه المنافع هي التي تسلمتها الكنيسة فعلاً والتي من اجلها ما تزال الى الآن تُصلي. انها جسد الرب ودمه. الرب هو خبزنا الجوهري. نحتاجه يومياً لمحو خطايانا وتجديد ما وَهَن من قوانا وجلاء صدأ نفوسنا واقتناء يسوع في قلوبنا كنزاً ثميناً لا يفنى وخلاصاً أبدياً. ما هي الصورة التي ما زالت الكنيسة تمتلك بواسطتها هذه النعم والخيرات؟ بأي معنى نقول انها ما زالت لا تملكها حتى انها الى الآن ما برحت تصلي من اجلها؟ لقد حصلت الكنيسة على هذه العطايا عندما اصبحت قادرة على امتلاكها. لقد تسَلّمتْ القدرة على جعلنا ابناء الله (يوحنا ١:١٢).

هذه هي العطية المشتركة عند كل المسيحيين، وقد اخذناها بموت مخلصنا وتتضمن القدرة على المعمودية المقدسة والأسرار الأخرى، بحيث اننا فيها نصير اولاداً لله وورثة لملكوت السموات. ثانياً، لقد اشتركت الكنيسة في ميراث هذا الملكوت حقيقة عبر الآلاف من اعضائها الذين ارسلتهم الى الاخدار السماوية الذين يسميهم الرسول بولس « الباكورة » المدوّنة اسماؤهم في السماء (عبر ١٢:٢٣). بهذه الطريقة تسلمت الكنيسة العطايا العظيمة. اما بالنسبة لأبناء الكنيسة الذين ما يزالون في العالم، في حلبة السباق (١ كور ٩:٢٤)، في انتظار للأكليل، الذين نتيجة سيرتهم غير معروفة، أو اولئك الذي مضوا بغير يقين ورجاء، فالملكوت ما يزال

يُرتجى. لهذا السبب تتذكر الكنيسة موت الرب والقديسين الراقدين الذين من اجلهم حصلت على ملء الكمال، كذلك، فإنها كأم للمؤمنين، تفكر بالذين ليسوا كاملين بعد. ففي الأولين تقدم الشكر، وفي الباقين تتشفع.

وهكذا، فالقسمان الأول والثاني من التهيئة ينتهيان بالشكر، بينما الباقي يهتم بالتضرع وبتذكر الرب وببهاء امه المباركة وباكرام القديسين.

من يفكر ان بهاء العذراء المباركة وشفاعة القديسين وحريتهم في الوصول الى الله هي نِعم وخيرات حاضرة؟ ولكي نقدّم قرابين عن نعم تم الحصول عليها، فهذا بوضوح عملية شكر. ومن جهة عبارة « لتذكار ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح » فإنها كما بيّنا آنفاً تشير الى محاولة لرد دَيْن موته، وهي علامة شكرنا له. لذا فإن غاية هذه الكلمات في تهيئة الذبيحة،هي التشديد على ان موت الرب بالنسبة الينا، كان نبعاً لكل الخيرات والنِعم.

وبعد هذا كله يأتي التضرع وغايته مسامحة الخطايا وراحة النفوس والنعم المماثلة. فمن طبيعة الامتنان، الامتناع عن ذكر حاجاتنا أو السؤال عما يعوزنا. وهكذا عندما نتذكر ما قد حصلنا عليه فعلاً، نرفع لله الشكر اولاً، ونمجده،جاعلين مجده فوق كل رغبة وحاجة.

ثم ان الكلمات والحركات التي تقام فوق القربان، والتي ترمز الى موت الرب، هي مجرد وصف ورمز، فالخبز يبقى خبزاً، وليس له اكثر من كونه يُقدم لله. لهذا السبب فالخبز يشير إلى جسد الرب في طفولته الأولى. لأننا كما ذكرنا، الرب نفسه كان تقدمة منذ مولده.

لهذا السبب يَرسم الكاهن على الخبز، العجائب التي اجترحها الرب عندما وُلد وهو في المذود. وإذ يضع عليه ما يُعرف بالنجم، يقول: « ثم وقف النجم حيث كان الصبي » (متى ٢:٩). ثم يشرع بتلاوة النبؤات القديمة التي قيلت فيه كإله حتى إن تواضع البشرة والمظهر

الخارجي، لا يقودان الناس الى تكوين رأي خاطيء عنه، لا يليق بألوهيته، فيضيف: « بكلمة الرب تأسست السموات » (مز ٣٣:٦) « الرب قد ملك والجمال لبس » (مَزْ ٩٣:١) « وفضيلته غطت السموات والأرض امتلأت من مجده ».

وعندما يقول هذه الكلمات يغطّي القرابين أي الكأس والقربان بأغطية أنيقة، ثم يبخرها من كل الجهات[1]، دلالة على أن قوّة الله المتجسد، قد احتجبت إلى ساعة عجائبه وإلى حين الشهادة من السَماء. اما العارفون فيقولون فيه: « الرب قد ملك والجمال لبس » إضافة الى عبارات اخرى تتضمن ألوهيته. فعرفوه ولجأوا إليه وعبدوه كإله. فالكاهن يتوخّى ذلك عندما يغطي القرابين ويقول: « استرنا يا رب بظل جناحيك » (مز ١٧:٨) ثم يُبخر من كل الجهات . وعندما يقول هذه الكلمات ويكون قد أتم الاحتفال، وصلى لكي تكون كل الليتورجية المقدسة بحسب مشيئة الله يأتي الى المائدة، ويقف أمامها، ويبدأ القداس الإلهي.

١ ــ التبخير من الجهات الأربع يرمز الى انتشار رائحة التجسد في اربعة أقطار الأرض.

قداس الموعوظين

ان كل احتفال مقدس يبدأ بالتسبحة « مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس »[1] الاتصال بالله مؤلف من الشكر، والتسبحة، والإعتراف والدعاء والتضرع. وأول هذه هي التسبحة، لأنه يليق بالخادم الشكور عندما يدنو من سيده، الآ يبدأ بإظهار اموره الخاصة،بل يجب أن يركز على ما هو لسيده. هذا هو جوهر التسبيح. ففي الدعاء والتضرع، نفكر بتقديم شؤوننا. وفي الاعتراف نبتغي الانعتاق من الشرور، ونلوم انفسنا،وفي الشكر نفرح جلياً بالخيرات التي نتمتع بها. انما في التسبيح، نجعل أنفسنا جانباً وكل شؤوننا، ونمجّد الرب حباً به وحسب. وهكذا فمن اللائق أن يكون التسبيح أولاً. وإذ ندنو من الله مباشرة ندرك لا محدوديته، وقوته وعظمة مجده، ونمتلىء عجباً ودهشة وسواها. هذا هو التسبيح حقيقة. ثم نتابع،وذلك لكي ندرك صلاحه وحبه للبشرية، وهذا يشجّعنا على الشكر. ثم نفكر في خيريته العظيمة وفي حبه للإنسانية فنعتبر شرّنا البرهان الأول والكافي على هذا الجود. لأنه مهما كانت عيوبنا

---

١ ــ بدون الايمان بالثالوث القدوس لا يكون المرء مسيحياً. إله المسيحيين ثالوثي الأقانيم. الايمان بذلك هو بند الايمان الأول.

وهفواتنا فإنه يستمر في تتويجنا بالبركات. وهذا شيء قريب منا وفي داخلنا، وأمام أعيننا، وبرهان لنا أكثر من أي شيء آخر على مقدار حب الله لنا. وهكذا نتذكر خطايانا أمام الله. هذا يُدعى اعترافاً. والعنصر الرابع هو الدعاء والتضرع. وهذا يعني أنه يمكننا أن نثق أن كل طلباتنا من جهة حاجاتنا، سوف تُستجاب، لأننا تعلّمنا شيئاً عن صلاح الله وحبه للإنسانية. فالذي كان صالحاً مع الذين لا يزالون خطأة، سوف يكون صالحاً بالاكثر مع التائبين والذين تبرروا بعد أن جاهروا بخطاياهم.

وهكذا فالتسبيح له مكانة أولى في أي اتصال مع الله، لهذا السبب فإن الكاهن يُسبح الله قبل أية عظة أو صلاة. لكن لماذا يُسبح الكاهن جوهر الله الثالوثي الأقانيم وليس وحدانيته؟ لأنه لا يقول « تبارك الله » أو « تباركت المملكة » انما يُميز بين الأقانيم، « مباركة هي مملكة الآب والإبن والروح القدس » السبب هو ان الإنسانية ــ بتجسد الرب ــ قد تعلمتْ ان الله ثلاثة اقانيم، وان السر الذي قد تم، يتمحور حول تجسد الرب، وهكذا، فمنذ البدء ينبغي ان يسطع الثالوث ويعتلن.

بعد التسبيح يأتي الدعاء، في الكلمات التالية: « بسلام الى الرب نطلب » لا نعرف ماذا ينبغي ان نقول في الصلاة (رو ٨:٦)

لذا فإننا بالصلاة نتعلم ما هو الضروري للصلاة، أولاً الكاهن يقول الطلبات والشعب يرد عليه فيقول: يا رب ارحم. لم يعد الكاهن منفصلاً عن الشعب كما في هيكل اليهود. مع يسوع المسيح انشق حجاب الهيكل فصار الملائكة والناس رعية واحدة في ملكوت الله. اختبار ملكوت الله في اعماق القلب، من شأنه أن يجعل الأرض فردوساً سماوياً وقد زالت منها الإنشقاقات الداخلية والخصومات الفردية والجماعية بآن. وهكذا يبدأ الإنسان بالإقتداء بالعذراء مريم وجميع القديسين، وذلك بوضع الذات بين يدي الرب كما فعلت مريم وجميع القديسين وهذا يعني تباعاً ان نطلب الكمال الذي طلبوه وعاشوا من اجله.

الطريقة الى الصلاة ينبغي أن تكون « بسلام » لماذا يُطلب منا ان نرفع الأدعية مباشرة بعد التسبيح وقبل الإعتراف أو الشكر؟؟ اذا ما درسنا السؤال بدقة، يتضح لنا أن كلاً من هذه موجود ضمناً عندما تُتلى الطلبة السلامية. فالإنسان الذي لا يرضى بنصيبه من الحياة لا يمكنه أن يقتني السلام في قلبه. هذا خاص فقط بالإنسان الشكور: « وفي كل شيء يرفع الشكر » (اتسا ١٨:٥) حسب تعليم المبارك بولس. لن يكون عنده فهم نقي. لأن الفهم النقي يستحيل بدون اعتراف، لذا فإن من يصلي بسلام يجب أن تكون نفسه معترفة وشكورة. وأكثر من ذلك، فالدعاء الذي يُرفع، يفضحه عن طريق الشكر والإعتراف. لأن دعاءه هو من أجل الرحمة. وهذا هو في الواقع توسّل المنبوذين الذين ليس عندهم أي دفاع او تبرير يقدمونه. فهم يقومون بهذه المحاولة الأخيرة أمام القاضي، راجين الحصول على سؤالهم، ليس لأنه عادل وحسب، انما بسبب حبه للإنسانية[1]. هؤلاء يشهدون، في الحقيقة، على صلاح القاضي العظيم ورحمته، اما عن أنفسهم، فيشهدون على شرورهم. فالأول هو عمل الشكر والامتنان، اما الثاني فهو عمل اعتراف بحت.

ما هو الدعاء الأول؟ انه « من اجل السلام الذي من فوق وخلاص نفوسنا ». عندما نتعلم كيف ندنو من الصلاة، نتعلم ماذا نسأل أولاً، أعني السلام من فوق وخلاص نفوسنا. لأجل هذا أمرنا المسيح قائلاً: « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره... » (متى ٣٣:٦). خلاص نفوسنا يعني « الملكوت » و« السلام من فوق » يشير الى بر الله الذي فيه يقول بولس الرسول « ان سلام الله يفوق كل عقل » (فيليبي ٧:٤). وهذا السلام تركه الرب للرسل عندما صعد الى الآب: « سلاماً اترك لكم » « سلامي

---

١ ــ فالمجرم الخطير هو عرضة لحكم القضاء العادل. لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه سوى التماس الرحمة والشفقة. وإن دانه القضاء يبقى له التماس العفو من رئيس الدولة.

اعطيكم » (يو ١٤:٢٧) وبنفس الطريقة فان كلمة « بر »[١] تعني أكثر من شيء شرعي صارم، انها تعني كل أنواع الفضائل. وهكذا فان كلمة « سلام » لها معنى أوسع،لأنها ثمرة كل خير وحكمة. لا احد يمتلك سلاماً كاملاً اذا كانت تنقصه الفضائل كلها، ومن يرغب في بلوغ مثل هذا السلام،يمكنه ذلك بالفضائل فقط. ينبغي أن نجاهد من اجل السلام الممكن مع الناس ومن ثم نسأل الله سلامه الضروري لكل فضيلة[٢]. وهناك الاعتدال الذي يُكتسب بالنسك والإعتدال الذي يمنحه الله للنفس. الأمر نفسه يصح في المحبة والصلاة والحكمة وسواها. لهذا السبب يتكلم الكاهن اولاً عن السلام الذي ينبع منا والذي هو في متناول قوتنا ومقدورنا، وبعد هذا يأمرنا ان نرفع ابتهالاتنا الى الله اذ يخبرنا عن السلام المعطى من الله ويحثنا على السعي إليه. وعندما يقول « سلام » لا يعني فقط اننا سنكون في سلام الواحد مع الآخر، انما يعني اننا سنكون في سلام مع انفسنا حتى لا تلعننا. هذا في الحقيقة نفع كبير. انه الأهم لوجودنا وحياتنا، فبسبب طبيعة الاضطراب، يعجز الذهن المنزعج عن الدنو من الله. السلام يوطد الوحدة بين الكثيرين، الّا أن الإضطراب يجزىء الواحد الى كثيرين.

---

١ ــ في العبرية والعربية لفظتان: صديق وبار. الأولى اقوى لأن فيها معنى الصدق والصدقة. الثانية فيها معنى العدالة والاستقامة. في اليونانية اللفظة واحدة.

٢ ــ كُتُبُ النساك والمتصوفين تذكر السلام الذي يمنحه النور الالهي متى تجلّى المتصوف. فغاية النسك في حلول السلام بين قوى النفس المتصارعة واقتصارها على أهوائها الممقوتة ووصولها الى سلام حالة اللاهوى الظافرة.فالسلام الداخلي حالة انتصار على التمزق الداخلي الدخيل علينا بسبب الخطيئة، والسلام الخارجي هو انتصار على النفور والتباغض بين الناس. يوحنا الانجيلي علّمنا ان من يحب الله ويبغض أخاه هو كاذب (١ يو) لقد علّق محبة الله على محبة القريب فالسلام مع القريب هو، اذاً سلام مع الله.

فكيف يمكن لانسان منزعج، ان يتحد بالله الواحد غير المنظور؟ لذا فمن لم يكن في سلام، لا يقدر ان يصلي كما يجب، ولا يمكنه ان يتوقع أي خير يأتيه نتيجة صلاته. فإذا ما ازعجه الغضب وإذا ما طرد الشعور المريض كلّ سلام فيه، لا تعود صلاته تجني غفران الخطايا، فينال ــ على نحو اقل ــ أية نعمة اخرى. واذا ما أنّبه ضميره بسبب خطاياه، واذا ما اهتز بسبب لوم النفس والقلق،فلسوف يكون محروماً من الثقة بالله. وعندما يصلي، فيصلي بدون ثقة، أي بدون ايمان. ومن يصلّي بدون ايمان فعبثاً يصلّي، فصلاته بلا غاية. لهذا السبب نحن مطالبون بالصلاة الى الله « بسلام » وفوق كل شيء بأن نطلب « السلام » الذي من العلاء، من فوق. وعندما نقوم بهذا السعي، يمكننا ان نرفع الابتهالات حباً بالآخرين، ليس فقط من اجل الكنيسة وحكام الامبراطورية[1] والذين في المخاطر والهموم والبلايا، بل حقاً من اجل كل الإنسانية وفي كل العالم. يقول الكاهن: « لنصلِّ من اجل سلام كل العالم » ولا سيما ان المسيحيين يعرفون ان إلههم هو رب الكل، وان كل الأشياء هي في عنايته، لأنه ابدعها، وكل إنسان إذا ما شغل نفسه بهذه الأشياء،فإنه يكرم الله اكثر مما لو قدم له ذبيحة (متى ٩:١٣، ١٢:٧).

وأيضاً، وحسب المبارك بولس، فإننا نصلّي لكي نحاط نحن انفسنا بالسلام « فنحيا حياة هادئة سلامية... » (١ تيمو ٢:٢)،ولا نسأل فقط عما هو للروح، بل عن الخيرات المادية التي نطلبها: الهواء الصحي، ووفرة ثمار الأرض وذلك لكي نتعرف على الله خالقاً ومانحاً كل شيء، وننظر اليه دائماً. لأن المسيح نفسه طالبنا بأن نطلب إلى الله خبزنا اليومي[2] وكل الأمور الأخرى أيضاً.

---

١ ــ الامبراطورية البيزنطية لأن المؤلف مواطن فيها ولم تكن قد سقطت بعد.

٢ ــ لدى آباء الكنيسة الخبز الجوهري هو القربان المقدس.

ثمة سؤال آخر ينبغي ان يُطرح: لماذا يطالب الكاهن المؤمنين بالصلاة من أجل امور كثيرة، بينما في الحقيقة، هم يسألون شيئاً واحداً فقط: الرحمة[1]. لماذا تكون هذه الصرخة هي الوحيدة التي يرفعونها إلى الله؟

اولاً: كما سبق فقلنا،هذه الصلاة تتضمن الشكر اولاً والاعتراف ثانياً.

ثانياً: التضرع الى رحمة الله يعني طلب ملكوته، الملكوت الذي وعد المسيح بأن يعطيه للذين يطلبونه مؤكداً لهم ان كل الأشياء التي يحتاجون إليها سوف تزاد لهم (متى ٦:٣٣) وبسبب هذا فإن هذه الصلاة تكفي المؤمنين ما دام تطبيقها عاماً.

كيف نعرف ان ملكوت الله يشار اليه برحمته؟ بهذه الطريقة، عندما تكلم المسيح عن مكافأة الرحومين (الرحماء) والمجازاة باللطف الذي ينالونه منه. قال في موضع انهم سيُرحمون[2] وفي آخر انهم يرثون الملكوت، فبرهن ان رحمة الله وميراث ملكوت السموات هما امر واحد، « طوبى للرحماء فإنهم سيرحمون » (متى ٦:٣٣) هذا ما قاله هنا. وفي موضع آخر كان يشرح رأيه ويظهر معنى جني الرحمة « ثم يقول الملك للجالسين عن اليمين: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ إنشاء العالم (متى ٢٥:٣٤)[3] وعلاوة على ذلك، اذا كان بين الرجال الرحماء، انسان يرغب في أن يتأمل غاية الرحمة الإلهية، فإنه سوف يجد انها تتناسب تماماً والملكوت عينه. لأنه، ما هي صفات الرجل الرحوم؟ « كنت جائعاً فأطعمتموني... » (متى ٢٥:٣٥). لذا فالذين يظهر لهم المسيح رحمته، يقبلهم في الاشتراك على مائدته. وما هي هذه المائدة؟

---

١ ــ يا رب ارحم.

٢ ــ راجع التطويبات. انجيل متى الاصحاح الخامس.

٣ ــ فأقام المكافأة على أعمال الرحمة.

« لكي تأكلوا معي... » (لوقا ٢٢:٣٠) فتعرفوا غنى هذه المائدة، وتدركوا انها ليست مائدة خدام بل مائدة ملوك، وان من يقف عليها هو سيد الكل (لوقا ١٢:٣٧).

وعلى غرار ذلك: اسوق قولاً آخر: « كنت عرياناً فكسوتموني.. » (متى ٢٥:٣٦) فالرب سوف يكسو من كان رحوماً. الا يهبه ثوباً ملوكياً؟؟ سوف يلبسه ثيابه نفسها، وما هو له ليس أمراً حقيراً، فهو ملك، بينما ما لنا ليس هو ملوكياً لأننا عبيد. وهذا الثوب هو ثوب العرس الذي يضمن للذين يلبسونه الدخول الى الملكوت. والملك لن يرى في الذين يلبسونه عيباً أو خطأ، وبسببه سوف يتقدمون من خدر العريس.

ماذا بعد؟ سوف يفتح لهم ابوابه ويقودهم الى بيته من اجل الراحة. «كنت غريباً فآويتموني...» (متى ٢٥:٣٥). والذين أُهّلوا لهذا ليسوا عبيداً بعد، بل أبناء الله. « العبد لا يقيم في البيت الى الأبد بل الإبن » (يوحنا ٨:٣٥) فالأبناء ليسوا ورثة الملكوت فقط بل ورثة الله نفسه، لأن الله هو جوهر الملكوت. « ورثة الله، ورثة مع المسيح » يقول الرسول (روميه ٨:١٧).لهذا السبب عندما نطلب الرحمة من المسيح،فإننا نسأل أن ننال الملكوت.

وبعد أن يكون قد صلّى من أجل مقاصده، يدعو الكاهن المؤمنين لأن يودعوا نفوسهم الرب قائلاً: « بعد ذكرنا الكلية القداسة الطاهرة الفائقة البركات المجيدة... لنودع أنفسنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا المسيح الإله ». لم يُعطَ للكل أن يودعوا نفوسهم الله جاعلين اياها في عنايته. فكلمات الإيداع ليست كافية في حد ذاتها ومن الضروري أن يقبلنا الله ومن الضروري جداً أن يكون لنا ثقة بقبوله، وهذا يصدر عن ضمير نقي وذلك عندما توبخنا نفوسنا ــ أثناء انشغالنا بأمور الله ــ في ان لا نتردد في الاهتمام بما يرضي الرب فقط، لأننا في الإصرار على إرضاء

الله، ننفض كل هم وقلق وخوف على مصالحنا، فنجعل كل شيء بين يدي الله، بإيمان راسخ وثقة عظيمة، لأننا نؤمن ان الله يحفظ العهد الى الأبد.

ما دام الأمر يتطلب فكراً وحكمة كثيرة، فنحن لا نقوم بهذا الايداع الا إذا دعونا إلى معونتنا والدة الإله الكلية القداسة أولاً، وطغمة القديسين، وسعينا الى وحدة الايمان ومصادقة الروح القدس ومعاشرته. بعد هذا نودع انفسنا وحياتنا لله لتكون في عهدته.

ما هي وحدة الإيمان؟ « إن الرجل ذا النفسين هو مرتاب ولا ثبات أو يقين فيه. عندما ينتقل رجل كهذا من جهة الى أخرى، لا يمضي قدماً الى الأمام في أي من الطريقين. وضد هذه الحالة البائسة، هناك الوحدة، أي ما هو قوي وثابت، ومستقر. فمن كان راسخاً في الايمان، كانت عنده معرفة واضحة المعالم تتعلق بأي امر مهما كان، سواء كان أو لم يكن. والشَكوك، من الناحية الثانية، amphibolos[1] يتأرجح بين الاثنين. وحدة الايمان هي ما لا يهتز وما هو خالٍ من أي تردد.

ومن جهة الشركة مع الروح القدس، فإننا نعني بها نعمة الروح نفسه، فنسمّيها شركة، لأن ربنا عندما مزّق بصليبه الحاجز القائم بيننا وبين الله، رأى اننا نحن الذين انفصلنا ولم يكن لنا شيء نجمع به طرفي الهوة. وانحدار الروح القدس على الرسل قد حقّق هذا. ومنذ ذلك الحين فإن النبع قد فُتح للجميع بالمعمودية المقدسة، كما يقول القديس بطرس: « قد أصبحنا شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بطرس ١:٤).

لذا فمن يرغب في أن يودع نفسه الله ويجعلها ضمن عنايته، يحتاج الى ايمان لا يتزعزع وإلى معونة الروح القدس. فنحن لا نودع انفسنا

---

١ — Doubtful

الله فقط، بل بعضنا بعضاً أيضاً. لأنه بحسب ناموس المحبة ينبغي أن نطلب الخير للآخرين وأن نطلبه لأنفسنا أيضاً[1].

وعندما يقول الشماس الطلبات والشعب يصلّي، يكون الكاهن بدوره في قدس الأقداس يُصلي بهدوء من أجل الحاضرين ومن أجل البيت المقدس حتى يسكب الله عليهم جداول غنى رحمته ومحبته وينتهي بذكر سبب ابتهالاته وسبب كون الله عندما يُتم هذا، يعمل كل ما هو عدل.

أنه لا يقول أن الذين يتضرعون اليه مستحقون، أو لهم الحق أن يتقبّلوا، بل « لأن لك كل مجد وإكرام وعبادة » بسبب مجدك أتوسل اليك من اجل كل هذه الأمور. لأنك تعاملنا بهذا الحب والجود مع اننا غير مستحقين. وهذا التمجيد يرتفع لله كما يقول داود « لا لنا يا رب بل لإسمك أعط المجد » (مز ١١٥:١).

لهذا السبب عندما ينتهي من صلاته الصامتة يتلو هذا المقطع التوضيحي بصوت مسموع لكي يسمعه الجميع اذ هو خاتمة وتسبيح.

بهذه الطريقة يرغب أن يدعو كل المؤمنين الى المشاركة في ترنيمة السبح، وذلك لتعبد الله كل الكنيسة. والرعية بالفعل تجمع نفسها الى صلاة الكاهن، وتقول بصوت واحد: آمين، دلالة على ان صلاة الكاهن هي صلاتها أيضاً.

ثم يذكر الكاهن المزامير الشريفة، ويرتفع الترتيل من الحاضرين الذين يُنشدون الكلمات الملهمة التي قالها الأنبياء القديسون « صالح هو رفع

---

١ ــ هذه الفقرة غزيرة المعاني. نذكر والدة الإله وجميع القديسين للتشفع والقدوة الحسنة. فهؤلاء تخلّوا عن أنفسهم تماماً وصاروا كلياً لله. على غرارهم نحن نودع ذواتنا ويودع كل واحد منا الآخرين ونودع كل حياتنا المسيح الإله. فلا يعيش أحد لذاته بل للآخرين. ولا نودع جزءاً بل كل الحياة ايداعاً شاملاً. فالمقسوم على نفسه لا يثبت والكتاب الإلهي قال: « يا بني اعطني قلبك » (امثال ٢٣:٢٦).

الحمد والترتيل لاسمك ايها العلي... » (مز ٩٢:١)[1]. منذ الابتداء الكلمات هي الأكثر قدرة؛ انها تعلن ان هذا حمد صالح لله. انه لأمر جوهري ان ننتبه لهذا قبل إنشاد أية ترنيمة. والنبي عندما يتكلم عن رفع الحمد للرب، يعني رفع الشكر وانشاد الترانيم. وبعد هذه الفقرة وما يليها من الأمور المرتلة يحث الكاهن كل المؤمنين على الصلاة. وبينما تستمر التراتيل وصلوات المؤمنين، يكون الكاهن في قدس الأقداس يصلي الى الله من اجل الكنيسة كلها، ولا سيما الذين قد زينوا بيتها المقدس وقد رغبوا أن يساهموا ببهائها بأي شكل ممكن لهم.

ويسأل لكي انهم يتمجدوا بدورهم بالله. ثم يطرح مباشرة سبباً مناسباً : « لأن لك القوة والملك » المجد هو من سمات الملوك، كما يقول. والملوك لهم السلطان على تمجيد من يرغبون. انت الملك الأزلي ولك هي القوة والسلطان. هذا السبب هو في ذاته تسبيح، يعلنه بصوت مرتفع، أمام جميع المؤمنين الحاضرين.

ثم اذ يدعو الرعية من جديد الى الإشتراك في ترنيمة التسبيح، يذكر الانتيفونا الثانية التي يتابعها المؤمنون. وبعد ذلك، يوجه المؤمنون صلواتهم الى الله بقيادة الشماس كما سبق. والكاهن بدوره يتلو صلاة عن كل المؤمنين الذين يصلون معه سائلاً ان ينال كل منهم سؤله من الله بمقدار ما يوافقه ذلك. اضف الى ذلك، انه يطلب الحياة الأبدية في

---

١ ــ في ايامنا ببلادنا نستعمل: « بشفاعة والدة... » و« خلصنا... » في بعض الكنائس في الخارج ما زال الاستعمال القديم هو السالك فيقولون المزمورين ٩٢ و١٠٢ وقطع المكارزمي في « المعزي ».المكارزمي في السواعي الكبير هو بداية الموعظة على الجبل « طوبى للمساكين... » فالأنبياء انبأوا عن عهد الرحمة الصائر بمجيء يسوع الذي طوّب الذين يلبّون دعوته من كل القلب. (مت:٥).

الدهر الآتي نيابة عن كل واحد ويطرح أيضاً السبب: « رحمة الله والصلاح » هذه هي نهاية الطلبة لذا فهو يتلوها علناً.

ثم يذكر الانتيفونا التالية، واذ ننشد هذه الانتيفونا، يتم الدخول بالانجيل، (الكتاب المقدس) محمولاً من الشماس واذا لم يكن هناك الشماس يحمله الكاهن نفسه يرافقه نفر من حملة الشموع والبخور أيضاً.

والكاهن قبل ان يدخل قدس الأقداس، يقف امام الباب الملوكي ويصلّي منتظراً انتهاء الترتيل وذلك لكي يرسل الله ملائكته القديسين لترافقه الى المائدة وتقدم معه الذبيحة وتشترك معه في تمجيد الرب. ويتم هذا لأنه يجب ان يعبد الناس والملائكة معاً الربّ بما انه يليق ان يرتفع اليه شرف ومجد ومديح من الذين يعرفون كيف يمجدون الله ويعبدونه.

والآن يجب ان نرى كلمات المزامير بتفصيل، المدعوة « الانتيفونات » لكن اولاً، لنذكر انفسنا ان الذبيحة هي صورة سر عمل المسيح الخلاصي. وبالمثل، فإن كل الطقوس والصلوات التي تسبق الذبيحة وتليها،ترمز الى هذا العمل وتشير إليه. الذبيحة تحيي ذكر موت ربنا وقيامته وصعوده ما دامت القرابين الكريمة تتحول الى جسد مخلصنا، الجسد الذي قام من بين الأموات وصعد الى السماء. ان هذه الأفعال التي تسبق الذبيحة تستدعي الأحداث التي جرت قبل موته، ومجيئه، وظهوره الأول واعتلانه الكامل. وتلك التي تلي الذبيحة، تحيي ما اسماه يسوع بـ « وعد الرب » (لو ٢٤:٤٩ ــ اعمال ١:٤). أي حلول الروح القدس على الرسل، واهتداء الأمم على ايديهم.

ان كل احتفال بالسر هو بمثابة تصوير فريد لأمر واحد، محتفظ بنظامه وانسجامه من البداية إلى النهاية، لهذا يضيف الاحتفال بأي طقس من الطقوس (كل صلاة) شيئاً إلى هذا الكل. وهكذا فإن التراتيل الافتتاحية

ترمز الى المرحلة الأولى من عمل الفداء، والقراءات المختارة من الكتاب المقدس والأعمال الليتورجية التي تلي ذلك، تمثل المرحلة الثانية[1].

وقد نسبنا، حقاً، هدفاً آخر الى هذه التراتيل والقراءات، فهي تقوم بعمل تنقية وتهيئة للأسرار المقدسة. لكن لا شيء يمنعها من خدمة الأمرين معاً. هذان العملان يقدسان المؤمنين ويرمزان إلى مشروع الخلاص بآن على غرار الأقمشة، فإنها تحقق وظيفتها عندما تصبح ثياباً وتكسو الجسم. عندما تشير بأسلوبها الى المهنة والرتبة والكرامة التي للذين يلبسونها، وهكذا هي في هذا. فهي مقتطفات من الكتب المقدسة أو من الكتابات الملهمة الأخرى. التراتيل والقراءات تُقدس الذين يقرأونها ويُنشدونها. وبسبب الانتقاء الذي تم، والترتيب الذي بموجبه حصل ادراج المقاطع، فإن لها وظيفة أخرى. فهي تمثل على نحو لائق مجيء المسيح وعمله. وليس التراتيل والصلوات فقط، بل الأعمال نفسها لها هذا الدور.

كلٌّ له غايته الحاضرة ومنفعته. وأيضاً، كل يمثل قسماً من أعمال المسيح وأفعاله وآلامه. وعلى سبيل المثال، نطرح مسألة نقل الإنجيل إلى المائدة، ثم نقل القرابين. كل شيء يتم لسبب عملي. الأول ان يُقرأ الإنجيل، والثاني ان تقام الذبيحة. وعلاوة على ذلك وعلى كل حال، فإن الواحد يمثل الآخر وأعني التعبير عن المخلص؛ الأول، غامض وناقص يتعلق بمطلع حياته، والثاني، الكامل، والتعبير السامي.

وهناك ايضاً احتفالات اخرى لا تؤدي غاية عملية بل لها معنى رمزي.

---

١ ــ بعد دخول الكاهن الهيكل نبدأ بترتيل طروبارية القيامة والقديس اليومي والقديس صاحب الكنيسة وقنداق العيد السيدي أو « يا شفيعة المسيحيين ». فالقيامة كانت البند الأول في بشارة الرسل (اعمال ٢ وكورنثوس الأول ١٥). هذه البشارة ضمّت البشر الى الملائكة فصار رجال الله المختارون شفعاءنا لدى المخلص.

كالحربة التي تطعن الحمل مستبقية علامة الصليب وهناك أيضاً سكب الماء الساخن في الخمر.

في الأسرار الأخرى، يجد المرء اموراً كثيرة مماثلة. ففي المعمودية مثلاً، يتوجب على المرشحين لها، خلع أحذيتهم وثيابهم، ومن ثم النظر بأعينهم الى جهة الغرب، وينبغي ان يمدوا ايديهم ويتنفسوا. والآن هذه الاحتفالات وسواها من التي على شاكلتها ليس لها أهمية عملية بالنسبة للسر، فهي حيث هي، انما جُعلت لتذكّرنا بأنه يجب أن نمقت الشر، وان كل من رغب في أن يكون مسيحياً حقيقياً، ينبغي أن يطرد الشر. وإذ نستدعي كل هذا،فلنعاين بكل تفصيل كيف ان الليتورجيا هي صورة عمل الفداء، بادئين بالترتيل.

الترتيلة الأولى تحثنا على تمجيد الله بلياقة وذلك في مطلع عبادتنا. « صالح هو رفع الحمد للرب... »[1]. هذه الكلمات هي حمد لله الآب وترتبط بإبنه الوحيد. « صالح هو رفع الشكر للرب والترتيل لاسمك ايها العلي » (مزمور ٩٢:١) العلي هو الآب والرب هو الابن المولود الوحيد. صالح هو رفع الحمد للإبن وللآب. لماذا نقول هذا؟ لأنه باب لما يتبع، لأن نشيداً مشتركاً من المدح والحمد يجب أن يقدم للآب وللإبن. فأفعال الإبن التي بها تمجد الآب، يجب أن تظهر. إن موضوع ترنيمة المدح هو هذا: الابن يصبح كلا شيء (فقره وافعاله وآلامه) بينما هو في الجسد (فيليبي ٢:٧ ــ ٨) لأن هذه هي الرحمة والحق. انها رحمته، لأننا عندما كنا في حالة يُرثى لها، وعندما كنا اعداءه ومتمردين عليه، لم يحتقرنا والسبب هو كثرة رحمته ومحبته. ولم يعطف على حالتنا فحسب، بل شاركنا في أسقامنا وبؤسنا وموتنا.

---

١ ــ اليوم نقول: « بشفاعة والدة الإله... ».

ولم ينهضنا فقط بعد سقطتنا المريعة،بل منحنا أن ننال ملكوته الأعظم من كل الخيرات. بهذا المعنى يقول الرسول بولس « فلما تجلى لطف الله مخلصنا ومحبته للناس، خلصنا هو لا اعتباراً لأعمال بر عملناها بل لرحمته بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس... (تيطس ٣:٤)، كما لو كان هذا الصلاح قد اعتلن لأول مرة في كماله. والرب نفسه قال: « الله احب العالم هكذا... » (يوحنا ٣:١٦) مبيّناً بهذه الجملة البسيطة محبته غير المحدودة. لهذا السبب فان مخطط الفداء اعطي اسم"الرحمة." وايضاً يسمّى « الحق » لأن كل عناصر الناموس القديم رمزت إليه وهي صورة عن الحقيقة. وبسبب هذا قال النبي في عمل الفداء: « أي انسان يحيا ولا يرى الموت ومن ينجّي نفسه من يد الجحيم؟ اين مراحمك أيها السيد التي لأجلها حلفت لداوود بأمانتك » (مزمور ٨٨:٤٩).

ما الذي قد تم الوعد به؟ انه مجيء المخلص بالجسد وحياته بيننا « من ثمرة جسدك سوف اجعل على عرشك » (مزمور ١٣٢:١١).

هذا ما يقوله الله منبئاً عن مجيء ربنا. والملاك جبرائيل يعطينا البرهان على هذا، عندما يعلن للعذراء ولادة الطفل العجائبية ويخبرها بمولودها كم هو عظيم: « الرب الإله سيعطيه عرش أبيه داوود وسوف يملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولن يكون لملكه نهاية » (لوقا ١:٣٢ ــ ٣٣).

انه حق وقضاء وعدل. فالمخلص ــ باقتلاعه الخطيئة وقتله الشر بعمله الخلاصي ــ قام بذلك، لا من باب استعراض القوة او غلبة السلطان، بل بدينونة وعدل حسب القول: « الحكم والعدل هما اساس عرشك » (مزمور ٩٦:٢) (مز ٨٩:١٤).وعلى هذا النحو، أي اننا بحكم القضاة نظفر على خصومنا في المحاكم. ولأجل هذا اعلن المسيح: « الآن دينونة هذا العالم... » (يوحنا ١٢:٣١).

والمبارك ديونيسيوس الذي كان على صلة بهذا التعليم، يقول أن المحبة اللامحدودة التي يمتلكها الصلاح الالهي (الجود الالهي) قد هدمت القوة التي كانت للشوكة الزائلة اعني الشيطان، ليس بقدرة موته الخارقة، بل بالكلمة المعلنة لنا سراً، بدينونة وعدل. طالما ان عمل الفداء الذي هو موضوع حمدنا وتسبيحنا ليس هو فقط « الرحمة والحق » بل هو أيضاً « عدل ودينونة »[1]. والمرنم قد أضاف « الرب الهنا عادل وليس فيه شر البتة »، (مزمور ١٤٥:١٧ ومزمور ٩٢:١٥) « صالح هو إظهار حبك العطوف في الصباح وأمانتك في كل ليلة » (مزمور ٩٢:٢) يقول المرنم بالليل والنهار، أو كما يقول في موضع آخر، في كل زمان (مزمور ٣٤:١).

الانتيفونا الثانية تحتفل بالسلطان والمجد والقوة التي صارت لابن الله بسبب مسكنته وتواضعه. لماذا استعملت النصوص النبوية هنا؟ وما أهميتها من زاوية عمل الفداء؟ انها تمثل المرحلة الأولى من مجيء المسيح ــ الذي رغم كونه حاضراً على الأرض ــ لم تكن الجموع تعرفه، وعندما كان في العالم لم يكن العالم يعرفه (يوحنا ١:١٠) وهذا كان المرحلة التي سبقت يوحنا المعمدان السابق، قبل أن يضاء المصباح (يوحنا ٥:٣٥). في هذا الوقت كان ما يزال بحاجة الى كتابات الأنبياء. لكن عندما ظهر من سبق الانباء عنه، لم يعد بحاجة الى الأنبياء، يوحنا شهد له. كذلك الله الآب أمام يوحنا (يوحنا ١:٢٩ ــ ٣٤. متى ٣:١٣ ــ ١٧) حيث قيل « جميع الأنبياء والناموس تنبأوا حتى يوحنا » (متى ١١:١٣).

فالزمن الذي سبق يوحنا الصابغ، ممثَّل بهذه الترانيم المأخوذة من

---

١ ــ كان المؤلف يظن ان هذا الكاتب هو ديونيسيوس الاريوباغي تلميذ بولس الرسول. النقد الحديث يقول اليوم انه كاتب سوري في القرن ٥ ــ ٦.

الكتابات النبوية. لأنه اثناء هذا الوقت لم تظهر للمؤمنين التقدمات التي هي ظل المسيح، بل حفظت على حدة وبقيت محتجبة[1].

والآن لنرَ كلمات الانتيفونا: « الرب قد ملك والجلال لبس » (مزمور ٩٣: ١). المعرفة التي كانت عنه من الذين خضعوا له قد دعيت « مُلك » لأنهم عرفوه ممتلئاً من المجد والجمال والقوة كما كان ينبغي أن يعرفوه. فإن المخلص نفسه قال: « قد دُفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض » (متى ٢٨: ١٨) أي ان سكان السماء والذين على الأرض قد عرفوه إلههم الحقيقي. وإذا ما قرأنا بقية المزمور نجد انه هكذا حقاً.

ولكي يُظهر طبيعة هذا المُلك فإن النبي قد أردف بقوله: « لأنه أسس المسكونة فلن تتزعزع » (مز ٩٣: ١). إن هذا التوطيد هو الإسم المعطى للإيمان. فقد ثبَّت الذين سقطوا في الضلال وجذبهم اليه. فان من سمات الضالين انهم لا يقوون على الثبات. والآن قال الرب: « اذهبوا وتلمذوا كل الأمم... » (متى ٢٨: ١٩) هذا هو تعليم الإيمان.

الا ان مجرد الإيمان لا يكفي السلطان، فالأمم لا يمكن ان تطيع لمجرد الإيمان. لذا كانت اضافة حفظ الوصايا، ضرورية. والمرنم يقول: « ان شهاداتك صارت اكيدة » (مزمور ٩٣: ٥) وربنا يضيف على الامر تعميق الاتجاهات في ما يتعلق بالوصايا قائلاً: « وعلموهم أن يحفظوا ما وصيتكم به » (متى ٢٨: ٢٠) فتلك التي يدعوها الرب وصايا، يسميها الكتاب شهادات. وعبر كل الكتاب المقدس تجدون كلمة « الشهادة » بمعنى نواميس الله.

ثم يختم المرنم بهذه الكلمات: « القداسة بيت لك الى الأبد يا ربنا »

---

١ ــ أي مغطاة على المذبح

(مزمور ٥:٩٣)،بالقداسة يعني الذبائح، والتقدمات، وكل العبادة اللائقة بالله. وعندما يقول ان هذه تصبح بيت الله، يُظهر ان بيته ليس فارغاً او ليس محروماً من الله بل يحوي سيد البيت شخصياً. واذا كان البيت خالياً من الله فلن يكون له الحق في هذه التي تخص الله فقط. ومخلصنا اعلن ذلك عندما أضاف الى الكلمات التي ذكرنا، وعداً بأنه سيكون أبداً مع كنيسته. والرسول بولس يدعو الكنيسة بيت الله الحي: « لكي تعرفوا كيف ينبغي ان نسلك في بيت الله... » (١ تيمو ١٥:٣). « ها انا معكم » يقول الرب. وما يعبر عنه المرنم بالكلمات « الى الأبد » (مز ٥:٩٣) يوضحه عندما يقول: « دائماً وحتى انتهاء العالم » (متى ٢٠:٢٨).وهكذا فإن هذه الأنتيفونا هي تنبؤ تام عما أتمّه المسيح وأنجزه بآلامه وموته.

الانتيفونا التالية هي بمثابة مواجهة أمام الرب الذي يدنو ويعتلن. لهذا فهي تُنشد فيما يكون الانجيل محمولاً الى داخل الهيكل وظاهراً، وذلك لأنه يمثل المسيح. ومن الواضح ان النبي أنشد ذلك وهو يتذكر مجيء المسيح. فهذه تعبق بالبهجة والغبطة وهو مغمور بهذه البهجة ويدعو الآخرين الى مشاركته فيها: « هلموا نبتهج بالرب » (مزمور ١:٩٥).لكن الإنسان لا يمكنه ان يبتهج لو لم يكن المسيح قد جاء. لأن المسيح وحده يأتينا بالبهجة. وإذا كان هناك من ابتهج قبل مجيء المسيح الى الأرض، فالسبب هو كونه قد قبل الله أن يمنحه معاينة الأسرار المتعلقه به (أي بالمسيح).وهكذا فإبراهيم قد ابتهج لرؤية يومي، وقد رآه وابتهج » (يوحنا ٥٦:٨) وداوود نفسه ابتهج « ... هبني فرح خلاصك » (مز ١٢:٥١). وقد توسل الى الله أن يعيد ذلك الفرح الذي في المسيح والذي كان له قبل أن يخطأ والذي قد خسره بسبب الخطيئة. واذا كان قد قال: « هلموا لنضيء... » فإنه يعلن مجيء النور، لذا عندما قال « هلموا لنبتهج بالرب... » كان يعلن ظهور ذاك الذي يجلب الغبطة.

ثم انه يدعوه مخلّصاً ورباً. والكتاب الآن يدعوه المسيح « المخلص »

بسبب الأقانيم الالهية الثلاثة. فالإبن وحده كان محقق خلاصنا. عمل كل شيء بنفسه كما يقول الرسول: « ...بنفسه صنع تطهير خطايانا » (عبرانيين ٣:١)؛وهو نفسه كان مثال الراعي الصالح الذي لم يرسل سواه للتفتيش عن الضال، بل هو نفسه جدَّ اليه فوجده وحمله على منكبيه (لو ٤:١٥ ــ ٦) (ومتى ١٢:١٨ ــ ١٣) لهذا السبب سُمّي « يسوع » ومعناها « الله يخلص[1]. « هلموا نقف في حضرته بشكر... » (مزمور ٢:٩٥).« الحضرة » هنا تعنى اعتلان المخلص. دعونا لا ننتظر فى البيت حتى يأتي، بل فلنخرج للقائه بشكر، أي بنشائد التسبيح. دعونا نقدم له الشرف اللائق بالله. لقد اختار ان يظهر في هيئة عبد. لكن دعونا لا نتجاهل سيدنا.

لا نشكك في بشريّته (أي في ناسوته). دعونا لا ننقاد بمظهره الى افكار ليست ذات قيمة ولا تتعلق بالعلي: « لأن الرب هو إله عظيم وملك عظيم وقدير على كل الأرض » (مزمور ٣:٩٥)،وان كان قد احتجب في بشرتنا. ثم يتابع المرنم تسبيحه لله.

هكذا هي المقاطع النبويّة، الملائمة التي يليق إنشادها في هذه المرحلة. عندما تنتهي هذه الانتيفونا، إذ يكون الكاهن واقفاً أمام الباب الملوكي، يرفع الإنجيل ويعلنه للحاضرين، وهذا ما يرمز الى ظهور الرب بين الناس. فالإنجيل يمثّل المسيح تماماً كما ان كتب العهد القديم تُسمي « الانبياء » ففي مثل لعازر والغني يقول ابراهيم: « عندهم موسى والأنبياء » (لوقا ٢٩:١٦)؛وهذا يعني الكتاب المقدس برمّته. ولكن بعد ان ظهر من سبق الإنباء عنه، ما عاد احد ينتبه لكلمات الأنبياء. لهذا فبعد ظهور الإنجيل، تتوقف النصوص النبوية ونبدأ نحن بإنشاد مقاطع من العهد الجديد. فنسبح والدة الإله الكلية القداسة والقديسين الآخرين ونمجد المسيح نفسه لمجيئه

---

١ ــ الأصل العربي « يسوع » اختصار للفظة « يهوشاع » أي « يهوه المخلص ».ويهوه هو الله.

للسكن بيننا والأعمال والآلام التي عملها واحتملها على الأرض. وبسبب هذه فإن الكنيسة تتابع احتفالاً أبدياً. ثم نسبّح الرب نفسه، الثالوثي، كما أعلنه المخلص. والترنيمة التي ننشد، انما أتتنا من طغمات الملائكة[1] وهي مأخوذة جزئياً من كتاب المزامير الشريف. وقد جمعتها كنيسة المسيح وكرستها للثالوث. لأن لفظة «Agios» أي قدوس (المتكررة ثلاثاً)، هي الدعاء الملائكي (اشعياء ٦:٣ رؤ ٤:٨). ولفظتا « القوي » و « الذي لا يموت »، هي للمبارك داود (مزمور ٤٢:٢). والكنيسة التي هي إجتماع الذين يؤمنون ويقرّون بوحدانية الله وثالوثيته، قد لعبت دورها في جمع هذين الدعائين وربطهما والإبتهال بهما. « وارحمنا »...

هنا قد رغبت في أن تُظهر من الجهة الأولى التناغم بين العهدين القديم والجديد، ومن الجهة الثانية، ان الملائكة والبشر يؤلّفان كنيسة واحدة وجوقاً واحداً[2].

---

١ ــ رنّمها الملائكة وسمعها قوم فدخلت في الاستعمال الكنسي : « قدوس الله، قدوس القوي.. »

٢ ــ إن كانت القيامة البند الأول في بشارة الرسل فالايمان بالثالوث القدوس هو العقيدة المسيحية التي بدونها لا يكون المرء مسيحياً. غاية البشارة هي أن نصير والملائكة جوقاً واحداً يسبح الثالوث القدوس. قديماً وقع الخلاف حول هذا التسبيح. البعض اعتبره خاصاً بيسوع. نحن اعتبرناه خاصاً بالثالوث. لذلك يرد على لسان الكاهن في التقدمة :

« قدوس الله الآب
قدوس القوي الابن
قدوس الذي لا يموت الروح الكلي قدسه
أيها... » (القنداق ص ٤٦).

أمّا يسوع فهو القوي الذي قهر الموت والروح القدس هو الحي الذي لا يموت. فإن كان هو روحاً لا يموت فأرواحنا أيضاً لن تموت لأنها نفخته

نقف هنا ثم نقول : « ارحمنا »، أي أيها الثالوث القدوس ارحمنا. موقفنا أمام الثالوث القدوس هو موقف ذعر روحي لأننا لا نطيق مجده. ابراهيم (تكوين ١٨) وأيوب (٤٢) وأشعياء (٦) ارتعدوا أمام اعتلان الله لهم واعتبروا أنفسهم أرضاً ورماداً ودوداً ونجاسة وعدم استحقاق. لذلك نشعر بحاجة قاطعة الى غنى مراحمه فنصرخ : « ارحمنا ».

وذلك بسبب مجيء المسيح، الذي كان من السماء، والأرض معاً. لهذا السبب نحن ننشد هذه الترنيمة بعد الدخول بالإنجيل كما لو كنا نعلن، انه، بسكناه بيننا، قد وهبنا مكاناً مع الملائكة ووطدنا في الجوق الملائكي (السماوي).

وقبل ان يبدأ التريصاجيون يتضرع الكاهن الى الله كيما يتقبل التسبيح هذا، وأن ينعم على الذين ينشدونه. أية نعمة تأتينا منه؟؟

إنها نعمة تنسجم مع الترنيمة ذاتها. فهو يصلي لكي تكون اجسادهم ونفوسهم طاهرة وتُغفر لهم خطاياهم. ولكي يعبدوه ببر وقداسة كل أيام حياتهم. ويقدم السبب: « لأنك قدوس وتستريح في القديسين... ». فمن الطبيعي ان الكلي القداسة يبتهج بقديسيه ويقدسهم. واذ يكون قد أعلن هذا علنا، يضيف الاعلان، وذلك لكي يعطي جمهور المؤمنين الاشارة ايذاناً ببدء التريصاجيون. وبعد ان يجيبوا على التسبيح بـ « آمين »، ينشدون الترنيمة.

بعد انتهاء التريصاجيون، ينبّه الكاهن الحاضرين ان يطرحوا الاهمال وعدم الانتباه وان ينتبهوا بعناية لما يقال ويجري لأن هذا هو معنى لفظة « لنصغ » (proskhomen)[1]. ثم يتمنّى للجميع السلام ويذكّرهم بالحكمة (صوفيا)[2]. الحكمة هي جملة الأفكار التي تنسجم مع الاحتفال والتي ينبغي ان تشغل الممتلئين بالايمان عندما يعاينون الاحتفالات والصلوات ويصغون اليها وذلك لكي لا يكون اهتمامهم بعاطفة انسانية صرفة.

---

١ — في كتاب القنداق « لنصغ » هي العبارة، إلّا أن الأفضل هو « لننتبه »، لأن المطلوب هو اليقظة لكلام الرب بخشوع واحترام.

٢ — « صوفيا ». بولس قال في يسوع المسيح انه حكمة الله. الآباء القديسون قالوا بأننا نتناول يسوع انجيلاً كما نتناوله قرباناً. وعلى المائدة المقدسة يتجاور الانجيل والقربان معاً.

هكذا هي « حكمة » المسيحيين. هذا هو معنى صرخة « صوفيا » التي يعلنها الكاهن من الباب الملوكي لكل المؤمنين، وذلك مرات عدة اثناء القداس الالهي. فالحكمة هذه ستذكّر المؤمنين بالمطلوب. ألسنا هكذا نستحث ذكريات بعضنا، وغالباً فان استعمال كلمة واحدة يستدعي جملة كاملة في اذهان السامعين ؟.

ترى ما ضرورة هذا المذكّر؟ السبب هو ان النسيان طاغية كبير. ليس من ضعف انساني يمكنه قهر الانسان كالنسيان. لذا من الضروري ان تنسجم عقولنا وقلوبنا مع الأسرار عندما نتعاضد في الصلوات المقدسة والاحتفالات الحاصلة في الليتورجية الالهية، الا اذا رغبنا في أن يكون حضورنا عبثاً، وان نقضي وقتنا بدون هدف. لهذا ينبغي ان نراقب أنفسنا بثبات وان نسلك بيقظة وانتباه. اما من الجهة الثانية،فلا بد لنا من مذكّر خارجي يلملم افكارنا عندما تشتتها خيالات باطلة. لهذا السبب يقول المقطع المنشد اثناء نقل القرابين المقدسة الى المائدة: « لنطرح عنا كل اهتمام دنيوي... » هذا هو المعنى الكامن وراء هذه المقطوعة. ثم ان صرخة « لنقف »، هي أيضاً بمثابة تحريض. انها تتطلب منا الاستعداد للمعركة عندما نمثل امام الله ونتعاضد في الاسرار المقدسة. لا يجوز أن يكون هناك شرود. اذ ينبغي ان نعمل بحماسة ووقار، وهكذا نعاين ونصغي ونصلي في القداس. واولى علامات هذه الحماسة والتكريس، ان نرفع اجسادنا. ان هذا نفعله وقوفاً لا جلوساً. الوقوف هو موقف المتضرعين، موقف الخدام الذين تستقر عيونهم على مشيئة سيدهم منتظرين ان يقدموا له خدمة ثانية وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يطلب منهم. ألسنا نحن المتضرعين الى الله في كل امر ذي أهمية؟ ألسنا خدامه في كل نوع من أنواع الواجب؟ هذا هو معنى هذه الصلوات.

بعد التريصاجيون (قدوس الله قدوس القوى...) تتلى قراءة من كتاب الرسائل، ثم يليها الانجيل. وقبل تلاوة الاثنين معاً،ترفع الكنيسة تسابيح

لله. ترى لماذا نسبح الله قبل القراءات المختارة من الكتاب المقدس؟ السبب هو ان العمل هكذا لائق من اجل الأمور التي لا يكف الله عن منحها لنا ولا سيما من اجل المنفعة الكبيرة الحاصلة نتيجة الاصغاء الى الكلمة الالهية.

فمن جهة الرسالة، بشكل خاص، يمتزج تسبيحنا بالتضرع طالما ان المصلي يضيف عبارة « ارحمنا ». اما من جهة الانجيل، فيتألف تضرعنا ببساطة من الترنيمة ذاتها، حتى اننا ندرك ان الانجيل يمثل المسيح وان من وجد المسيح فقد امتلك كل ما يرغب فيه، فهناك العريس. لذا فالذين عندهم كل شيء،لا يحتاجون الى التفتيش عن أي شيء آخر. وليس صحيحاً أيضاً ان اهل العريس يبكون ما دام العريس معهم (متى ٩:١٥)، انما بالاحرى ينبغي ان يعبدوه ويسبحوه للسبب عينه. فترنيمة الملائكة كما يخبرنا الانبياء (اشعيا ٦:١ ــ ٦)، هي ترنيمة تسبيح بدون تضرع. الى ماذا تشير القراءات المختارة من الكتاب المقدس في هذه المرحلة من الخدمة؟

لقد سبق ان اخبرتكم عن هدفها العملي. انها تحضّرنا وتساعدنا كي نتهيأ للتقديس العظيم الحاصل في الاسرار المقدسة. وعلى كل حال، فان اهمية القراءات هي هذه: انها تمثل ظهور المخلص الذي اصبح معروفاً. الظهور بالانجيل (الدورة الصغرى بالانجيل): هذه الدورة تتم والانجيل

---

١ ــ هنا يقصد القديس نيقولا كاباسيلاس ان الدورة الصغرى ترمز الى يسوع قبل اعتلانه يوم اعتماده. أمّا بعد اعتماده فقد خرج يبشّر الناس بنفسه وبواسطة رسله الذين أرسلهم مرّتين الى البشارة. فقد أرسل الاثني عشر مرة، والسبعين مرة. وهذا ما ترمز اليه قراءة فصل من الرسائل وأخرى من الانجيل. يسوع هنا قد دخل حياته العامّة واعظاً الناس بالملكوت والأخلاق الفاضلة. وتجلّي الرسائل والانجيل في حياتنا يعني تجلّي كلام الله. يسوع قال لتلاميذه : « أنتم أطهار من أجل .... » (يوحنا ١٥). ان كلام الله يطهّرنا ويجعلنا أهلاً للمشاركة في تقديس القرابين والحياة في يسوع.

مغلق، والاغلاق هذا يمثل ظهور المخلص الأول، اذ كان بعد مستوراً، الا انه سيعتلن بالظهور الالهي (يوم معمودية يسوع على يد يوحنا المعمدان). فيوحنا المعمدان هو الذي كشف لنا عن يسوع حمل الله الرافع خطايا العالم. الا ان الممثَّل هنا هو ظهوره الأكثر كمالاً الذي به اختلط مع الجمهور وبات معروفاً ليس فقط بكلماته بل ايضاً بما عمله لرسله، اذ ارسلهم الى الخراف الضالة من بيت اسرائيل. لهذا السبب، نحن نقرأ الرسالة والانجيل.

بعد قراءة الانجيل، يحث الشماس الجماعة على الصلاة، بينما يصلي الكاهن في قدس الاقداس بصوت منخفض من اجل ان تكون صلوات المؤمنين مقبولة لدى الله. ثم يقول الاعلان الاخير علناً وذلك لكي يجعلهم يشتركون معه في تسبيح الرب. وأية طلبة يمكنها ان تكون اكثر ملاءمة للجميع، ولا سيما بعد الانجيل من تلك الطلبة التي تتلى من اجل الذين يحفظون الانجيل ويقتدون بخيرية المسيح وصلاحه، أي رعاة الشعب القيّمون على شؤون العامة، ان كان هؤلاء يؤمنون بكلام الرسول (كولوسي ١:٢٤) ولا سيما في قيادة القطيع كما يتمنى هو. وأيضاً هناك مكان هاهنا للمؤسسين ورؤساء البيوت الدينية والكنائس ومعلمي الفضيلة وسائر الذين بطريقة او باخرى يسهمون في خير الكنيسة العام، وبخير الدين، فتشملهم صلوات الجميع (اشارة الى الطلبة المرفوعة الى الله من اجل حكام البلد والقيّمون على شؤونه برضى الرب).

وإذ نكون على وشك الاقتراب من الذبيحة التي لا يحق لغير المتهيء[1] أن يحضرها فالكاهن يقصي عن جماعة المؤمنين اولئك الذين ندعوهم « موعوظين » لأنهم حتى تلك اللحظة قد تقبلوا المسيحية شفهياً

---

١ ــ من هو المتهيّء ؟ المقصود هنا : المعمود وحده يحضر قداس المؤمنين.

وبالتعليم. لكنه على كل حال،يصلي من أجلهم بصوت منخفض في الوقت الحاضر. وهذا مضمون طلبته:

أن يكون استعدادهم قد اكتمل بنعمة المعمودية في الوقت المناسب.

والسبب في صلاته هو مجد الله : « حتى انهم معنا يسبّحون اسم الممجد والمكرم ».وبعد تلاوة هذا الإعلان علناً، وتصييره المؤمنين شركاء في صلاته، يقول الكاهن صلاة أخرى يشكر الله فيها أولاً لأنه قد استحق أن يقف في حضرته ويرفع نحوه يديه نيابة عن نفسه وعن سائر الحاضرين. ثم يصلي لكي يكون مستحقاً.

يتم هذا العمل بقلب نقي. وهنا أيضاً،فإن الدافع على هذه الصلاة هو مجد الله.

وإذ يكون كالعادة قد سبّح الله على وحدته مع رعيته، يصلّي مرة اخرى في قلبه، لأجل نفسه ولأجل الحاضرين، وذلك لكي ينتصب بلا عيب امام المذبح،حراً من أية لطخة في الجسد كانت أم في النفس. وأن يكون المؤمنون المصلّون معه مستحقين للإشتراك في الأسرار المقدسة بدون عيب، وأيضاً ان تكون لهم شركة في ملكوت السماوات. والدافع هنا هو ذاته،أي ما قاله الرسول في (١ كو ١٠:٣١) « افعلوا كل شيء لمجد الله » وأن يكون دوماً وفي كل شيء تمجيد الله هو فينا. فالمزارعون يضعون نصب أعينهم (كنتيجة لأتعابهم)،كثرة المحاصيل،لذا فهم يشقون طوعاً. التجار يبتغون الربح. وسواهم يفعلون أموراً مناسبة. لكن هل (أنت) تطلب مجد الله في كل ما تقوم به؟

نحن عبيد مديونون لسيدنا بهذا الواجب،ومن اجله،خَلَقنا أولاً ثم افتدانا. لهذا نجد الكنيسة في كل مكان،مهتمة بمجد الله، فهي تنادي به في الكون وتترنم به دوماً وتفعل كل شيء (لمجد الله) وأعني الصلوات

والتضرعات، والخدم المقدسة والوعظ والتعليم. وبإختصار كل عمل مقدس.

بعد أن يقول الكاهن الإعلان، يأتي الى المذبح ويحمل القرابين بوقار جاعلاً إياها فوق رأسه، ويذهب الى المائدة مجتازاً ببطء الكنيسة ذهاباً وإياباً وأثناء هذا التطواف ينشد[1] المؤمنون وهم راكعون، بوقار وورع، مصلّين لكي يُذكروا عندما تتم التقدمة. فيمشي الكاهن تتقدمه الشموع والبخور حتى يصل إلى المائدة. والأمر يتم هكذا لأسباب عملية. اذ من الضروري نقل القرابين إلى المائدة لكي تذبح وتكون هناك. وهذا يتم بورع ووقار. بهذه الطريقة قدّم ملوك العهد القديم حياتهم لله. لم يسمحوا لأحد ان يقوم بذلك نيابة عنهم، بل جاؤوا بالقرابين بأنفسهم وهم معتمرون تيجانهم. وأيضاً هذا الاحتفال يشير الى ظهور المسيح الأخير

---

١ — ينشد المرنّمون ترنيمة: « أيها الممثلون... »، هذه الترنيمة تطالبنا بأن ننتصب أمام الله بذهن خالٍ من الاهتمامات كأذهان الملائكة شركائنا في الخدمة الذين يحتفون بيسوع، الذين سمعهم أشعياء ينشدون التسبيح الثالوثي : « قدوس، قدوس، قدوس رب الصباؤوت »، ومرّ معنا أن أناساً سمعوا الملائكة ينشدون « قدوس الله » : ويقول الكاهن ٣ مرات ترنيمة « أيها الممثلون »، ثم يبخّر حول المائدة قائلاً ٣ طروباريات. الأوليان ليسوع، تتعلقان بقبر يسوع لأن المائدة تمثل القبر مثواه. الثالثة للعذراء « مسكن العلي ». القبر مثواه والعذراء مسكنه، هكذا نربط بين التجسّد والقبر ركنَي الايمان، رافعين بخوراً زكي الرائحة. ثم يقول الكاهن « هلمّ لتسبحوا... » تليها « ارحمني يا الله... » الأمر نفسه جرى أيضاً بعد الفراغ من تقدمة الذبيحة. موقفنا من التجسّد والقبر هو سجود وتوبة والتماس رحمة وغفران. ثم يتضرّع الكاهن أمام المائدة كالابن الشاطر والعشّار واللص. وتعقب ذلك ترنيمة : « اياك أيها المتردّي»: هي ترنيمة تُقال في صلاة الغروب يوم الجمعة العظيمة أثناء نقل قماشة الدفن (المدعوّة باليونانية « أبيتافيون ») من الهيكل الى صحن الكنيسة. وهذا يشير الى نقل جسد يسوع من الجلجلة الى القبر هنا وفي خدمة القداس الالهي.

فواضح أن المذبح يمثل الجلجلة. على الجلجلة طلب اللص الى يسوع « اذكرني متى أتيت في ملكوتك ». يحمل الكهنة القرابين رمزاً لنقل يوسف ونيقوديموس الجسد من الجلجلة الى القبر. يطلب الكاهن والشعب: « ليذكرهم.. في ملكوته »، هذه الطلبة تذكر بطلبة اللص. جسد يسوع الذبيح هو مصدر الرحمة ومدخلنا الى الملكوت.

الذي أثار حقد اليهود عندما سار في موطنه الى أورشليم ليُقتل. ثم ركب على حمار إلى المدينة المقدسة محاطاً بجمهور مهلّل. وأثناء هذا الإحتفال ينبغي أن ننحني أمام الكاهن ونطلب منه أن يذكرنا في الصلوات التي يزمع أن يرفعها. إذ ليس هناك من وسيلة للتضرع قوية بهذا المقدار مضمونة القبول كتلك التي تتم في هذه الذبيحة الكلية القداسة التي قد طهرتنا من خطايانا وضعفاتنا. فإذا سجد واحد من الذين ينحنون أمام الكاهن الذي يحمل القرابين معتبراً إياها جسد المسيح ودمه، فهو يخلط بين هذا الاحتفال والاحتفال الذي يجري في القداس السابق تقديسه، بدون إدراك الفروق القائمة بينهما. ففي دخول القرابين في هذا الاحتفال، لا تكون قد تقدست بعد. بينما في قداس السابق تقديسه[1] قد تقدست القرابين يوم الأحد السابق وأصبحت جسد المسيح ودمه الحقيقيين.

ثم يضع الكاهن القرابين على المائدة وإذ يجد نفسه على عتبة التقديس وعلى وشك أن يبدأ الذبيحة يهيء نفسه بالتمام منقياً إياها بالصلاة ومستعداً للذبيحة. ولا يفعل هذا وحده فحسب، بل يعدّ كل الحاضرين ويضعهم أمام افعال النعمة، وذلك بالصلاة والمحبة المتبادلة والإعتراف بالإيمان، لأنه في هذا يكمن كل الإستعداد الذي دشّنه ربنا عندما قال: « كونوا مستعدين ... » (متى ٢٤:٤٤) ونجد هنا كلاً من الإيمان والأعمال. الأول نراه في اعتراف الايمان الذي نقوم به[2] والثاني بالمحبة[3] التي هي نهاية كل عمل صالح وقمة كل فضيلة.

---

١ ــ في القداس السابق تقديسه. ليس هناك تقديس للقرابين، فالمناولة تُعطى من الأجزاء المقدسة التي قد تقدّست في خدمة سابقة. والقداس السابق تقديسه يُقام يومي الأربعاء والجمعة من الصوم الأربعيني المقدس. ويُقام أيضاً في الأيام الثلاثة الأولى من الأسبوع العظيم.

٢ ــ اؤمن باله واحد ...

٣ ــ لنحب بعضنا بعضاً..

وهذا يتم بعد هنيهة، لكن يسأل الكاهن المصلين أولاً ان يصلوا من اجل نياته الحاضرة. لنصلّ للرب،من اجل القرابين المزمع تقديمها وأيضاً لنصلّ ان يتم تقديس هذه القرابين،وان ما قدمناه من البداية يحقق غايته الآن. ثم يضيف النيات الأخرى التي ينبغي من أجلها أن نصلّي لله. ويختم بالطلب منا أن نودع الله بعضنا بعضاً وكل حياتنا للمسيح الإله. وعندما يبلغ إلى المقطع الأخير من طلبته،يرفع صوته كالعادة ويتلو الإعلان،وإليه يجمع المؤمنين[1]. بعد هذا يتمنى لهم السلام المتبادل ويحثهم عليه. وإذ يقول السلام لجميعكم، يضيف:

« لنحب بعضنا بعضاً » فالرسل يطالبوننا بالصلاة من أجل بعضنا بعضاً (يعقوب ١٦:٥). والجماعة المصلية تتمنى السلام للكاهن بقولها : ولروحك أيضاً.

فالمحبة الأخوية تمضي جنباً الى جنب مع محبة الله. ومحبة الله غير موجودة بدون الايمان الحي والكامل به. بعد أن يكون الكاهن قد ذكّرنا بالمحبة وحثّنا على أن نحب بعضنا بعضاً، يبدأ اعتراف الايمان :« ...حتى اننا بفكر واحد نعترف مقرين ». والمؤمنون يهتفون لله الذي يليق الإعتراف به فهو الثالوث الأقدس[2].

والآن يطلب الكاهن من الرعية ان يعلنوا ما تعلّموه وما يؤمنون به في ما يختص بالله. أي ان يمارسوا الحكمة الحقيقية[3] التي عنها يتكلم الرسول في (١ كو ٦:٢).هذه الحكمة لا يعرفها العالم (أي لا يعرفها

---

١ ــ يشترك المؤمنون في الطلبة اذ يجيبون على طلباته : « استجب يا رب ».

٢ ــ يجيب المرنّم : « بآب وابن وروح قدس ثالوث متساوٍ في الجوهر وغير منقسم ». فالإيمان بالثالوث يصدر عن اتحاد أفكارنا وقلوبنا في المحبة.

٣ ــ يقول : « الأبواب الأبواب بحكمة لنصغِ » الأفضل لننتبه.تاريخياً صرخة الشماس « الأبواب » كانت دعوة حرفية لحراس الأبواب كي يغلقوها لئلا يدخل أحد من غير المعتمدين أو المسموح لهم أثناء تلاوة دستور الايمان وأثناء اتمام الأسرار وتكريسها.

الحكماء بحسب العالم[1] الذين لا يدركون، ولا يفقهون ما هو أعظم واسمى من معرفة الأمور المادية، ولا يمكنهم الإيمان بوجود حكمة اسمى. بهذه الحكمة يسألنا الكاهن أن نفتح كل الأبواب أي أفواهنا وآذاننا.

وكاباسيلاس يعطي الكلمات رمزية تثقيفية وتعليمية. يقول: افتحوا الأبواب بهذه الحكمة وأعلنوا واستمعوا الى التعاليم السامية بثبات بإنتباه بل بشوق مكرسين كل أذهانكم لها. ثم يتلو المصلون دستور الإيمان بصوت عالٍ[2]. بعد ذلك يقول الكاهن: « لنقف حسناً... » ويبدو وكأنه يريد ان يقول: لنقف حسناً لئلا نفقد توازننا بحجج الهراطقة المقنعة. « لنقف بخوف... » لأن الخطر في ما يخص أمور الإيمان من جهة الذين يسمحون لأذهانهم بالشك والتردد، هو خطر جسيم. ثم يتابع قائلاً: وإذ نقف راسخين في الإيمان، فلتكن قرابيننا مقربة لله كما يليق. ما معنى « كما يليق؟ » انها تعني « سلام »،فلننتبه ان يكون تقديم القرابين الطاهرة بسلام. تذكروا كلمات ربنا « اذا قدمت قربانك للمذبح... اترك هناك قربانك... واصطلح مع أخيك... » (متى ٥:٢٣). فيجيبه المؤمنون: « لا نقدم قرباننا بسلام، بل نقدم السلام نفسه هبة وبمثابة ذبيحة ثانية « رحمة سلام ذبيحة التسبيح »[3] لأننا نقدم رحمة لمن قال: « اني اريد

---

١ ــ متى ١١ : ٢٢ ــ ٢٥.

٢ ــ دستور الايمان هو خلاصة عقائدنا. فيه حكمة الله الأزلية الذي كشف لنا عن ذاته ثالوثاً قدوساً في اله واحد، انحدر الينا أحد أقانيمه الابن متجسّداً ليصلب لخلاصنا، وانحدر الينا أقنومه الثالث الروح القدس مقدساً ايانا ليضمّنا الى الملكوت.

٣ ــ الكاهن : لنقدم بسلام القربان المقدس.
الشعب : رحمة سلام ذبيحة التسبيح.
اللفظتان رحمة وذبيحة هما بدل من قربان. وقيل في الكتاب :
انتهى تقديم الذبائح الحيوانية اليهودي وصرنا نقدم لله ذبائح الرحمة والسلام والتسبيح (متى ٩ : ١٣).

رحمة لا ذبيحة » (متى ٩:١٣).فالرحمة هي وليدة سلام حقيقي ومتين. فالنفس عندما لا تزعجها الأوجاع، لا يمنعها أي شيء من الامتلاء بالرحمة وبذبيحة التسبيح. وإذ ينتهون من هذا الجواب،يتمنى لهم الكاهن اعظم الخيرات واكثرها روحية: « نعمة ربنا يسوع المسيح... » (٢ كو ١٣:١٤)[١]. فيعطف المؤمنون هذه البركة إليه بقولهم: « ومع روحك ». وذلك وفقاً لوصية الرسول في انه ينبغي أن يصلي أحدنا من أجل الآخر. وهذه الصلاة مأخوذة من رسائل القديس بولس. انها تمنحنا خيرات الثالوث الأقدس، كل عطية كاملة (يعقوب ١:١٧) وتسأل كلاً من الأقانيم الإلهية أن يهب نعمته الخاصة: من الابن، النعمة. ومن الآب، الحب. ومن الروح القدس. الشركة[٢]. فالإبن أعطى نفسه مخلصاً لنا، نحن الذين لم نقدم له شيئاً لا بل كنا مديونين له حقاً، اذ « بينما كنا خطأة مات المسيح من أجلنا » (رو ٥:٨).فعنايته بنا هي نعمة كاملة. فالآب بآلام الإبن صولح مع البشرية، وسكب حبه على أعدائه، حتى

---

١ ــ أي شيء يعضدنا في تقديم ذبائحنا مثل نعمة يسوع ومحبة الآب وشركة الروح القدس ؟ الكاهن يلتمسها لنا. ونحن نلتمسها للكاهن. نحن شركاء له في الخدمة كما يقول « أو ليفيه كلمان » Coliturges (in les sources, p.100 - 1). ويتبع ذلك تأمل في وجود الاله الواحد الثالوثي الأقانيم وفي سقطتنا واعادتنا واحساناته الينا بالرغم من عدم حاجته الينا لأنه قد وقف لديه ربوات من الملائكة ينشدون تسبيح الظفر من الأعماق بقوة ما بعدها من قوة. يقول الكاهن هذا وهو يقرع بلطف الصينية بواسطة النجم على شكل صليب من جهاته الأربع. ويلي ذلك دعاء رائع للثالوث وعلى الأخص للآب الذي أرسل الابن ذبيحة عنا فرسم سرّ القربان. في الدعاء ننضم الى الملائكة. في الهتاف، ننتهي الى ذكر ما جرى في العشاء السرّي، ونخلص الى تذكّر الأحداث الهامّة في حياة يسوع. فهذه كلها ستمثل بعد قليل حقيقة لا رمزاً وذلك حين الاستحالة. فالقربان هو يسوع المولود، المصلوب، المدفون، القائم، الصاعد، الجالس عن يمين الآب.

٢ ــ هذا لا يعني ان النعمة خاصة بالابن والمحبة بالآب والشركة بالروح القدس. فهي مشتركة بين الأقانيم على ما الأمر ظاهر في العهد الجديد نفسه.

أن صلاحه لنا أخذ اسم « الحب ».والغني بالرحمة (أفسس ٢:٤) رغب ان يعطي اعداءه الذين صاروا الآن اصدقاءَه، خير ما عنده، وهذا عمله الروح القدس عندما حل على الرسل. لهذا فإن صلاحه مع الناس يسمّى الشركة. لكن قد تقول، كل هذه الخيرات اعطيت للناس بمجيء المخلص، اذاً ما حاجتنا الى الصلاة من أجل ما نلناه حقاً؟

الجواب واضح: نحن نصلّي على هذا النحو ليس لكي لا نخسر ما قلناه، بل لكي نحتفظ به أبداً. لذا فالكاهن لا يقول: « حتى تكون هذه لكم... »،بل « لتكن مع جميعكم ».فلا تدعوا النعمة التي منحت لكم تهدر وتضيع.وإذ شرَّفنا بصلاة كهذه، ورفع نفوسنا الى العلاء فهو (أي الكاهن) ينهض أفكارنا أيضاً وذلك بقوله: « لنرفع قلوبنا... »،لنكن سماويين في الأذهان، لا أرضيين (كولوسي ٣:٢). فيوافق المؤمنون ويجيبونه بأن قلوبهم هي حيث كنزهم (متى ٦:٢١)،أي حيث يكون المسيح الجالس عن يمين الآب وذلك بقولهم: « واضعوها لدى الرب ».

بعد أن امتلأت قلوبنا بهذه الأفكار المباركة الجميلة، يبقى لنا ان نرد الشكر لله خالق كل الصالحات، هكذا فعل الكاهن الأوّل (أي يسوع) الذي قبل تأسيس سر الشكر المقدس، رفع الشكر لله أبيه. والكاهن نفسه يقول : « لنشكرن الرب » فيعلن المؤمنون بقوله : « إنه لحق وواجب » والكاهن أيضاً يرفع الشكر لله ويمجده ويسبحه مع الملائكة شاكراً اياه على كل الخيرات التي منحها لنا منذ بدء الزمن. وأخيراً يتذكر السر غير المدرك وغير المقترب اليه والكامن في التجسد والفداء. ثم يقدس القرابين فتكتمل الذبيحة. كيف ذلك ؟ الكاهن يذكر قصة العشاء السري وكيف انه قبل أن يتألم (الرب) اعطى تلاميذه هذا السر وأخذ الخبز والكأس، ولما رفع الكأس قال الكلمات التي تعبر عن السر[١]

---

١ ــ أي خذوا كلوا هذا ...

وعندما يردد هذه الكلمات ينحني ويصلي وإذ يقول الكلمات على القرابين، كلمات الإبن الوحيد مخلصنا يتحول، الخبز الى جسده الطاهر، والخمر الى دمه الثمين والمقدس[1].

وبعد أن تقال هذه الكلمات، يتم الطقس المقدس. فالقرابين قد تقدست، والذبيحة اكتملت، والضحية ذبحت من أجل خلاص العالم. فهي لم تعد خبزاً كما كانت حتى قبل لحظات أي مجرد رمز الى جسد الرب. انها الذبيحة الحقيقية، جسد ربنا القدوس الذي احتمل النقمة حقيقة، والإهانات واللطمات... (١ تيمو ٦:١٣) ذلك الجسد الذي هزىء به وأهين وبصق عليه وذاق المذلة. وبنفس الأسلوب، فالخمر اصبح الدم الذي فاض من ذلك الجسد. إنه الدم والجسد اللذان صوّرهما الروح

---

١ — كاباسيلاس اختصر. يقول الكاهن « خذوا كلوا، خذوا اشربوا » ثم يقول طلبة : « ونحن بما أننا متذكرون... » تذكر فيها أحداث خلاصنا حتى المجيء الثاني. ثم يقول « التي لك مما لك نقدّمها لك على كل شيء ومن جهة كل شيء ». فهذه القرابين هي لك مأخوذة من أملاكك. ونقدّمها لك. بين المفسّرين خلاف على عبارة « على كل شيء » **Katà Πάvta**. كرميريس يفسّرها بمعنى « في كل وجه »، ترامبيلّس بمعنى (كل مكان). ربما كان كرميريس محقاً فنعني اننا نقربها في جميع وجوه الطلب من تسبيح وحمد وشكر وابتهالات والتماسات. « من جهة كل شيء » تعني « لأجل كل شيء »، وبهذا تأخذ الذبيحة هذا البعد الجامع الشامل عن الكون كله وكل حاجاته وتوجيهاته. ويتلو ذلك دعاء الشعب : « اياك نسبّح... » أمّا الكاهن فيتابع : « ... وأيضاً نطلب ونتضرّع... ». ففي هذه اللحظة يستدعي الكاهن الروح القدس على الحاضرين وعلى القرابين ويلتمس تحويل... فتتم الاستحالة.

* في العهد الجديد وردت **Katà Πάvta** في (كو ٣:٢٠ و٢٢) و(أعمال ١٧: ٢٢) ترجمها « في كل شيء ». اليسوعية الجديدة، « في كل امر » (كولوسي) « في كل وجه » (اعمال) في رومية ٣:٢ زيدت لفظة تجعل معنى « وجه » واضحاً. ترجمتها الأولى « على كل وجه » والثانية « في كل وجه ». وردت نفياً في تسالونيكية الثانية ٢:٣ ترجمتها الأولى « بوجه من الوجوه » والثانية « بشكل من الأشكال ». وردت العبارة مسبوقة بحرف الجر **EIS** لا **Kata** في ٢ تسا ٣:١٦ ترجمتها الأولى « من كل وجه » والثانية « في كل حال » أفضل ترجمة « في كل وجه »، « بوجه من الوجوه »، « من كل وجه » لهذه الآيات. عب ٢:١٧ و ٤:١٥.

القدس نفسه في بطن العذراء مريم فولد منها ودفن وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب.

لكن كيف لنا الإيمان لنؤمن بهذا؟

هو نفسه قال: هذا هو جسدي. هذا هو دمي. هو نفسه طالب الرسل بذلك، ومن خلالهم طالب الكنيسة كلها: « اعملوا هذا لذكري ».ما كان ليطلب منهم ذلك الا ليعطيهم القوة ويؤهلهم للقيام بهذا. ما هي هذه القوة إذاً؟ الروح القدس هو القوة التي من فوق، القوة التي شددت الرسل بموجب كلام الرب القائل: « بل امكثوا في أورشليم... حتى تلبسوا قوة من العلاء » (لوقا ٢٤:٤٩).على هذه الشاكلة يتم عمل الإنحدار الإلهي. لأنه عندما نزل الروح القدس، لم يعد يفارقنا، بل بقي معنا إلى الأبد: « روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه، ولا يعرفه: لكن انتم تعرفونه لأنه يسكن فيكم وسيكون معكم » (يو ١٤:١٧). هذا هو الروح الذي على أيدي الكهنة وبألسنتهم يتمم الأسرار المقدسة.

الا أن الرب لم يكتف بإرسال الروح القدس ليسكن فينا، بل هو نفسه وعد بأن يكون معنا إلى منتهى الدهور (متى ٢٨:٢٠).المعزي،حاضر على نحو غير منظور وذلك لأنه لم يتخذ شكلاً بشرياً لكن الرب بالأسرار العظيمة والمقدسة جعل نفسه في متناول نظرنا وأيدينا وذلك من خلال الأسرار المقدسة الرهيبة فهو قد اتخذ طبيعتنا ولبسها إلى الأبد.

هذه هي قوة الكهنوت، وهذا هو الكاهن. لأن يسوع بعد أن قدّم نفسه مرة وصار ذبيحة، لم يختم يسوع كهنوته فهو أبداً مبذول عنا وذلك لكونه شفيعنا امام الله الى الأبد. لهذا قيل فيه: « أنت الكاهن الى الأبد... » (عبرانيين ٦:٢٠).

لذا يستحيل على المؤمنين أن يرتابوا من جهة تقديس القرابين أو أن يشكوا في الأسرار الإلهية الأخرى. ولا سيما إذا ما اقيمت وفق الأصول مرفقة بصلوات الكهنة.

لكن يهاجمنا بعض اللاتين على النحو التالي: هم يدّعون انه بعد كلمات الرب: « خذوا كلوا... » وما يليها،لا تبقى حاجة إلى اية صلاة لتقديس القرابين. ما دامت قد تقدست بكلمة الرب، فهم يعتقدون إن مجرد النطق بهذه الكلمات، ومن ثم الكلام عن الخبز والخمر والصلاة من أجل تقديسها، كما لو انها لم تتقدس، لا ينافي التقوى فحسب بل هو عقيم وغير مُجدٍ[1].

إن كلمات الخالق « انموا واكثروا... » (تك ١:٢٢) قالها الرب في مناسبة واحدة ومفعولها مستمر. وهكذا فالكلمات التي نطق بها المخلص مرة،هي فاعلة إلى الأبد.

فالذين يعتمدون على صلواتهم اكثر من اعتمادهم على كلمة الله،يعنون أن كلماته تفتقر الى الفعالية والتأثير. هم يظهرون انهم يثقون بأنفسهم أكثر من الثقة به، وأيضاً يجعلون السر المقدس تابعاً ومستنداً إلى أمر ليس يقينياً، وأعني الصلاة الإنسانية. إذ لا يستنتج ان من يصلي يستجاب بالضرورة، حتى ولو كانت له فضيلة بولس.

ليس من الصعب دحض كل هذه الحجج. خذ أولاً أعمال الإلهي يوحنا الذهبي الفم التي عليها يعتمدون، وانظر فيما إذا كان يمكن مقارنة كلمات المسيح بكلمات الخالق. الله قال: « انموا واكثروا » ماذا بعد؟

---

١ ــ والحقيقة هي ان ليتورجية روما عرفت تبدلات غير موفقة. فيرد فيها اليوم كلام استدعاء الروح القدس في غير مكانه القديم ويأخذ البحث وأمثاله من المباحث المطروحة في زمان كاباسيلاس مكاناً شاسعاً نسبياً من شرح كان الأفضل ان ينصب جله على خدمة القداس التي كان كاباسيلاس قد أتقن فهمها.

بعد هذه الكلمات، نحتاج إلى ما يحقق هذا فعلاً ؟ وهل ثمة عنصر آخر من أجل زيادة النسل البشري؟ أليس الزواج والإتحاد الزوجي أساسيين. كذلك كل الاهتمامات الأخرى التي ترافق الزواج والتي بدونها يستحيل على البشرية أن تكون وتنمو. الزواج اذن، ضروري لإنجاب البنين. فبعد الزواج،ما نزال نصلّي من أجل الإنجاب دون أن يبدو اننا نحتقر كلام الخالق. فنحن نعرف ان الله سبب اولي للإنجاب، لكن ليس خارج إطار الزواج والإعالة من اجل التغذية. كذلك في الليتورجية،فإننا نعتقد أن كلمات الرب تتم السر حقاً لكن ليس خارج اطار الكاهن وصلواته.هذه الكلمات ليست ببساطة فعالة في حد ذاتها، في أي ظرف من الظروف، ولكن هناك شروط واجبة كثيرة بدونها لا تحقق هذه الكلمات غايتها. ترى من لا يعرف أن موت المسيح هو وحده جلب غفران الخطايا للعالم؟ لكننا نعرف أيضاً أن الايمان والتوبة والاعتراف وصلاة الكاهن، هي ضرورية حتى بعد موته (موت الرب) وإن الانسان لا يمكنه ان ينال غفران الخطايا الا إذا مر اولاً بكل هذه الأمور.

ماذا بعد؟ هل نحتقر موت الرب فندّعي انه عديم الفائدة والتأثير وذلك لأننا نعتقد أن نتائجه لا تكفي إلا اذا أضفنا مساهمتنا؟؟

من غير المعقول أن نوجه اللوم الى الذين يصلّون من اجل تقديس القرابين، فثقتهم بصلاتهم ليست ثقة ببشر بل هي ثقة بالله الذي وعد بأن يهبهم سؤلهم. والحقيقة أن العكس هو الأساس بالنسبة لمفهوم الصلاة. لأن المتضرعين يصلّون لأنهم أخفقوا في الثقة بأنفسهم،في أمور يصلّون من أجلها ويؤمنون انه بامكانهم الحصول على طلبهم من الله فقط. والمصلّي اذ يطرح نفسه على الله، يعترف ويقر بأنه يعرف ضعفه وعجزه. ويقر انه بحاجة الى الله في كل شيء، فهذا ليس شأني ولا هو في متناول قدرتي. فالذين يصلون يجب أن يعتمدوا على الله فقط دون سواه.

لكن ليس بوسع الانسان تخيل كل هذه الأشياء ان لم يتعلمها من الله. ما كان يمكنه أن يدرك الرغبة فيها، لو لم يوجهه الله الى ذلك. ما كان يمكنه أن يتوقعها، لو لم يكن قد حصل على الرجاء فيها من ذاك الذي هو الحق (أي الله). ما كان ليجسر حتى على الصلاة من أجل هذه الأمور، لو لم يكن الله قد أظهر له بوضوح ان ابتغاءها يتم بمرضاته، وانه مستعد أن يهبها لمن يطلبها.

وبالنتيجة فالصلاة يقينية وثمارها أكيدة. هذا ما فعله سيد العطية، بشتى الطرق، فكشف عن الرغبة فيها.

لهذا نؤمن بأن تقديس الأسرار يقوم في صلاة الكاهن، ومن المؤكد أنه لا يعتمد على أية قوة بشرية، بل على الله فقط. ونحن على يقين من أن النتيجة لا تحصل عن طريق عقل الإنسان الذي يصلّي، بل عن طريق الله الذي يستجيب. لا لأن الإنسان قد ابتهل وتضرع، بل لأن الله قد وعد بمنحها.

لا حاجة لنا للكلام عن السبيل الذي به أظهر المسيح رغبته في منح هذه النعمة. فهو لهذا أتى الى العالم ولهذا صار كفارة ومات. لأجل هذا عندنا الكهنة والمذابح والوصايا والتعليم والتشجيع، حتى ان المائدة الشريفة نفسها توضع أمامنا. ولهذا أعلن المخلص انه راغب في أن يحفظ الفصح (لوقا ٢٢:١٥) لأنه (في ذلك الحين) كان على وشك أن يقدم الفصح الحقيقي لتلاميذه ولهذا أمرهم: « اصنعوا هذا لذكري ».فقد رغب أن نتم هذا السر فيما بيننا دائماً.

اذاً كيف يشكك المؤمنون (المصلّون) في غاية صلاتهم إذا كان الله قد قرر أن ينالوا ما يطلبونه وكان هو نفسه قد رغّبهم في العطاء، وهو وحده يقدر عليه؟ فالذين يؤمنون بأن القرابين تتقدس بالصلاة،لا يحتقرون كلمات الرب المخلص، كما ولا يثقون بأنفسهم، وأيضاً لا يتسببون في الإعتماد على ما ليس اكيداً، كالصلاة الإنسانية مثلاً،فعبثاً يلومنا اللاتين.

ونورد برهاناً أدق الا وهو الميرون المقدس الذي ذكره المبارك ديونيسيوس[1] إنه من نفس الفئة والمرتبة التي للمناولة الالهية وهو بدوره يتكرس ويتقدس بالصلاة. والمؤمنون لا يشكّون في أن هذه الصلاة قوية ومقدسة. وبالمثل فإن رسامة الكهنة والأساقفة أيضاً... تتأثر بالصلاة. فالذي يشرطن، يضع يديه ويقول للاكليروس: « لنصلِّ من اجله لتأتي عليه نعمة الروح القدس. (راجع الافخولوجي الكبير في رسامة الكهنة). وعلى نحو مماثل فإن الأسقف، في الكنيسة اللاتينية وأثناء الشرطونية يدهن الرأس[2] وفي الكنيسة الكاثوليكية يدهن الأسقف أثناء شرطنته رأس المرشح، بالزيت ويصلّي أن تنسكب عليه نعمة الروح القدس.

بالصلاة يعطي الكاهن الحل من الخطايا للتائبين. وفي السر الأخير، سر المسحة، الأمر كذلك، فصلوات الكهنة هي التي تتمه. ولهذا السر القدرة على شفاء الذين يجري عليهم من الأمراض الجسدية ومسامحة الخطايا، على ما هو مثبت في التقليد الرسولي: « هل بينكم مريض فليدعو شيوخ الكنيسة ليصلوا عليه... » (يعقوب ٥:١٤ ــ ١٥) فكيف يستطيع الذين يزدرون الصلاة (في الأسرار) ان يردوا على هذه الحجج؟

إذاً، كما يقولون، كانت نتيجة الصلاة غير اكيدة، سواء كان الكاهن على صلة أصيلة بتلك الخدمة المقدسة التي يحمل اسمها، أو ان الميرون له القوة ان يقدس. لذا من المستحيل أن يكون سر المناولة إن لم يكن هناك كاهن أو مذبح لأن الذين ينتقدوننا سيدركون بصعوبة ان كلمات الرب هي فاعلة ومؤثرة حتى ولو نطق بها أي كان، وربما بدون مذبح أيضاً. وبالفعل، فالمذبح الذي عليه ينبغي أن يوضع القربان هو نفسه قد

---

١ ــ ديونيسيوس المنحول « المرتبية الكنائسية » من اليوناني المجلد ٣.

٢ ــ الأصح ان الشرطونية تتم بوضع اليدين لا بالمسح بالدهن.

تكرّس بالميرون الذي بدوره يتكرس بالصلاة. واكثر من هذا، من يقدر أن يهبنا مسامحة خطايا مضمونة إذا كان هناك شك بالكهنة، وشك بتضرعاتهم وصلواتهم؟ واذا سايرنا كلام هؤلاء،فهذا يعني هلاك المسيحية الكلي. لذا من الواضح انه بالنسبة للذين يتمسكون بمثل هذه التعاليم، ان اساسات فضيلتهم هي موضع تساؤل[1].

في الحقيقة هناك خطر كبير عند الذين يصوغون اقوالاً من هذا النوع غريبة عن تقليدات الآباء،وبعيدة عن الأمان الذي يكفله التقليد. فالله قال انه يستجيب للصلاة ويمنح الروح القدس لطالبيه،ولا شيء يستحيل على المصلين بإيمان وليس وعد الله بكاذب. فالآباء هم الذين تسلموا هذا التقليد،وهذا التعليم،من الرسل وخلفائهم. فالأسرار صارت فعالة بالصلاة. فباسيليوس الكبير والذهبي الفم معلما الكنيسة المعظمان، أكدا ذلك، وآخرون حذوا حذوهم. فالذين ينكرون مثل هذا السلطان،لا يستحقون أي اعتبار من الذين يؤمنون بالتعليم الحق.

لا أحد من الرسل او من معلمي الكنيسة تنطّس ليقول انه يكفي ان تكرس قرابين الأسرار. الكلي الغبطة يوحنا فم الذهب نفسه قال ان هذه الكلمات نطق بها المسيح مرة، فهي دائماً فعالة، تماماً كما ان كلمة الخالق هي فعالة.

ان ما يفحم خصومنا قطعياً،هو ان الكنيسة اللاتينية نفسها التي اليها يسيرون، لا تكف عن الصلاة من اجل القرابين بعد أن تكون كلمات التكريس قد نطق بها. لقد فاتهم هذا الأمر بدون شك، لأن اللاتين لا يتلون هذه الصلاة مباشرة بعد ذكر كلمات المسيح، ولأنهم لا يطلبون

---

١ ــ أطال كاباسيلاس. هدفه هو التدليل على جزء اساسي من اجزاء الأسرار جميعاً. استدعاء الروح القدس في المعمودية والميرون والذبيحة الالهية والتوبة والكهنوت ومسحة الزيت.

علناً تقديس وتحويل العناصر إلى جسد الرب، انما يستخدمون عبارات أخرى لها نفس المعنى وهذه هي صلاتهم:

« بعد أن نسأل ان تحمل هذه القرابين بيد ملاكك القدوس الى مذبحك في الأعالي...[1] ».

ماذا يقصدون بقولهم: « لكي تحمل هذه القرابين الى فوق »؟ اما انهم يطلبون انتقالاً محلياً للقرابين، أي من الأرض والمناطق الدنيا إلى السماء، او انهم يتكلمون عن انتقال معنوي من حالة إلى أخرى.

يجب ان نسأل ما انتفاعنا من أن نصلّي لكي ترفع الأسرار المقدسة عنا طالما ان المسيح من خلالها يبقى معنا إلى منتهى العالم (متى ٢٨: ٢٠)؟ وإذا عرفوا انه جسد المسيح،كيف يمكنهم ان يشكّوا في انه معنا سرياً وفي السماء، جالساً عن يمين الآب بشكل يعرفه هو دون سواه؟ كيف، من الناحية الأولى، يمكن لذاك الذي ليس هو جسد المسيح السماوي حقيقة أن يصبح سماوياً؟ او من جهة ثانية، كيف يمكن لذاك الذي يفوق كل سلطان وقوة وسيادة وسمو ان يُحمل بيد ملاك؟

من جهة اخرى لنفرض ان صلاة اللاتين تسأل ان ترفع القرابين بكرامة وتتحول إلى حقيقة اسمى، آنذاك يكونون ملومين بتجديف مريع، إذ يعتبرون أن جسد الرب حاضر حقاً لكنهم يؤمنون ان جسد المسيح يمكنه ان يصبح شيئاً اسمى وأكثر قداسة.

وهكذا من الواضح ان اللاتين يعرفون جيداً ان الخبز والخمر لم يتقدسا بعد. لأجل هذا هم يصلّون من اجل القرابين كعناصر ما تزال بحاجة الى صلاة. هم يصلّون لكي يرتفع ما هو اسفل إلى فوق، أي القرابين التي لم تذبح بعد، فهي يمكن أن تحمل الى المذبح لتكرس. لأجل هذا

---

١ ــ ذكرنا قبلاً الاضطراب الطارىء على خدمة قداس روما.

فهي تحتاج الى يد الملاك بالمعنى الذي يتكلم عنه ديونيسيوس العظيم، عندما يقول ان المرتبية الأولى، أي مرتبية الملائكة، تأتي لمعونة المرتبية الثانية أي البشرية. هذه الطلبة يمكن أن يكون لها أهمية واحدة فقط أي انهاتحول القرابين الى جسد الرب ودمه. ولا يجوز التخيل ان المذبح الذي يشار إليه موجود في مكان ما فوق السماوات على حدة. ولكي تفعل ذلك، فهذا يعني ان نربط انفسنا بالذين يؤمنون ان المكان اللائق بالعبادة هو في أورشليم أو على جبل السامرة. (يو ٤:٢٠ ــ ٢١) لكن الرسول بولس يقول ان هناك الهاً واحداً ووسيطاً واحداً بين الله والناس، يسوع المسيح. في المخلص فقط هناك كل تقديسنا واستشفاعنا.

ما هي الأمور التي لها قوة الإستشفاع ويمكنها أن تأتي بالتقديس؟ الكاهن، الذبيحة والمذبح. لأنه كما يقول ربنا « المذبح الذي يقدس » (متى ٢٣:١٩) المذبح يقدس التقدمة.

وما دام المسيح وحده يقدس، فيجب أن يكون هو وحده الكاهن والذبيحة والمذبح. ونعرف من كلماته انه الكاهن والذبيحة: « لأجلهم اقدس ذاتي » (يوحنا ١٧:١٩) وديونيسيوس الكلي القداسة في الفصل الخاص عن الميرون يخبرنا أن يسوع هو المذبح: « إذا كان المسيح مذبحنا الإلهي الذي هو التقديس الإلهي للعقول السماوية والذي فيه تَقدسنا، وذُبحنا ميستيكياً، وفيه جعلنا قرباننا، فدعنا ننظر الى هذا المذبح الإلهي بعين الروح[1] ثم يصلّي الكاهن لكي تنتقل القرابين الى المذبح السماوي وبكلام آخر لكي تتقدّس وتتحول الى جسد الرب السماوي. ليس هناك سؤال عن تغيير المكان، عن عبور من الأرض الى السماء، طالما نرى القرابين تبقى بيننا، وبعد الصلاة يبقى مظهرها كما هو.

وما دام المذبح يقدم القرابين الموضوعة عليه، فإن الصلاة من اجل

---

١ ــ ديونيسيوس، الفصل الرابع.

انتقالها الى المذبح هي الطلب في أن تتقدس. ما هو التقديس الحاصل بالمذبح؟ انه تقديس القرابين الموضوعة عليه. وعبر هذا التقديس؟ فإن الكاهن نفسه يتقدس اذ يقدم لله ويذبح (يوحنا ١٩:١٧). وما دام المسيح هو الكاهن والمذبح والذبيحة، فتقديس القرابين على يد هذا الكاهن وتحويلها الى يسوع المذبوح، ونقلها الى المذبح السماوي، هي كلها الأمر نفسه. لذا فأنت اذا صليت ان يعبر أي من هذه الأمور، فأنت تصلي من اجل الكل. انت تمتلك ذاك الذي من اجله تصلي، فتكون قد اتممت الذبيحة.

وبعد ان يكون كهنتنا قد صلّوا لكي تتحول العناصر الى الجسد والدم الالهيين، وبعد أن يكونوا قد ذكروا المذبح السماوي، لا يستمرون في طلب نقل القرابين اليه (أي المذبح) لأنها قد نقلت الى هناك حقاً وصارت مقبولة، الا انهم يطلبون ان تكون النعمة عطية الروح القدس بالمقابل، قد ارسلت اليهم. « لنصلِّ من اجل القرابين التي تقدمت وتقدست... » هل هذا لكي تتقدس؟ بالطبع لا، فهي مقدسة حقاً، انما لكي تكرسنا، والله الذي قدّسها، ان يكرسنا من خلالها.

اذاً من الواضح ان الكنيسة اللاتينية لا تشجب(كلها) الصلاة من اجل القرابين بعد كلمات التقديس، بل فقط بعض من الذين يسببون لها الأذى بطرق أخرى. انهم رجال يقضون اوقاتهم لا في شيء سوى في ان يخبروا او يسمعوا شيئاً جديداً (اعمال ٢١:١٧).

سؤال:

لماذا لا يستدعي الكاهن أثناء تقديس القرابين، الابن، الذي هو الكاهن والمقدِّس، بل انما يستدعي الآب؟

السبب هو لتعليمنا ان للمخلص قوة على التقديس لا بموجب صفته كإنسان، بل لأنه الله، ولأنه يشترك مع الآب في القوة الإلهية. وهذا نفسه

ما رغب ربنا في الكشف لنا عنه. ففيما كان يؤسس السر، رفع عينيه الى السماء وقدم الخبز لأبيه. للسبب نفسه اجترح العديد من المعجزات كموقف صلاة نحو الآب. رغب ان يظهر لنا أن هذا ليس من عمل طبيعته الإنسانية، إنما الوهيته، التي بحسب جوهرها، كان الله أباه. وبالطريقة نفسها عندما اوشك ان يرتفع على الصليب،رغب ان يظهر له مشيئتين (الهية وانسانية) فنسب مشيئته الالهية لأبيه، محتفظاً لنفسه بالمشيئة الإنسانية « لست كما اريد أنا... » (متى ٢٦:٣٩) وايضاً « لا مشيئتي بل مشيئتك» (لوقا ٢٢:٢٤). علماً ان الكلمات التي يبدو فيها انه لا يفضل مشيئته على مشيئة أبيه تظهر انه رغب في مشيئة الآب، التي قد أتمّها. لأن عبارة « لا مشيئتي بل مشيئتك » تعني الإتفاق ووحدة المشيئتين.

ويبرهن على هذا أيضاً عندما يؤنب بطرس على امتعاضه من فكرة الصليب والموت (متى ١٦:٢٢:٢٣). وأيضاً عندما يقول: « شهوة اشتهيت أن آكل الفصح معكم قبل أن أتألم » (لوقا ٢٢:١٥). لقد اشتهيت هذا الفصح قبل آلامي كما لو أنه يقول: لقد اشتهيت أن أبلغ عتبة الآلام.

فيما يخص الذبيحة ذاتها،ثمة سؤال يستحق الإعتبار. ما دمنا غير معنيين بمجرد ذبيحة شكلية أو بسفك دم (على نحو رمزي)، بل بأمر حقيقي، وذبيحة حقيقية،فينبغي ان نسأل انفسنا ما الذي يذبح؟ أهو الخبز ام جسد المسيح؟ لنقل هذا في عبارة اخرى: أقبل التقديس أم بعده تذبح القرابين؟

اذا كان الخبز هو الذي يذبح، ينبغي أن نسأل انفسنا كيف يكون أمر كهذا؟ بالطبع ليست الأسرار المقدسة للمساعدة في ذبح الحمل (حمل الله) الذي بموته رفع خطايا العالم (يو ١:٢٩).

لكن من الجهة الثانية، يبدو مستحيلاً أن يكون جسد الرب هو الذي يذبح. لأنه لا يمكن ان يضرب ويذبح هذا الجسد بعد اليوم. لكونه بات غريباً عن القبر والفساد وصار أزلياً (رومية ٦:٩).

كيف إذاً يكون هذا الذبح ما دام المسيح القائم من الأموات لا يموت بعد ؟ (رو ٦:٩) لقد تألم مرة واحدة في الزمن (apax)[1]، قرِّب مرّة لحمل خطايا الكثيرين (عبرا ٩:٢٨)،لكن ان ذبح في كل احتفال، مات كل يوم.

هل من جواب على هذه الأمور؟ نعم: الذبيحة تتم لا قبل تقديس الخبز ولا بعده، بل في لحظة التقديس ذاتها. لذا فمن الضروري حفظ كل تعاليم الإيمان المتعلقة بالذبيحة،دون اهمال أي منها. ما هي هذه التعاليم؟

اولاً ليست هذه الذبيحة مجرد صورة او رمز، بل هي حقيقية.
ثانياً ليس الخبز هو الذي يذبح بل جسد المسيح. ثالثاً لقد ذبح حمل الله مرة واحدة فقط. انها تشتمل كل الأزمنة. لنرَ الآن اذا كانت الليتورجية ذبيحة حقيقية ام هي مجرد رمز.

ذبح الغنمة يعني حصول تحوّل في حالتها. فهي تتحول من غنمة غير مذبوحة الى غنمة مذبوحة. الأمر نفسه يسوغ هنا. فالخبز يتحول من خبز غير مذبوح الى خبز مذبوح. بكلام آخر، يتحول من خبز عادي الى جسد المسيح الذي ذبح حقيقة. وعبر هذا التحويل تتم الذبيحة حقيقة. تماماً مثل الغنمة التي تحولت من حالة إلى أخرى، لأن التحويل في الذبيحة هو حقيقة لا رمز. انه تحويل إلى جسد الرب المذبوح.

وإن كان الخبز الذي بقي خبزاً، هو الذي يذبح،فالخبز هو الذي سوف يذبح. وهذه الذبيحة هي اذاً الذبيحة.

الا ان التحويل مزدوج: الخبز يتحول من غير مذبوح الى مذبوح وقد تحوّل أيضاً من مجرد خبز، الى جسد المسيح. فهذا الذبح لا يعتبر بمثابة

---

١ — once and for all.

قطع الخبز، بل هو ذبح جسد المسيح وهو الشيء التام وراء مظهر الخبز. اذاً الذبيحة ليست للخبز بل لحمل الله.

ومن الواضح الآن،انه ليس من الضروري في ظل هذه الظروف ان يكون هناك قرابين عدة لجسد الرب،ما دامت،الذبيحة،لا تقوم في ذبح الحمل ذبحاً دموياً،بل في تحويل الخبز الى الحمل المذبوح. ومن الواضح ان التحويل يحصل بدون سفك دم. وهكذا فبالرغم من ان ما يتحول هو كثير، وان التحويل يتم مرات عديدة الا ان شيئاً لا يمنع الحقيقة التي منها تتحول، ان تكون واحدة وهي هكذا دائماً، جسد واحد وذبح وحيد لذاك الجسد.

قداس المؤمنين.

بعد ان تتم الذبيحة، إذ يرى الكاهن أمامه حب الله للناس،أي حمل الله،يستشفعه ويستعين به ليجعل توسلاته معروفة لدى الله، ويسكب صلاته في يقين ورجاء اكيدين،ويسأل ان تكون النيات مقبولة وفعالة ومؤثرة طالما ان الله قد ارتضى ان يتقبل قرابيننا.

ما هي هذه المؤثرات؟ انها مشتركة بين الأحياء والراقدين. وعوضاً عن القرابين التي ارتضى الله أن يقبلها،سوف يرسل نعمه لا سيما أن يكون للراقدين راحة لنفوسهم وأن يرثوا الملكوت مع القديسين الذين قطعوا شوطهم؛ وبالنسبة للأحياء،ان يشتركوا في المائدة المقدسة ويتقدسوا وان لا يحتكم احد الى رأيه الخاص وحكمه. وبالمثل، ان ينالوا غفران خطاياهم، والسلام والثمر والزاد الضروري لهم. وأخيراً أن يمثلوا امام الله جديرين بالملكوت.

ان تقديم الذبيحة ليس هو مجرد فعل تضرع. انه شيء من الشكر أيضاً. وبنفس الطريقة، في مطلع الليتورجيا، وأثناء تقديس القرابين لله، رفع الكاهن الشكر وقدم التضرع في الوقت نفسه. وهو الآن بعد أن قدس هذه القرابين وذبحها يدمج الشكر بالتضرع. ويورد سبب الشكر، ويذكر اسماء الذين يصلي من اجلهم[1].

---

١ ــ بعد التقديس يتم التشفع بالقربان وبالعذراء والقديسين كشفعاء ثم يطلب ويبتهل.

القديسيون هم اسباب الشكر كما ذكر: لأن فيهم تجد الكنيسة ما تبتغي، وتحصل على غايتها من الصلاة، وأعني ملكوت السماوات؛فالذين من اجلهم نصلّي،هم الذين لم يبلغوا الكمال وما زالوا الى الآن بحاجة الى الصلاة. وهذه هي كلمات الكاهن فيما يختص بالقديسين « نقدم لك هذه الذبيحة الروحية لإكرام الذين يرقدون بإيمان، آبائنا وأجدادنا ورؤساء الآباء والرسل والأنبياء والمبشرين والشهداء والمعترفين والعذارى ونفوس الذين رقدوا بسلام وخاصة من أجل الكلية القداسة... » ثم يذكر جماعة القديسين الذين بسببهم تقدم الكنيسة الشكر لله. من اجلهم تقدم له ذبيحة روحية في شكر. وفوق كل شيء من اجل والدة الإله، التي تسمو على الكل في القداسة. لهذا السبب لا يطلب الكاهن شيئاً نيابة عن القديسين بل يطلب ان يؤازروه في صلواته. لأنه كما قلنا، من اجلهم تقدم القرابين، ليس بتضرع بل في شكر.

ثم يقوم الكاهن بتوسلاته، ويسمي الأمور التي من أجلها يصلّي طالباً الخلاص للكل، وهكذا يقول: « نقدم لك هذه الذبيحة الروحية أيضاً عن كل العالم وعن الكنيسة الرسولية الجامعة وعن حكام بلدنا واباطرتنا المؤمنين المكرسين للمسيح »، هذه هي توسلاته.

الذهبي الفم في تفسيره للوجه المزدوج من هذه الذبيحة الروحية (الشكرية والإبتهالية) يضع على حدة الذين من أجلهم يتم الشكر،وعلى جهة أخرى،الذين من أجلهم يصلي. وباسيليوس الإلهي على كل حال، يربط بين الابتهال والشكر،ويقوم بهذا من خلال الليتورجيا كلها.

وعلى وجه التقريب نجد كل صلواته ذات ابتهال مزدوج. فهو يذكر القديسين الذين يذكرهم الذهبي الفم، وأيضاً اقسام القداس،لكن باسلوب مختلف. وبعد أن يصلي من أجل ان يؤهل الكل للمشاركة في الأسرار المقدسة لا لدينونتهم أو لعنتهم، يضيف: « حتى اننا نجد نعمة مع جميع

القديسين الذين في كل العصور قد أرضوك، آباؤنا وأجدادنا... ثم وخاصة بعد ذكرنا الكلية القداسة... » هذه الكلمات هي ذات جوهر ابتهالي، وهي في الوقت نفسه فعل شكر. فهم يعلنون الله، العطوف الأول على الناس. ومن بين احساناته التي منحها، يذكرون الذين كمّلهم وقدّسهم. وذلك كما لو أن احداً قد قال: « أعطنا النعمة. التي سبق أن اعطيتها للقدّيسين. قدّسنا كما سبق فقدست الذين من جنسنا ».

بعد أن يكون قد صلى (من أجل العطايا الممنوحة بالنعمة)، من أجل كل واحد، يصلي من أجل نفسه ويرجو أن يتقدس بالقرابين المقدسة.

مما يتألف هذا التقديس؟ من مسامحة الخطايا. وهذا هو تأثير هذه القرابين. ونعرف هذا من كلمات الرب للرسل، عندما أراهم خبزاً: « هذا هو جسدي...» ومن جهة كلماته المتعلقة بالكأس، والتي لها المعنى نفسه. « اطلع أيها السيد على حقارتي »، « اغفر كل ترَّهاتي الطوعية والكرهية ولا تبعد نعمة روحك القدوس عن هذه القرابين الحاضرة، بسبب خطاياي ».

(هذه الكلمات غير موجودة في نص قداس الذهبي الفم، انما لا تزال في قداس باسيليوس الكبير).

الروح القدس يهب غفران الخطايا للذين يشتركون في القرابين المقدسة. « لا ترفع نعمتك من هذه القرابين بسبب آثامي ». هناك طريقتان تعمل بهما النعمة في القرابين. أولاً، بالنعمة تتقدس. وثانياً، نحن نتقدس من خلالها، بالنعمة.

إن عمل النعمة في القرابين، التي تكلمنا عن الطريقة الأولى منها، لا يمكن ان يفسده شر إنساني ما دام تقديس القرابين ليس مرهوناً بالفضيلة الانسانية ولا يمكن لضعفات الناس أن تعرقلها بأي شكل من الأشكال.

الا ان الثانية، أي عمل النعمة فينا، فيستدعي تعاوننا، وبالنتيجة، فإن من شأن اهمالنا، ان يعيق النعمة. بكلام آخر، النعمة تقدسنا عبر القرابين، إذا كنا مستعدين للتقديس. لكن اذاكنا، من الناحية الثانية، غير مستعدين، فإننا لن نجني نفعاً، وأكثر من ذلك سنعاني خسارة وضرراً. وهذه النعمة، سواء تألفت من غفران الخطايا أو أنها جلبت معها كل بركة ممنوحة للمشتركين في الوليمة المقدسة، بقلب نقي، فالكاهن يصلي كيلا تفارق القرابين لأن النعمة والبركة يمكنهما فعلاً أن يفارقا القرابين بسبب الشر الانساني.

والكاهن يقدم الصلاة نفسها في وحدته مع الجماعة متمنياً: « وحدة الكل لكي نمجد الله بذهن واحد وقلب واحد »، وواعداً النفوس المهيأة: « برحمة الهنا العظيم ومخلصنا يسوع المسيح »[1]. وبعد، يدعو المؤمنين لأن يرفعوا الصلاة لله، الذي أسسها بنفسه، لأن تذكار القديسين يعني أن نستعطفهم ونصلي اليهم.

ماذا يقول الكاهن؟ لنصلي الى الرب من أجل القرابين المقدسة، ليس لكي تتقدس، (فأنا قد دعوتها مقدسة لأمنعكم من هذا التفكير)، انما لكي ينتقل هذا التقديس الينا. لأن هذا بالتأكيد ما نعني عندما نسأل الرب الرحوم الذي قبل هذه القرابين ان يرسل لنا النعمة مقابلها « لنصلي من أجل القرابين »، يقول الكاهن، حتى تتم فينا فعلها، ولكي تكون مفيدة فتقدم النعمة كما حصل عندما كان مخلصنا على الأرض، فقد كان هناك مدن عديدة لم يجترح فيها أية معجزة لعدم ايمانهم (متى ١٣:٥٨ — مرقس ٦:٥ — ٦).

وبعد دعوة المؤمنين الى الصلاة على هذا النحو، يصلي الكاهن بصوت منخفض من أجل النيات ذاتها، من أجل نيل النعمة، وذلك، للاشتراك في

---

١ — يسوع هو الهنا العظيم ومخلصنا (تيطس ٢:١٣).

الأسرار المقدسة بقلب نقي،والاستمتاع بأطايب المائدة المقدسة، ومن أجل غفران الخطايا، ومعاشرة الروح القدس او ميراث ملكوت السموات، وذلك كيلا نعمل لدينونتنا وهلاكنا.

بعد أن يكون قد صلى لكي ينال المؤمنون معاضدة الله وحمايته،يدعوهم كي يطلبوا أن يكون نهارهم كله مقدساً سلامياً كاملاً وبلا خطيئة،وان يكون لهم ملاك السلام الأمين لأن الثقة بملاك الضلال هي قمة الجنون. نحن نصلي من أجل ملاك حارس، لا ان يُعطى لنا واحد فقط لأن كل واحد منا عنده ملاك منذ لحظة ولادته. انما ان يكون فاعلاً ويتمم مهمته ويحمينا ويقودنا في الطريق القويم، وان لا يهجرنا، عندما نحزنه بخطايانا.

ثم يدعونا الكاهن لأن نتوسل من أجل غفران خطايانا، ومن اجل نيل الموافق والنافع لنفوسنا، ومن أجل سلام العالم ومن أجل مستقبل هادىء وأمين،وان نقضي بقية حياتنا بسلام وتوبة لتكون آخرتنا لائقة بالمسيحي. وأخيراً يطلب منا أن نودع ذواتنا وبعضنا بعضاً وكل حياتنا لله، وان نصلي من أجل وحدة الإيمان وشركة الروح القدس.

لقد ذكرنا مراراً لماذا نطلب وحدة الإيمان وشركة الروح القدس.

وبعد أن يكون قد ثقّف المؤمنين، وأنهضهم بطرق مختلفة الى الفضيلة، فإذ يرى الكاهن ان استعدادهم قد تم، وانه أهل للتبني الالهي، يسأل الله أن يؤهلهم ليتلوا معه تلك الصلاة التي فيها نتجاسر فندعوه أباً[1].

والجماعة كلها تتلو الصلاة معه. ثم يرفع الكاهن صوته عندما يدنو من النهاية ويتلو الخاتمة كإعلان.

وبعد هذا يتمنى السلام للجميع. لقد ذكّرهم بكرامتهم ونبلهم داعياً الله اباهم. ثم يدعوهم للإعتراف به كربٍّ،وان يظهروا له علامة طاعتهم بحني الرؤوس،وذلك دلالة على تبعيتهم له. وينحنون أمامه لا كخليقة

---

١ ــ الصلاة الربانية

أمام خالقها وربها،بل كعبيد مفتدين له قد اشتراهم بثمن هو دم ابنه الوحيد. فهو يمتلكنا بحق،لأن الدم الثمين نفسه تسبّب في التبني الالهي.

واذ يحني المؤمنون رؤوسهم، يرفع الكاهن الشكر لله عن كل ما صنع. ومرة اخرى يسأل من أجل ما هو ضروري لكل واحد،مذكّراً ايانا باسم ابنه الوحيد، وبنعمته ومحبته،وذلك ليؤكد ان صلواته ستنال ما وعد به مخلصنا: « ان ما تطلبونه من الآب باسمي... » (يوحنا ١٦:٢٣). ان ذكر الابن يتبعه اعلان يتلوه الكاهن عالياً أمام الجماعة التي تشترك في تمجيده للثالوث الكلي القداسة.

وبعد هذا،يصلي بصوت منخفض مرة ثانية وفي صلاته يدعو المسيح الذبيحة، والكاهن والقربان، ان يقدم نفسه لخدامه بإرادته[١].

ومن لحظة الدنو من المائدة المقدسة ودعوة الآخرين اليها لا يدعو الكاهن الجميع الى المناولة،اذ هو يعرف ان الاشتراك في السر،غير مباح للجميع. وهكذا يأخذ خبز الحياة ويظهره للناس ويدعو المستعدين لتناوله بلياقة قائلاً: « القدسات للقديسين »[٢]. ويصرخ كأنه يقول: هنا أمام أعينكم خبز الحياة. فلا يأتيّن أي كان لتناوله، بل فقط المستعدون، لأن القدسات هي للقديسين فقط. فالذين يدعوهم الكاهن « قديسين » ليسوا فقط الكاملين أو الذين بلغوا الكمال، بل الذين يسعون الى الكمال بدون أن يكونوا قد بلغوا اليه[٣]. لا شيء يمنعهم من التقدس بالاشتراك في الأسرار المقدسة. ومن وجهة النظر هذه،هم قديسون. وبهذا المعنى تُدعى الكنيسة كلها قدوسة حتى ان الرسول بولس قال لهم:

---

١ ــ خدمة القداس تبلغ ذروة اولى في الاستعداد للوصول الى نقطة استدعاء الروح القدس على القرابين. وتبلغ ذروة ثانية في الاستعداد بعده لتناول القرابين. وفي كلا المرحلتين نصعّد الابتهالات لنبلغ الذروتين.

٢ ــ الأصح « الاقداس » جمع قدس.

٣ ــ هذا معنى اللفظة لدى بولس الرسول الذي كان يدعو المؤمنين في رسائله « قديسين ».

« أيها الأخوة القديسون شركاء الدعوة السماوية... » (عبر ٣:١).

المؤمنون يُدْعَون قديسين بسبب القدوس الذي فيه يشتركون، بسبب ذلك الذي يتناولون جسده ودمه. أعضاء جسده، لحم من لحمه، وعظم من عظامه، وما دمنا متحدين به ومحتفظين بالصلة معه، فنحيا في القداسة، جاذبين الى نفوسنا، (بالاسرار المقدسة)،القداسة التي تأتي من ذلك الرأس وذلك القلب. ولكن ان فصلنا انفسنا عن الاتحاد بالجسد الكلي القداسة، فإننا عبثاً نشترك في الأسرار المقدسة،اذ لا يمكن ان تنبض الحياة في اطراف مائتة.

ترى ما الذي يفصل الأعضاء عن الجسد المقدس هذا؟ « خطاياكم هي التي ابعدتني عنكم » يقول الرب (اشعياء ٢:٥٩).

هل تسبب كل الخطايا الموت للانسان؟ طبعاً، لا، بل فقط الخطيئة المميتة؛ لهذا السبب تسمَّى « مميتة » لدى القديس يوحنا الذي قال: « هناك خطايا ليست للموت... » (١ يوحنا ١٦:٥ ــ ١٧). لهذا السبب ان لم يرتكب المسيحيون خطايا كهذه، (أي مميتة)، تفصلهم عن المسيح وتجلب الموت عليهم، فلا شيء بتاتاً يمنعهم ــ عندما يشتركون في الأسرار المقدسة ــ من تقبل التقديس، فعلاً لا لفظاً فقط،اذ انهم ما يزالون أعضاء أحياء مرتبطين بالرأس.

لذا عندما يقول الكاهن: « القدسات للقديسين »، يجيبه المؤمنون: « قدوس واحد، رب واحد، يسوع المسيح في مجد الله الآب آمين ». اذ لا قداسة لأحد من تلقاء ذاته. فليست القداسة وليدة الفضيلة الانسانية، انما تأتينا منه (أي يسوع) وبه. فالأمر هو كما لو وضعنا مرايا تحت الشمس. فكل واحدة تسطع عندما تعكس نور الشمس واشعتها، حتى ان المرء قد يظن ان ثمة شموساً عدة، انما في الحقيقة هناك شمس واحدة تسطع على الكل. هكذا المسيح، القدوس الوحيد، يسكب نفسه على

المؤمنين، فيسطع في نفوس عديدة وينير قديسين كثيرين. فهو وحده القدوس في مجد الآب. لهذا قال عند اقتراب اوان آلامه: « لقد مجدتك على الأرض » (يوحنا ١٧:٤). كيف مجّده؟ فعل ذلك، عندما كشف قداسته أمام الناس. فقد أظهر نفسه قدوساً كما ان الآب هو قدوس. فإذا اعتبرنا الله أبا لكل القديسين، كان الابن بهاء مجد الآب، واذا اعتبرناه. الهاً في انسانيته، كانت آنئذٍ كرامة الأصل وقداسته مما مجد الخالق.

وبعد ان يدعو المؤمنين الى الوليمة المقدسة، يأخذ القربان، ثم يعطيه لذوي الرتب الكهنوتية والشمامسة. لكن قبل هذا، يسكب في الكأس قليلاً من الماء الساخن. وهذا يرمز الى انحدار الروح القدس بعد ان تم كل مشروع الفداء[1]. والآن يأتي انحدار الروح القدس عندما تقدم الذبيحة وتكون القرابين الطاهرة قد بلغت كمالها، وهي تتم في الذين يتناولون باستحقاق.

ان كل مشروع الفداء الذي أتمه المسيح، كما رأينا، مرسوم في الـ « الحمل » (amnos)[2] أثناء القداس الالهي. هناك نرى رمز المسيح الطفل، رمز المسيح المسوق الى الموت، والمصلوب والمطعون بحربة. ثم نرى الخبز محوَّلاً الى الجسد الكلي القداسة الذي احتمل كل هذه الآلام وقام من الموت وصعد الى السماء وجلس عن يمين الآب.

---

١ ــ البعض يرى أيضاً في الأمر تأكيداً على ان الدم هو دم انسان حي. انما نص العبارة المتلوة على الماء يدل على معنى « الروح القدس ».

« كمال كأس الايمان بالروح القدس ».

مباركة هي حرارة قدساتك ».

حرارة ايمان مستوعبة روحاً قدساً ».

مُهم: ليست الترجمة صحيحة. نقول: «ملء كأس الايمان من الروح القدس... حرارة ايمان ممتلئة من الروح القدس »، في الطلبة بعد التقديس نقول: « لكيما الهنا... يرسل لنا عوضاً عنها النعمة الالهية، وموهبة الروح القدس (القنداق ص. ٧١). هكذا يظهر الانسجام بين النصوص.

٢ ــ المقصود قسم « الطابع » من « القدَّاسة ».

لذا فمن اللائق،ان الانجاز الأخير الذي يلي كل هذه الأحداث،يجب ان يرمز اليه، حتى يكون الاحتفال الليتورجي كاملاً.

ما هو سبب الآلام ونتيجتها؟ وما هو سبب اعمال المسيح وتعليمه؟

بالنسبة الينا ليست سوى انحدار الروح القدس على الكنيسة. لذا فمن اللائق،ان نرسم هذا بعد الأسرار الأخرى، كما هو الأمر عندما ينسكب الماء الساخن في الكأس.

ما دام هذا الماء الساخن ليس ماء فقط،بل يشترك في طبيعة النار، فهو يرمز الى الروح القدس الذي يُرْمز اليه أحياناً بالماء،والذي نزل على الرسل بشكل نار[1].

هذه المرحلة من القداس تمثل تلك اللحظة من الزمن، لأن الروح القدس انحدر بعد أن تم كل شيء خاص بالمسيح، وبنفس الطريقة،فإن القرابين المقدسة عندما تبلغ كمالها المطلق، يضاف الماء.

فالأسرار أيضاً ترمز الى الكنيسة التي هي جسد المسيح. فقد تقبّلت الروح القدس بعد صعود الرب. والآن هي تتقبل موهبة الروح القدس بعد أن تكون القرابين قد قبلت على المذبح السماوي. والله الذي اقتبلها، يرسل لنا عوضاً عنها الروح القدس[2]، كما أسلفنا.

الكنيسة ممثَّلة في الأسرار المقدسة لا كفي رموز،بل كتمثل الأطراف في القلب، كتمثل الأغصان في الكرمة. فليس الاشتراك هنا بالاسم فقط، أو مجرد تماثل في المشابهة بل هو تعادل في الواقع[3].

---

١ ــ الأمر واضح في يوحنا ٣٨:٧ ــ ٣٩ وأعمال ٢:٢ ــ ٤.

٢ ــ كاباسيلاس يؤيد هنا ضمناً حاشيتنا السابقة، فتصح ترجمتنا للنصوص.

٣ ــ العبارة اليونانية دقيقة. تعني ان الخبز والخمر هما جسد المسيح ودمه بعينهما فعلاً وحقاً لا اسماً ومشابهة.

لأن الأسرار المقدسة هي جسد المسيح ودمه، اللذان هما للكنيسة طعام حق وشراب حق. والكنيسة اذ تشترك فيهما، لا تحولهما الى جسد انساني كما نفعل بالطعام العادي، بل تتحول إليهما، لأن العنصر الالهي الأسمى يفوق البشري الأدنى. فعندما يدخل الحديد النار يصبح ناراً، وهو لا يعطي النار خاصّة الحديد. وعندما نرى حديداً أبيض حامياً، يبدو ناراً لا معدناً، لأن كل خواص الحديد قد اتلفت بفعل النار.

وهكذا اذا رأى احد كنيسة المسيح متحدة به ومشتركة في جسده المقدس، فلن يرى سوى جسد الرب. لهذا، كتب الرسول: « انتم جسد المسيح... » (١ كور ١٢:٢٧). فإذا سمى المسيح الرأس ونحن الأعضاء، فهو ليس الّا ليعبر عن محبته وعنايته بنا وتعليمه ووعظه أو ليعبر عن خضوعنا التام له كما نفعل أحياناً بمبالغة فنصف انفسنا أعضاء لأقربائنا وأصدقائنا. انما لكي يبرهن حقيقة، ويشهد ان المؤمن من هنا سوف يحيا في المسيح بدمه، معتمداً بحق على ذلك الرأس ومغطى بذلك الجسد.

لهذا من المنطقي جداً ان نقول أن الأسرار المقدسة تمثل (ikonizee) الكنيسة.

عندما يكون الكاهن قد تناول جسد الرب ودمه[1] يلتفت الى الشعب

---

١ ــ قبل المناولة يتلو الكاهن ابتهالات تقوية رائعة استعداداً للحدث العظيم. من بينها هذه القطعة الرائعة:
« لقد شغفتني بشوقك أيها المسيح ونقلتني بعشقك الالهي. فأحرق خطاياي بنار غير هيولية وأهّلني أن أمتلىء من النعيم الذي فيك، لكي ــ وأنا متهلّل ــ أعظّم حضوريك أيها الصالح ».
« نقلتني » أي حوّلتني. فالعشق الالهي يحوّلنا عن حالنا البائسة المنحدرة بالأهواء، الى لهيب أبناء الله فيحرق الروح القدس خطايانا، ونمتلىء لا من نعيم خارجي مثل فردوس آدم، بل من النعيم الموجود في داخل يسوع. واذا ما امتلأنا صوفياً الآن بحال مستورة فإننا نعظم حضوري المسيح: حضوره في القربان الذي يؤمن اتحاداً صوفياً mystical، وحضوره في النهاية. parousia تعني حضور، مجيء، ظهور. في العهد الجديد هي مترجمة غالباً « ظهور ». الظهور الثاني وجهاً لوجه (كورنثوس الأولى ١٣:١٢).
وبعد المناولة يتلو الكاهن صلوات من عيد الفصح. فالمناولة هي عشاء فصحي. عيد الفصح عندنا هو القيامة يوم الأحد لا الذبح يوم الجمعة. الصليب هو مكان النحر بالحربة. القبر هو المائدة. لا نأكل مسيحاً ميتاً بل مسيحاً حياً قد قام من الأموات.

ويظهر الأسرار المقدسة (الكأس) ويدعو الذين يرغبون في المناولة طالباً منهم ان يتقدموا بإيمان الله وخوفه غير مظهر احتقاراً أو شكًّا بالمظاهر المتواضعة،لأن موضوع الايمان هو فوق العقل،إنما يعرّف كرامة السر الذي هو نبع حياة أبدية للذين يتقبلونه.

والمؤمنون عندما يعلنون ايمانهم والتزامهم، فإنهم يعبدون الرب ويباركونه معلنين الوهيته المحتجبة وراء أقنعة اسرارية (sacramental). ولكي يكون تسبيحهم اكثر بهاءً،فهم،يستعيرون كلمات المرنم: « مبارك هو الآتي باسم الرب »، « الله الرب ظهر لنا » (مز ١١٨:٢٦ ــ ٢٧).

ويسوع قال: « لقد أتيت باسم أبي ولم تقبلوني. إذا جاءكم أحد باسمه، فإنكم تقبلونه » (يوحنا ٥:٤٣). من طبيعة الرب، الابن الوحيد، ان يمجد الآب، بل من طبيعة العبد الهارب، العجرفة والانعزال. والنبي يعني هذا جيداً، وقد عرف الفرق بين الراعي الصالح والذئب، فبارك الذي يأتي باسم الرب. فهو يدعو الآب رباً، والذي ظهر لنا،يدعوه الهاً. بهذه الكلمات يبارك الشعب المسيح الآتي والمعتلن لهم.

ثم يصلي الكاهن من أجل الذين قد تناولوا سائلاً الله ان يهبهم الخلاص والبركة. وكلماته هي هذه: « خلص يا رب شعبك وبارك ميراثك... » (مز ٢٨:٩) ان كلمات المرنم هذه ترتبط بتلك التي يقولها المزمور موجهة من الآب الى الابن: « واعطيها ميراثاً لك... ملكاً لك... » (مز ٢:٨) لأن ما كان لله منذ الأزل قد دُفِعَ ليسوع،وذلك عندما أصبح انساناً.

لكن ما دام الابن هو خالقنا، لماذا لا يقول الكاهن « بارك أعمالك التي صنعتها » بدلاً من « ميراثك... »؟ ذلك لكي نقنعه بسهولة اكثر، بتذكرنا الفقر الذي عاشه حباً بنا فيبدو الكاهن وكأنه يقول:

اتوسل اليك بالنيابة عن النفوس التي من أجلها أردت أن تصبح خادماً،

وتطيع الأوامر، وتكون في عداد الذين يتقبلون العطاء مع انك تمتلك الكل. وأن يكون لك لقب الوريث، لمّا لم يكن لك ما تربحه. وهكذا فإننا لكي نستحضر أوثق علاقة بالمسيح،فهذا يحرك الرب الى رحمة اكبر. والآن، الميراث هو أوثق من الخلق. فالابن في توريثه لنا، يمتلكنا على نحو اسمى وأرفع مما عمله لدى خلقنا. أثناء الخلق كان له سلطان على الطبيعة الانسانية. الا انه في التوريث (inheritance) قد أصبح رب عقولنا ومشيئاتنا،وهذا سلطان حق. فهو كان له الحق الأول في امتلاك الكائنات غير العاقلة وغير الحسية، كونه بالطبيعة يمتلك في سلطانه كل شيء، لأنه خالق الكل.

لكن كيف أصبح بالتوريث رب عقولنا ومشيئاتنا؟

وهنا فقد أخضعناها (أي العقل والارادة) لذلك الذي نزل الى الأرض، وصلب، وقام من الموت. لقد اخضعنا عقولنا لمّا اعترفنا به الهاً حقيقياً وسيداً على كل الخليقة. لقد أخضعنا له مشيئاتنا اذ استجبنا لصوته وقبلنا قيادته وحمل نيره على مناكبنا بفرح. بهذه الطريقة امتلك الله البشرية امتلاكاً كاملاً، فقد ربحنا بحق: لقد رغب النبي اشعياء، منذ زمن بعيد، بهذا الامتلاك حين قال: « ايها الرب الهنا امتلكنا » (اشعياء ٢٦:١٣). هذا هو التوريث الذي يخبرنا عنه الكتاب المقدس والذي أخذه الابن الوحيد من أبيه والذي نطلبه في هذه الصلاة.

والآن قد تم القداس، وأوشك الاحتفال الافخاريستي ان ينتهي. القرابين قد تقدست وهي نفسها قد قدَّست الكاهن والكهنة الذين معه، ومن خلال الكاهن تتقدس كل الجماعة المؤمنة. وهكذا فالكاهن والرعية ينهون الخدمة بتسبيح الله ورفع الشكر له: « تبارك الله... الآن وكل... » يقول الكاهن.

والرعية تؤكد المقطع المأخوذ من المرنم: « لتمتلىء افواهنا بالتسبيح يا رب لكي نسبح مجدك... » (مز ٧١:٨).

نحن لسنا مستحقين يا سيد لأن نقدم لك نشيد تسبيح عن الخيرات التي منحتنا إياها، لكن هبنا هذا أيضاً عندما تملأ أفواهنا بالتسبيح، وكما انك منحت نعمة الصلاة لطالبيها لكي نعرف لماذا وكيف نصلي. هكذا أيضاً امنح شفاهنا القوة لتسبيحك.

ثم يطلب المؤمنون ان يلازمهم التقديس الذي تقبلوه،وان لا يفقدوا النعمة التي منحت لهم.

ان التأمل في البر له القوة ان يحفظ القداسة فينا، لأنه يزيد من ايماننا بالله، ويلهب فينا المحبة، ولا يسمح للنفس أن تعاني من الشر. لم نذكر، عبثاً، في مطلع هذا التفسير، أن الأفكار والتأملات الجديرة بالأسرار الالهية كانت ضرورية لتوطيد القداسة فينا.

ثمة سؤال آخر ينبغي أن ندرسه. لقد رأينا ان هذه الذبيحة الالهية والمقدسة تقدس بطريقتين: أولاً، بالشفاعة: فالقرابين التي نصنعها ونقدمها، من شأنها ان تقدّس الذين يقدمونها، كذلك من شأنها أن تقدس الذين تُقدم من أجلهم، وتجعل الله يعطف عليهم. ثانياً، بالمشاركة،لأن القرابين تصبح لنا طعاماً وشراباً حقيقيين. كما قال المخلص.

بالأولى، يشترك الأحياء والراقدون معاً. لأن الذبيحة تقدَّم من أجل الفئتين. إلا أن الثانية ممكنة للأحياء فقط. لأن الراقدين لا يأكلون ولا يشربون. ماذا بعد؟ بسبب هذا، الا ينتفع الراقدون من التقديس الحاصل بالمناولة؟ هل يكونون بهذا في حالة أسوأ من الأحياء؟ قطعاً لا. لأن المسيح نفسه يتصل بهم على نحو سري يعرفه هو وحده فقط.

ولإيضاح ذلك، فلنأخذ الأسباب الجوهرية لهذا التقديس ونرى ما اذا كانت نفوس الأموات والأحياء لا تستطيع ان تمتلكه. هل يأتي،لأن الحي له جسد، ويدنو من المائدة على قدميه،ويتناول القربان المقدس بيديه، ويلتهمه بفمه، ويأكله ويشربه؟ طبعاً لا. لأن الكثيرين من الذين يتناولون

بهذا الشكل ويتقدمون من المائدة المقدسة، لا ينتفعون، بل يجنون الأسوأ بداعي الخطايا الجسام التي فيهم.

اذاً ما هي اسباب التقديس عند الذين تَقدَّسوا؟ أية شروط يطلبها المسيح؟ انها نقاوة القلب، محبة الله، رغبة في السر. حماسة للمناولة، غير حارة، وعطش ملتهب. هذه هي السبل التي بها نستدر التقديس على نفوسنا. وهي ضرورية اذا اردنا الاشتراك في المسيح، وبدونها يستحيل قيام أية مناولة حقيقية. لكن، لا شيء من هذه هو خاصة الجسد. كلها من سمات النفس. اذاً لا شيء يمنع نفوس الراقدين من امتلاكها. كذلك ليس ثمة ما يمنع نفوس الأحياء من امتلاكها.

ما الذي يُعيق اتحاداً كهذا إن كانت النفس مستعدة وجاهزة لإقتبال السر؟

إذاً، قد تقول: اذا كان للحي المواصفات التي ذكرتها الا انه لا يشترك في الأسرار المقدسة، ترى هل ينال التقديس الذي يهبه السر؟

ليس في كل الحالات، فقط إذا تعذّر عليه جسدياً ان ينال (القرابين) كما هو حال الراقدين. هكذا كانت حال المتوحدين في القفار أو الكهوف والجبال البعيدين عن الكاهن والمذبح. فالمسيح قد منحهم هذا التقديس على نحو غير منظور. ونعرف ذلك، لأنهم كانوا يمتلكون حياة ما كان يمكن أن يحصلوا عليها بدون الأسرار، فالمسيح نفسه قال: « ما لم تأكلوا جسد ابن الانسان... » (يوحنا ٦:٥٣). وبرهان آخر هو ان الله قد أرسل ملائكة لبعضٍ من هؤلاء يحملون اليهم الأسرار.

فان كان المرء يقدر أن يأتي الى المذبح (الكنيسة)، الا انه لا يفعل، فمن المستحيل عليه ان ينال التقديس الذي يجلبه السر، والسبب ليس هو عدم مجيئه، بل لأنه كان يقدر ان يأتي، لكنه لم يأتِ. يبدو ان نفسه تخلو من الاستعدادات الصالحة والواجبة من أجل السر.

أية رغبة، أي حنين الى المائدة الطاهرة عند من يقدر على المجيء، ولا يأتي؟ أي ايمان لدى ذاك الذي لا يخشى تهديدات المخلص فيما يختص بالذين يزدرون هذه الوليمة؟ كيف نثق بمحبة من لا يدنو من السر رغم قدرته على اقتباله؟[1].

اذاً ليس ثمة ما يدعو للدهشة من أن المسيح سوف يمنح الابرياء من الراقدين، الغريبين عن مثل هذه الهفوات، حصة في هذه الوليمة المقدسة. والغريب والمذهل هو انه يمكن لإنسان يعيش في فساد، ان يغذي نفسه من جسد عديم الفساد وغير قابل للفساد. لكن ما الغريب في القول ان النفس الخالدة تغتذي بالطعام الخالد، كما هي طبيعتها؟ واذا كان الشيء الأول العجيب والفائق الطبيعة قد أتمه الله بمحبته اللامتناهية وحكمته المحتجبة، لماذا لا يتم الثاني، الذي هو مماثل له ومنطقي؟

الذين لا يزالون أحياء في الجسد يتناولون (جسد الرب ودمه) عَبْرَ الجسد. انما يخترق مادة النفس أولاً، ومنها يمر الى الجسد. هذا ما يعنيه الرسول المبارك عندما يكتب: « ان من التصق بالرب، صار واياه روحاً واحداً » (١ كور ٦:١٧). لأن هذه الوحدة وهذا الاقتران يحصلان في النفس أولاً.

والسبب هو لأن طبيعة الانسان تكمن في نفسه أصلاً. هناك تختزن القداسة التي تنبع من فضائله ونشاطه الانساني. وهناك أيضاً بيت الخطيئة. ان ما يهم الجسد يأتي من النفس، تماماً كما ان الجسد تفسده الأفكار

---

١ ــ كل مضمون هذا المقطع يوحي بان كاباسيلاس يدعو الى حضور القداس والاشتراك فيه والمناولة. ويعيب على المهملين اهمالهم. ليس بين الآباء من قال بجواز حضور القداس دون مناولة. والمناولة هامة جداً في نظره فلا يتصور النساك الذين عاشوا في انقطاع تام عن الناس بمعزل عنها. وعلَّل رأيه بما جاء في حياة بعض النساك عن تناولهم على ايدي الملائكة. انما الأغرب من هذا ما ورد في « بستان الرهبان » (ص ٢٣٤، طبعة ١٩٧٦) عن ناسك علماني خدم القداس، وفي « المرج الروحي » ليوحنا موخوس عن شماس بارك التقدمات فاستخالت. لا نعرف من هذا القبيل سوى هاتين الحادثتين الغريبتين.

الشريرة التي تنبع من قلوبنا (متى ١١:١٥ ــ ٢٠). لذا فتقديسه يأتي من النفس، وهذا صحيح من تقديس الفضيلة ومن التقديس الاسراري أيضاً. هناك بعض الأمراض الجسدية التي تصيبنا بسبب الشرور التي في نفوسنا. لهذا اعتق المخلص الجسد من الضعف والمرض وذلك لكي يشفي امراض النفس بتحريرها من الخطيئة (متى ٢:٩ ــ ٨) (مرقس ٥:٢ ــ لوقا ٢٠:٥ ــ ٢٥).

والنفس لا تحتاج الى الجسد لكي تنال القداسة، انما بالأحرى الجسد هو الذي يحتاج الى النفس. لماذا، اذاً، تشترك النفوس التي ما تزال في الجسد على نحو اكمل، في الأسرار المقدسة، من تلك التي انعتقت من اربطة الجسد؟ هل السبب هو انها تستطيع ان ترى الكاهن وتنال السر من يديه؟ أليس للمنتقلين عنا كاهن ابدي هو الكل بالنسبة اليهم يوزع المناولة حتى على الذين يتناولونه (بحق) من الأحياء؟ ليس جميع الذين يعطيهم الكاهن الأرضي، السر، ينالونه بحق واستحقاق، بل فقط الذين يمنحهم اياه المسيح. الكاهن يمنح السر لكل من يأتي، لكن المسيح يمنحه فقط للمستحق. ومن الواضح ان هناك واحداً فقط يكمّل النفوس ويقدسها بالسر، أعني المخلص (يسوع).

من هنا، يتضح ان كل العناصر المتعلقة بالأسرار المقدسة،يشترك فيها الأموات والأحياء معاً. اذ ان دواعي التقديس الأساسية هي من سمات النفس فقط. ويمكن وجودها بين الراقدين والأحياء معاً. على كل حال هناك العنصر نفسه الذي يتقبل التقديس بحق وعن مبدأ. كذلك الكاهن ذاته هو الذي يقدس. اما الشيء الوحيد الذي يمتلكه الذين ما زالوا في الجسد، ولا يمتلكه الراقدون، فهو التالي: غير المستحقين للمناولة يبدو انهم ينالون التقديس، طالما انهم ينالونه في الجسد،لأن المشاركة في السر عند الذين هم في العالم الآخر يُسمح بها فقط للمستحقين.وغير المستحقين لا يسمح لهم حتى بمجرد الاقتراب،علماً ان القدرة على أخذ

السر (أي المناولة) عن عدم استحقاق لا تمنح القداسة للأحياء. بل بالعكس، فهي تنزل فيهم عقاباً صارماً؛ من هنا كان عدم امكان هذه القوة ان تعود بالنفع على الأحياء.

ولنفس السبب، يتضح انه يمكن للراقدين ان ينالوا السر ويشتركوا في الأسرار المقدسة. ليس ما يمنع ذلك، بل لا بد بالضرورة من أن يعم مثل هذا الاشتراك. واذا كان في العالم الآخر أي مصدر للغبطة والراحة بالنسبة اليهم، فهذا سيكون مكافأة للمستحقين والانقياء، والمائدة المقدسة لن تكون البتة ضرورية بالنسبة اليهم. لكن في الحقيقة ما يجلب الغبطة والحبور للذين يسكنون هناك ــ سواء أسميته فردوساً أو حضن ابراهيم او المكان الخالي من الحزن والألم والمليء بالنور والاخضرار والنسمة، وحتى ولو أسميته الملكوت نفسه ــ ليس (اولاً وأخيراً) سوى هذه الكأس وهذا الخبز (أي يسوع المسيح).

فالوسيط (يسوع) هو مصدر الفرح الروحي (عبر ٦:٨ ــ ١٥:٩ ــ ٢٤:١٢) الذي سبقنا الى قدس الاقداس وهو وحده يقودنا الى الآب (عبر ٢٠:٦ ــ ١٠:٢ ــ يوحنا ٦:١٤).

هو نور النفوس الذي يظهر الآن ويهبنا نفسه في شكل السر، لأننا لا نزال سجينيّ الجسد، وبعد الموت سوف نعاينه ونشترك معه بدون حجاب حيث سنراه كما هو (يوحنا ٢:٣)، عندما يجمع النسور حول الجيفة (متى ٢٨:٢٤) و(لوقا ٣٧:١٢). سوف يأتي على سحب السماء بمجد، وسوف يجعل الأبرار يسطعون كالشمس.

والذين انفصلوا عنه وليسوا متحدين به، لن يستمتعوا بأية راحة في العالم الآخر ولن ينالوا أي صلاح وخير، (صغيراً كان أم كبيراً).

المسيح هو الوسيط الذي به يُعطى لنا كل ما منحه الله لنا، وبالاحرى كل ما يمنحنا اياه باستمرار. لم يكن كافياً بالنسبة إليه ان يلعب دوره

كوسيط لمرة فقط، لكي يهبنا كل ما توسط من أجله. انه يتوسط لنا على الدوام، وليس كما يفعل السفراء، أي بكلمات وتوسلات. وساطة حية هي. كيف يحقق ذلك؟ انه يجمعنا اليه ويجعل كل واحد منا بحسب موهبته ونقاوته شريكاً فيه بالخيرات والنعم التي له.

فكما ان نور العين يأتي من الضوء، والمحرومون منه لا يبصرون،هكذا الاتحاد الدائم بالمسيح هو ضروري لكل نفس ان ارادت ان تعيش بحق وتستمتع بالطمأنينة. فكما ان العين لا ترى بدون نور، هكذا النفس لا يمكن ان يكون لها حياة حقيقية، وسلام، بدون المسيح. لأنه وحده قد صالحنا مع الله وهو صانع السلام الذي بدونه نبقى أعداء الله وبلا رجاء في الاشتراك بالخيرات التي تأتي منه.

وهكذا، فإن كل انسان ــ اذا لم يتحد بالمسيح من البداية (عبر المعمودية)[1]، وان اتحد به ولم يبق في هذه الوحدة ــ يعتبر عدواً لله وينبغي ان يستثنى من كنوزه.

من الذي صالح الله مع الناس ؟

إنه يسوع (الله) وبالتالي فقد صولح الله شخصياً مع كل انسانٍ يحمل ختم الابن الوحيد، ويحمل جسده، مظهراً ذاته روحاً واحدة معه. بدون المسيح يبقى كل منا انساناً عتيقاً، ماقتاً لله لا يربطه به أي شيء.

وإذا ما ظن أحد ان راحة النفوس تأتي من صلوات الكاهن وقربان الذبيحة المقدسة، ينبغي ان نؤمن أولاً ان هذا يتم بالشكل الوحيد الذي به يستطيع الانسان ان يستمتع بالراحة. لقد سبق ان أخبرتكم ما هو هذا: المصالحة مع الله فلا نعود اعداءه. وهذا يتم فقط باتحادنا بالله وصيرورتنا

---

١ ــ لا نتاول إلا المعمودين.

روحاً واحدة مع الابن الوحيد الذي به وحده يُسرّ الآب. هذا هو عمل المائدة المقدسة، وكما رأينا، فإن فيها يشترك الأحياء والراقدون معاً.

ما دام التقديس هو المقصود، فالنفوس التي تحررت من الجسد،لها أفضلية على تلك التي ما تزال في الجسد. صحيح انهم ينالون بصلوات الكاهن وشفاعة القرابين المقدسة، التطهير وغفران الخطايا، تماماً كما يفعل الأحياء،الا أنهم لا يمكنهم ان يخطأوا، ولا يمكنهم ان يضيفوا أية اعمال أثيمة على الماضي كحال أغلب الأحياء بالجسد. وهم، اما انهم محلولون من كل نوم، أو على الأقل تحرروا الى الأبد من امكانية القيام بأية خطيئة. وبسبب هذا، فهم في وضع أفضل للشركة مع المخلص، ليس فقط بالنسبة لغالبية الأحياء، بل انما بالنسبة لأنفسهم فيما لو كانوا في الجسد. فكونهم قد تحرروا من قيود الجسد يجعلهم اكثر أهلية لأقتبال الأسرار المقدسة كما لو كانوا ما يزالون رهائن أجسادهم.

ونعرف ان هناك في العالم الآخر الكثير من المنازل: (يوحنا ١٤:٢). لذا فإن كل درجة من الخير والصلاح يمكنها أن تتمجد ولا أحد يمضي بدون مكافأة من القاضي الأكثر حباً وعدالة. وهكذا فالجديرون بأسمى المكافآت، الكاملون، الذين يرثون البركة الكاملة، كالقديس بولس، يستمتعون بهذه السعادة بصفاء اكثر،بعد الموت،منه قبله، عندما كانوا على قيد الحياة (١ فيليبي ١:٢٣). كذلك الذين تمت دعوتهم الى مكانة اولى في موضع الراحة، بالطبع يجنون ثمراً أوفر من الأسرار، اكثر مما عملوه عندما كانوا على قيد الحياة.

لقد بيّنا ان سلام النفس والمكافأة على الفضيلة سواء كانت كبيرة ام صغيرة، تتألف فقط من هذا الخبز وهذه الكأس التي يشترك فيها الأحياء والراقدون معاً. لأجل هذا يصف ربنا غبطة القديسين في المستقبل في صورة وليمة،وذلك ليظهر ان في الحياة الآتية لن يكون هناك سوى المائدة المقدسة. وهكذا فالذبيحة المقدسة في الافخارستية،هي للراقدين وللأحياء

معاً. وكما ان الأحياء ينالون تقديساً مزدوجاً، هكذا أيضاً الراقدون. فالراقدون ليسوا دون الأحياء، انما يفوقونهم ببعض الأمور.

هناك أمر آخر ينبغي ان يُراعى. يتضح مما قيل، ان كل المؤمنين يتقدسون بالذبيحة المقدسة، فإذا كانت هذه هي الحال دائماً، فهذا سؤال يستحق الدرس.

يتألف القداس من تقديم الهبات أو تقدمات؟ وليست كل الهبات دائماً مقبولة لدى الله، بعضها يُرفض بسبب شرور الذين يقدمونها. وانك لتجد امثلة عديدة على هذا في الناموس القديم والناموس الجديد. لنسأل أنفسنا ما اذا كانت القرابين المقدسة نفسها لا تقدم أحياناً بدون تقديس وبدون ان تقبل، كما تنص كلمات القداس، لأنها لا تقدم دائماً من رجال صالحين، انما أحياناً من رجال اشرار أيضاً.

ان أعمال الكنيسة تُظهر ان الله يرفض القرابين المقدسة أيضاً عندما يقدمها مجرم. واذا ما عرفت ان شخصاً ما في حالة خطيئة مميتة فإنها تمنعه من تقديم أي شيء. واذا ما كان عنده مانع للقيام بذلك، فهي أي الكنيسة لن تقبلها، بل انها تنبذه وقربانه، علماً ان الكنيسة لا تستطيع على الدوام أن تعرف هؤلاء الخطأة، لأن معظمهم يبقون غير معروفين، والمذبح المقدس يتقبل عطاياهم. ترى ماذا تكون حالة مثل هذه القرابين؟ هل يرفضها الله ويحرمها من أي تقديس؟

اذا كان الأمر هكذا، فإنه لا يمكننا ان نعرف على وجه التأكيد متى يتم التقديس ومتى لا يتم، ما دامت الحالة الروحية عند الذين يقدمون القرابين يجب ان تكون دوماً غير أكيدة، هذا اذا لم نقل انها مجهولة تماماً. فالمؤمنون يكونون في ريبة، ويعوزهم الايمان في الأسرار، ولن يجنوا منها نفعاً.

هل هناك من جواب على هذه المسائل؟ نعم، لأن القرابين المقدسة

يتم تقديمها مرتين: المرة الأولى يقدمها المؤمنون الذين يضعون قرابينهم في أيدي الكهنة. والثانية، تقدمها الكنيسة الى الله.

واذا كان من يقدمها في حالة خطيئة مهمة، كانت تقدمته (الاولى التي تكلمنا عنها)، لا جدوى منها، ولا تعود عليه بالفائدة، بسبب ذنبه. لأنه ليس من تقدمة هي بحد ذاتها ممقوتة من قبل الله، لأن كل ما صنعه الله حسن هو.

وفيما يختص بالتقدمة الثانية، فإذا كان الذين يقدمونها رجالاً فاضلين، ويقدمونها من أجل مجد الله وقديسيه وخلاص العالم، وعلى العموم من أجل كل قصد صالح، فلا شيء يمنعها من ان تكون مقبولة، لأن القرابين لم تلطخ بيدي الذي قدمها بل بقيت طاهرة، وتقدست وأتت بالتقديس على الذين دنوا منها، لأن لطخة الخطيئة لا يمكنها ان ترمي ظلها على أي مخلوق غير عاقل. الخطيئة هي مرض الارادة، ويمكنها ان تؤذي فقط المزيّفين بالعقل.

لماذا اذاً، ان كانت القرابين دائماً طاهرة ونقية، حتى ولو قدمت من قبل اناس اشرار، هل يقبلها قانون الكنيسة؟

ان شراً لا يُنسب الى القرابين ذاتها. لذا فما من شيء يمنعها من ان تتقدس وتكون مقبولة. وذلك عندما يقدم القرابين الثانية اناس فاضلون.

لكن قد تقول، ان الكهنة الذين يقدمونها ليسوا دائماً صالحين. فبعضهم قد أثموا بأسوأ الرذائل. وهكذا نبقى في نفس الشك كما كنا من قبل. وعندما يكون مقدمو القرابين غير مرضين لله (وهذا يحصل)، من أين تنال القرابين النعمة لكي تكون مقبولة ومرضية لدى الله، مقدَّسة ومقدِّسة؟ بالطبع لا يمكنها ان تنال نعمة كهذه، وينبغي ان تكون مرفوضة حقاً. لذا ينبغي أن نكون دائماً في شك، طالما انه يتعذر علينا ان نعرف شيئاً عن الحالة الروحية عند من يقدمها، من جهة، وعند الكاهن من الجهة

الأخرى. لأنه لا يعرف أحد امور الانسان الا روح الانسان الذي فيه (١ كور ٢:١١). لذا فعندنا شك جدّي في ما يختص بالأسرار المقدسة. وليس لنا فيها ثقة. وما نفع الاشتراك في الأسرار المقدسة اذا كان المرء يفتقر الى الإيمان الراسخ؟

إن افكاراً كهذه يمكن تبريرها، وشكوك كهذه يمكنها ان تكون شرعية، اذا ما اعتبر المرء ان الكاهن هو سيد تقديم القرابين، وهو ليس كذلك.

ان ما يدعو الى تقدمتهم،هو النعمة التي تقدسها، اذ بالنسبة اليهم، التقدمة هي التقديس. ان من يقيم الذبيحة يومياً هو خادم النعمة. فهو يأتيها بما ليس من عنده، ولا يجسر ان يعمل أو ان يقول أي شيء بحسب حكمه ورأيه، بل فقط يقدم ما تسلمه سواء كان امراً ام كلمة ام فعلاً، ويقدمه لله بالأسلوب الوارد ادناه. وما دامت القرابين تقدم لله على الدوام باسلوب مرضي له، وجب ان تكون مقبولة.

ماذا يهمنا ما دام هو المعني؟ ماذا يهمنا لو كان شريراً؟ ان شره لا يمكن ان يغيّر من القرابين،ولا يمكنه ان يلوث عمل التقدمة. فالدواء لا يفقد شيئاً من فعاليته اذا تم تحضيره على يد رجل بسيط ومجنون لا يعرف شيئاً عن اسرار المهنة،ويحضّره حسب طلب الطبيب،متقيداً بتعليماته. ان دواء كهذا لا يمكن ان يكون عديم النفع بسبب جهالة من أعدّه. انما على العكس، يقود الى الشفاء بسبب مهارة الذي وصفه. فالدواء لم يلحقه الفساد والأذى بسبب حماقة الذي حضّره، انما مهارة الطبيب قد منحته الفاعلية والقدرة على الشفاء.

والأمر نفسه هنا. فالنعمة تفعل كل شيء. والكاهن هو مجرد خادم. وكل خدمة إنما تأتيه من النعمة لا ينسبها لنفسه لأن الكهنوت ليس سوى

طاقة للخدمة في الأمور المقدسة. ويتضح مما قيل ان كل القرابين تقدس المؤمنين دائماً، ما دامت دائماً مقبولة لدى الله[1].

والآن لنر كيف تكون القرابين الطاهرة مقبولة. ما معنى اقتبال العطية حتى فيما بين البشر انفسهم؟ ماذا ينبغي أن يعمل اولئك الذين يتسلمون الهبات، ليقال انهم قبلوها؟ هل يجب ان يتسلموها بأيديهم ويجعلوها على صدورهم؟ لا، قطعاً. هناك أمور كثيرة لا يمكن للذين ينالونها ان يحملوها او يرفعوها، كالحقول والبيوت وما الى ذلكِ.

ما الذي يشير الى القبول في حالة أية عطية مهما كانت؟ هو أن نجعلها بين مقتنياتنا وتكون لنا. هذا هو القبول. والآن، فإن الله يجعل هذه القرابين المقدسة ملكاً له فيحولها الى جسد ودم ابنه الوحيد. وبالطبع يستحيل ان نفهم ما المعادل لهذا التخصيص، ولا أن نضع مقياساً لشكل وطريقة قبول هذه القرابين.

ويمكن للمرء ان يقول كيف تكون التقدمة مقبولة عن طريق ما يعطى بالمقابل. ما المقابل الحاصل هنا؟ انه جسد المسيح ودمه. فالله يقبل خبزنا وخمرنا، ويعطينا ابنه بدلاً عنها. وقد تقول: وكيف نعرف ان الله يمنحنا بديلاً كهذا بدل قرابيننا؟

من كلمات من لبس هذا الجسد وقال لنا « خذوا »[2]، وذلك ليظهر لنا الهبة التي كان يمنحها لنا، وهذه الكلمات تشير الى المعطي والى من يتقبل، والى ما هو مُعطى.

---

١ ــ القديس غريغوريوس اللاهوتي أوضح: شر الكاهن لا يؤثر على خدمة السرّ أبداً. انما اذا جحد الايمان، أو سقط في هرطقة كاذبة مثل الآريوسية، او كان كاهناً غير قانوني، فلا تتم الخدمة على يديه.

٢ ــ خذوا كلوا هذا هو جسدي.

ومن الممكن اقتبال الأمور بطريقة اخرى بمثابة عربون. فالذين يأخذونه لا يحق لهم استعماله. ولكن لأمنعك من ان تفكر ان الأسرار المقدسة هي من هذا النوع، ولكي اؤكد انها لك حقاً، فإن الله قد أمرك ان تستعملها بقوله: « كلوا ». فالله قد قبل القرابين. لذا فهي تقدس نفوس المسيحيين الأحياء والأموات، المحتاجين الى التقديس.

لكن القديسين الكاملين حقاً، والذين مكانتهم مع الملائكة في المراتب السماوية، لا يحتاجون الى المراتب الدنيوية.

ويخرج من هذا السؤال،سؤال آخر: اذا تكرست القرابين لله من الناحية الأولى، ومن الناحية الثانية، تُجري التقديس في الذين يحتاجون اليها، لماذا نعتبر ان الذين تقدسوا مزمعون ان يجنوا بعض النفع منها؟ وعندما ندعو القديسين لنجدتنا وخدمتنا، لماذا يكون هذا في القداس، كما لو كان السؤال يتعلق بتقديمها لهم، أو بتقديمها عنهم حتى يصيروا ويكونوا أفضل ؟

السبب هو ان تقديم القرابين المقدسة له وجه آخر كما أسلفنا، وبموجبه تكون هذه القرابين للقديسين عندما تقدم لله بشكر من أجل المجد والكمال الممنوح لهم. القرابين هي لله ما دامت مقدمة له بمثابة عون إلهي. وهي للمؤمنين أيضاً الذين يحتاجون إليها. وهي للقديسين أيضاً كونها تقدم لله اكراماً لهم.

إن كل ما يعطى بسببي هو لي، كائناً من كان آخذه. نحن لا نأخذ باليد كل ما يعطى لنا، بل أحياناً يستلمه اترابنا واصدقاؤنا، وباختصار يتسلمه كل من تُعطى له الهبة، لسرورنا. لهذا قال الرب: « ان قبلتم فقيراً باسمي فقد قبلتموني » (متى ٢٥:٤٠). وأيضاً فالقديسون ينالون القرابين المقدسة لأننا نقدمها لله اكراماً لهم. تماماً كما اننا نتصدق حباً بالمسيح. لذا فالذبيحة تقدم حباً بالقديسين. واذ نحبهم كثيراً، فنحن نعتبر خيرهم خيرنا. ونغبطهم على سعادتهم كما لو كنا شركاء في شرفهم. وهكذا

عندما نفرح بالخيرات التي يمنحهم اياها الله، نشكر المانح والمعطي مقدمين قربانا بشكر.

والقديسون يتسلمون القرابين ليس فقط لأنها تُصنع حباً بهم، بل لسبب آخر هو انه لا شيء يبهجهم كالشكر الذي نرفعه الى الله بسببهم، حتى ولو كانت أعظم الشرور قد جرت على يد انسان شرير، كأن يجدف على اسم الله بسببهم. هذا ما جاهدوا من أجله طيلة وجودهم في الجسد. والآن وقد اصبحوا في السماء، فإن تمجيد الله هو عملهم الدائم وبهجتهم ومصدر كل سرورهم. عندما كانت لهم هذه الأفراح في الرجاء كرّسوا كل وقتهم لشكر الله عاملين كل ما هو لمجده (١ تسا ١٨:٥). ماذا يشعرون الآن عندما يكون شكرهم وتقديرهم له، أعظم، وهم يكونون مكمّلين في كل فضيلة، عندما لا يكونون بحاجة الى رجاء من أجل السعادة، بل بالخبرة يعرفون لطف الرب الحنون، عندما يعاينون ما كانوا عليه وما آلوا اليه، أي ان اولاد التراب صاروا كالشمس، والعبيد المُحتقَرين، هم الآن ابناء مكرمون ورثة للملكوت السماوي؟ ان من كانوا قبلاً خطأة، صارت لهم الآن القدرة على مغفرة خطايا الآخرين، والفضل في هذا يعود للقاضي (يسوع). ولهذا لا يمكنهم ان يسبّحوا الله بما فيه الكفاية. ولا يعتبرون الشكل الذي يرفعونه كافياً. فهم يرغبون في ان يتحدوا الناس والملائكة معهم لتمجيد الله حتى يكون دَيْن الشكر له مدفوعاً واكثر قيمة، ويكونوا مدينين لزيادة في عدد الذين يمجدون الله.

ابناء عازريا المباركون بنعمة الله، غلبوا لهيب الأتون المضطرم وكانوا شهوداً على ذلك (دانيال ١٣:٣ ــ ٢٠). كان من اللائق أن يرفعوا التسبيح لله الذي انقذهم بعجيبة وعلى نحو غير متوقّع، الا انهم لم يعتبروا تسبيحهم كافياً بل طلبوا معونة الملائكة وكل جنس البشر والسموات والشمس والنجوم والأرض والجبال والخلائق... ان رغبة القديسين هي هكذا: أي

ان يكون الله ممجداً حتى عندما يكونون أحياء بالجسد. فكم هو أعظم عندما يتحررون منه!

لذا فإن من يطلب كرامتهم وسعادتهم ومجدهم يسبح الله الذي شرّفهم، ويمنحهم الفرح الذي يفوق كل الأفراح. ولا سيما عندما لا يمجده بالكلام فقط،بل بتقديم القرابين بشكر، تلك التي يراها مقبولة وثمينة وجديرة بالشرف. عندئذ، اذ يتقبل المخلص هذه القرابين (بالنعمة)، يهبنا بالمقابل جسده ودمه، بديلاً يفوق كل ذبيحة ناموسية. والقديسون أنفسهم يسرّون بها كما لو لم تكن تقدمة اخرى نكرمهم بها، ويجعلون أنفسهم تحت خدمتنا كلياً ويبدون الاستعداد لمعونتنا كيفما اردنا، لأنهم في كل شيء يحذون حذو ربهم.

في هذا قد ضل الكثيرون اذ لم يعتبروا تذكار القديسين بمثابة شكر، بل بمثابة صلاة الى الله نيابة عنهم. لا اعرف من أين جاؤوا بأسباب هذا التفكير. فلا الليتورجيا ولا كلماتها تساند مثل هذا الادعاء. وما دامت الحقائق معاكسة لهذا الادعاء الغريب، فليس تبيان وجهة نظرنا بعسير.

إن كانت الكنيسة حقاً تصلي الى القديسين، فمن الواضح انها ستطلب لهم الخيرات التي هي نفسها كانت تصلي من أجل الحصول عليها. فالأمور التي من اجلها نصلي نيابة عن الأموات، هي غفران خطاياهم، ميراث الملكوت، والارتياح في احضان ابراهيم مع القديسين. ولن تجدها تفتش عن امر آخر نيابة عن المؤمنين المنتقلين. ان صلواتنا الى الله قد تثبتت ضمن هذه الحدود.

لأنه ليس بسائغ أبداً ان نقيم الصلاة من أجل كل شيء يراود اذهاننا. فهناك أيضاً قانون وناموس وحدود لا يمكن تجاوزها. الا يقول الرسول: « نحن نعرف ما نصلي من أجله الا أن الروح نفسه يصلي من أجلنا... »

(رو ٨:٢٦). بحسب آباء الكنيسة هذا يعني ان الروح يعلمنا ما نصلي من أجله.

انظر اذاً وعاين اذا كانت الكنيسة في احتفالاتها الكثيرة وصلواتها، تطلب اكثر مما ذُكر. لن تجد شيئاً. لنطلب غفران الخطايا للأبرياء كما لو كانوا مذنبين ومديونين. لنصلِّ من أجل القديسين ليستريحوا مع القديسين كما لو لم يتقدسوا بعد. ولنطلب أن يكون الكاملون كاملين، كما لو لم يكونوا هكذا حقاً. بشكل أو بآخر هم على خطأ. وسواء اعترفوا بقدسية القديسين وكمالهم،أم لم يعترفوا، فإنهم عن سابق تصميم يكلّمون الله مقدمين صلوات لا تنفع نيابة عنهم. الأمر الذي يشبه اناساً يعبثون بالالهيات اكثر من العبث مع الكهنة. او انهم يتممون صلواتهم بكل جدية ووقار ظانين انهم يساعدون القديسين فينكرون مجدهم. وهذا إهانة لا لهم، بل لله على حنثه بوعوده التي وعد بها، أي منحهم مكاناً في ملكوته. وبالأحرى هناك تجديف مزدوج: فمن الناحية الأولى، يُنكر هؤلاء الناس قداسة القديسين بالكلية. ومن الناحية الثانية يسلكون كما لو كانوا قد انكروها. فما داموا يطلبون الأشياء ذاتها للإثنين،فهم يضعون على مستوى واحد الذين يؤمنون على انهم في حالة القدسية. هؤلاء الذين يدعون ان لهم مكانة بين الأبناء وانهم ورثة الملكوت، يضعونهم مع الذين لم يتقبلوا بعد مكافآتهم وهم بلا كرامة وما يزالون مديونين.

لذا عندما نراعي كل الحقائق، فمن السخف الاعتقاد ان التقدمة التي تصنعها الكنيسة لله نيابة عن القديسين،هي تقدمة ابتهالية.

لنرَ الكلمات ذاتها: « ونحن نقدم لك هذه الذبيحة الروحية (UΠEP)[1] من أجل الذين يستريحون بإيمان من آبائنا وأجدادنا والأنبياء

---

١ ـــ سبق ان اشرنا ان كاباسيلاس يعالج لفظة (UΠeP) في هذا النص. UΠeP « من اجل » اليونانية ذات معانٍ عديدة. معناها هنا هو كما شرحه بالاماس، وان اسهب جداً في المعالجة.

والرسل والمبشرين والكارزين والشهداء والمعترفين والمتبتلين وكل روح صديق توفي بايمان. وخاصة من أجل الكلية القداسة... ويوحنا المعمدان النبي السابق... » (راجع بهذا الصدد القنداق). فهذه الكلمات لا تحتوي صلاة الى الله بالنيابة عن القديسين. والكاهن لا ينطق بالطلبات من أجلهم. لكن عندما يذكر باقي المؤمنين الراقدين، يضيف صلاة لهم: « اجعلهم يستريحون حيث يضيء نور وجهك ». والعكس هو الحال مع القديسين. فهو لا يشفع من أجلهم، بل يسألهم ان يتشفعوا من أجلنا. الا يقول بعد ذكر القديسين: « تلطّف بشفاعتهم وانظر الينا » ؟

والدليل الأكثر اقناعاً على ان هذه الكلمات ليست صلاة او ابتهالاً، بل عمل شكر من أجل القديسين، هو وجود اسم والدة الاله في هذه القائمة. ما كانت لتُذكر اذا كان هذا الحشد من الناس بحاجة الى شفاعة. فهي ليست فقط فوق كل وساطة انسانية بل فوق المرتبة الملائكية أيضاً اذ هي أطهر وأقدس من كل الأرواح[1].

لكن قد تقول: المسيح نفسه يقدم هذه الذبيحة. أيكون غريباً لو تشفع من أجل القديسين ومن أجل امه؟ هذا غير مقبول قطعاً. ليست هذه طريقة المسيح في التشفع. هو وسيط بين الله والناس لا بكلماته وصلواته، بل بنفسه، لأنه اله وانسان معاً، فيه جمع الاثنين، جاعلاً نفسه مركزاً لهما. والتفكير بأن شفاعته تتم دائماً عبر الصلوات الليتورجية، هو تجديف وجنون.

وان صح ان المسيح يتمم الذبيحة، الا انه لا يمكننا ان ننسب اليه كل ما يقال ويعمل في الليتورجية، فهو وحده يتمم عمل الليتورجيا الخاص، وغايتها، أعني تقديس القرابين وتقديس المؤمنين. الا ان الصلوات والابتهالات والطلبات التي تحيط بهذه الاحتفالات هي من عمل الكاهن.

---

١ ــ والدة الاله في الفن البيزنطي تسمى الأرحب من السموات (Plate tete ton ouranon) .

الأولى هي أعمال الرب، والباقية هي عمل الخدام. اللاحق يصلي، بينما السابق يجيب على الصلاة. المخلص يعطي، والكاهن يرفع الشكر على ما قد أعطي. الكاهن يقدم، والرب يقبل التقدمة. صحيح ان ربنا يقدم أيضاً، الا أنه يُقدم نفسه للآب. وأيضاً يقدم التقدمات،بعد أن تكون قد أصبحت جسده ودمه. وبما أنه يقدم نفسه فهو يُدْعى المقدِّمَ، والمقدَّمَ ومتقبِّل التقدمة. كإله هو المقدِّم والمتقبّل، وكإنسان هو التقدمة. لكن في ما يختص بالخبز والخمر عندما يكونان مجرد تقدمة، فالكاهن هو الذي يقدمهما والرب يتقبلهما[1].

ماذا يفعل عندما يتقبلها؟ يقدسها محولاً اياها الى جسده ودمه، وهذا يعني تماماً القبول بموجب ما قيل آنفاً. انه يعني الإلفة. بهذه الطريقة يكمل المسيح هذه الليتورجيا، وفي هذا يكمن كهنوته.

إذاً اذا ادرك المرء (بعيداً عما ذكرنا) ان صلوات الليتورجيا هي للمسيح وملك له، فلا يختلف في هذا عن الأشرار الذين تجاسروا ان يُنقصوا من مجده. واذا ما قرأت الصلوات من البداية الى النهاية، وجدتها في لغة العبيد وكلماتهم. اقرأ تذكار القديسين التي يتجاسرون[2] ان ينسبوها الى المسيح، فلن تجد شيئاً يليق بالابن المساوي للآب في الكرامة. بل كلها كلمات الخدام.

بادىء ذي بدء، لا يصدر الشكر عن الشخص الفرد، بل يصدر الشكر عن كل جنسنا. فالشاكرون هم اناس قد خطئوا الا أن صلاح الله ورحمته لم يرذلاهم بعد. وهم لا يشكرون الآب فقط بل الابن والروح القدس

---

١ — كاباسيلاس خلقيدوني أصيل يؤمن بالله وبالانسان، فيقول بتعاون ارادتيهما، بالعمل معاً. وهذا يسمى Synergy.

٢ — بالاماس متضايق جداً من متفذلكين معاصرين له، فاحتل الجدل معهم قسماً كبيراً من هذا الكتاب الثمين، بدون طائل كبير.

أيضاً. أضف الى ذلك انهم يذكرون ام الله كما يفعل الخدام امام ملكتهم. ويسألون ان ينالوا دعم الله وحضوره من خلال شفاعتها وشفاعة القديسين.

ما المشترك بين الرب وتلك؟ بين ابن الله الوحيد العديم الخطأ ورب الجميع؟ يقول: « نشكرك وابنك الوحيد ». اذاً المسيح يشكر ابن الله الوحيد. هل يعني هذا ان هناك ابنين كما زعم نسطوريوس؟ ان هذا يظهر كم هو فاسد وطائش التفكير بان المسيح يتوسط ويتشفع نيابة عن القديسين ناسباً الى نفسه مثل هذه الشفاعة والوساطة.

لقد اظهرنا ان هذا ليس في الحقيقة معنى النص الليتورجي. « حسناً » قد تقول. الا أنها أي الكلمات تحمل شيئاً من الابتهال، حرف الجر (UПÉP) (من أجل) له هذا المعنى؟ بالطبع لا. فهي لا تعني الابتهال دائماً. فنحن نستعملها لا فقط عندما نطلب شيئاً، بل أيضاً عندما نشكر. وهذا نلاحظه في امثلة عدة ولا سيما في الصلاة الحاضرة: « من أجل كل هذه نشكرك وابنك الوحيد وروحك القدوس ». « من أجل ما نعرفه وما لا نعرفه نشكرك... ». يمكنك ان تلاحظ ان كلمة أو عبارة « من أجل » تستعمل هنا للشكر. لذا فالذين يخطئون في هذه النقطة لا يمكنهم تقديم أي عذر.

من الواضح ان تذكار القديسين يستحيل ان يكون ابتهالياً. والدليل على ذلك هو انه ينبغي ان يكون تذكاراً شكرياً. فينبغي له أن يكون هذا او ذاك. ثمة طريقتان بهما يمكننا أن نذكر امام الله الخيرات التي تصلنا منه. اما لأننا تسلمناها او لكي نتسلمها.

فالثانية ابتهالية والأولى شكرية[1]. واليكم برهاناً آخر هو التالي: قداسة القديسين هي أعظم عطايا الله للانسان، والكنيسة تُضحي شريرة

---

١ ــ أي نشكره على ما قلناه ونبتهل اليه لكي نحظى بما لم ننله بعد.

وجاحدة إن لم تشكره عليها. هل اعني ان كمال القديسين هو عطيته الكبرى؟ انها كل عطية. لأن طغمة القديسين هي تمام الخيرات التي منحها لجنسنا وثمرتها بآن. فمن اجلها صنع السماء والأرض وكل العالم المخلوق، الفردوس، الأنبياء. الاله المتجسد نفسه،وتعاليمه وأعماله وآلامه وموته، كل هذه كانت تبغي هدفاً واحداً، الا وهو ان ينهض الانسان من الأرض الى السماء ليرث الملكوت السماوي[1].

فإذا كانت الليتورجية بحق تحوي شكراً، واذا كانت التقدمات المقدسة، بعد ان تمت، شكرية وابتهالية في آن معاً، فانه لأمر اساسي ان يكون كمال القديسين هو الدافع والسبب وراء كل شكر.

أليست استجابة ما قد ابتهلنا من أجله، هي نبع شكر فينا؟ هذا واضح لا محالة. لذا كان ما نصلي.من أجله وما نشكر من أجله،هو الأمر نفسه. والآن من اجل ماذا تصلي الكنيسة؟

انها تصلي من أجل ما طلبه الله منها، أي من أجل ملكوت السموات. وتصلي كي يرثه المؤمنون وكي يصبحوا قديسين، كما ان الذي دعاهم هو قدوس. الكنيسة تصلي من أجل أن يكون المؤمنون كاملين في القداسة. وهكذا فمن اللائق ان نرفع الشكر من أجل القديسين المتكمّلين، الى ذاك الذي قدّسهم، وبسبب الليتورجيا المقدسة لأنه، وان لم نذكر خيرات أخرى كثيرة،الا أن القديسين هم غاية الكل، وبسببهم نحن نسأل من أجل كل الأمور الأخرى، حتى ان الكنيسة ترفع الشكر من أجل كل شيء فيكون دائماً من أجل كمال القديسين، ومن أجلهم ترفع الشكر. كل ما عمله الرب، قد أتمّه لكي تتوطد جماعة القديسين. والكنيسة عندما ترفع الشكر، تتذكر جماعة القديسين. لأجل هذا، عندما أسس

---

١ ــ كاباسيلاس وضع الانسان ومصيره في قلب الكون. فكان حتى التجسد الالهي من أجله.

ربنا ومخلصنا هذا السر المقدس، رفع الشكر لله، لأنه بالشكر كان سيفتح لنا أبواب الملكوت ويجمع طغمة الأبكار[1].

والكنيسة اذ تحذو حذوه، تقدم عطاياها بشكر وابتهال. وهذا تؤكده في مواضع عدة ولا سيما في طول وعرض خدمة صلاة الذبيحة.

وبعد ان تسمي كل الخيرات التي منحنا اياها الله وترفع الشكر بسببها، نراها تتكلم عن مجيء الرب بالجسد وعن تأسيس هذا السر وعن وصيته « اصنعوا هذا »، ثم تضيف: « وبعد ان تتذكر كل هذا وكل ما جرى من أجلنا... » تتكلم عن كل ما حصل بعد الصلب وتقول: « ونحن نقدم لك مما لك... ونصلي اليك يا الهنا... ».

أترى تقول الكنيسة: « ونصنع هذا القربان تذكاراً لأحساناتك »؟ بالطبع هذا شكر، وذلك لكي نكرم، بتقدماتنا الطاهرة، المحسن الينا عوضاً عن الخيرات التي منحنا اياها. ثم تعبر عن شكرها بوضوح اكثر قائلة: « ونحن اذ نقدم، هذا القربان نسبحك ونباركك ونشكرك يا الهنا... »[2].

هذه اذاً هي غاية تقديم القرابين الطاهرة: التسبيح والشكر والابتهال كما بيّنا في البداية. لذا فالذبيحة هي شكرية وابتهالية معاً. ونحن اذ نصنع هذا ــ على ما تقول الكنيسة ــ نتذكر أمرين: امر الهنا عندما قال: « اصنعوا هذا لذكري ». والثاني، هو، كل ما صنعه وعمله من أجلنا.

ان مجرد ذكر الخيرات الممنوحة لنا، يحدونا الى القيام بعمل ما مقابل، والى تقديم شيء ما على الأقل، الى ذاك الذي اغدق علينا نعماً كثيرة. وكل شيء يضحي جلياً عندما نتذكر امره، والسبيل الذي به ينبغي ان نصنع المقابل، وأيضاً، العطايا التي ينبغي ان نقدم، ونحن نقدم لك نفس

---

١ ــ عبرانيين ١٢:٢٣.

٢ ــ أي « اياك نسبح، اياك... ».

التقدمة التي قدمها لك ابنك الوحيد، لأنك ابوه. ونشكرك عند تقديمها، لأنه رفع الشكر أيضاً. ونحن في تقديم العطايا،لا نأتي بشيء من عندنا. لأن العطايا ليست منا بل منك يا خالق الكل. فشكل العبادة هذا،ليس هو من ادراكنا، اذ نحن لم نتخيله أيضاً. كما اننا لم نأت اليه بسبب اتفاقنا، بل انت علّمتنا وشجعتنا عليه، في ابنك الوحيد. لأجل هذا فإن ما نقدمه لك من التي اعطيتنا، هو ابداً وفي الكل، لك وحدك فقط.

وهكذا فنحن مدينون لله بشكر آخر من أجل الذبيحة الشكرية ذاتها ما دام انه لا شيء فيها منا، بل الكل هبة منه[1]، وهو قد أحب ان يكون الأمر هكذا وانجزه. انه هو الذي يفعل فينا كما يقول الرسول. لهذا نقول في القداس: « ونشكرك من أجل هذه الذبيحة التي تقبلتها من ايدينا ».

كل هذا يُثبت ان تذكار القديسين في القداس ليس هو صلاة الى الله نيابة عنهم، بل هو فعل الشكر[2].

لنرَ كم من مرة يُذكرُ القديسون في القداس الالهي،وأين تحصل هذه التذكارات؟ تذكارهم يحصل مرتين: اولاً في البداية عند تكريس القرابين، وثانياً بعد ذبحها.

والتقدمة ذات وجهين: الوجه الأول هو الخبز والخمر كهبات بسيطة كما أسلفنا، والثاني تقديمها كذبيحة. لذا من الضروري ذكر الذين على شرفهم ومن اجلهم تقدم الذبيحة، في كل مناسبة.

في التذكار الأول يقول الكاهن: « لتذكار ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ». وفي الثاني « بعد ذكرنا ما قد تم من أجلنا الصليب... ».

---

١ — يعود في هذا النص الى الوراء الى الفقرة السابقة على استدعاء الروح القدس: « التي لك مما لك نقدمها لك... ».

٢ — يبدو أن الجدل على هذه النقطة كان حامي الوطيس أيام كاباسيلاس.

الصليب والأمور الأخرى المذكورة،هنا يشار اليها بتذكار الرب في الحالة الأولى. فالكاهن يمثل المسيح في التقدمة الأولى، ليس كصانع عجائب، بل كمصلوب ومائت كما أشرنا عندما كنا نبحث في ذلك.

وبالمثل، فالكاهن يقول في التقدمة الأولى: « لإكرام البتول الكلية القداسة وشفاعة القديسين ». وفي الثاني « بعد ذكرنا جميع القديسين ولا سيما البتول... » (وخاصة من أجل...). لقد أصدر صدارتها وتقدمها اذ جعلها على رأس الآخرين في التقدمة الأولى عندما أدخل كلمة « وخاصة » في الثانية (EXERETOS)[1].

في التقدمة الأولى يذكر الكاهن، بعد القديسين، من هم بحاجة الى الرحمة والذين من اجلهم يصلي، أي الاحياء والأموات. والشيء نفسه في التقدمة الثانية.

لكن هناك فرقاً: في الحالة الثانية يسمي الكاهن التقدمة اذ يقول: ونحن اذ نقدم لك هذه العبادة الناطقة مقدمين لك مما لك، ونسبحك، وبعد ذلك، يذكر اسباب التقديم واضعاً اياها اما في البداية او في النهاية وذلك بذكر آلام المخلص وذكر القديسين وخلاصهم، لأنهم بحاجة الى الخلاص.

في الحالة الأولى يعطينا اسباب التقديم اذ يقول: « لتذكار الرب ولإكرام الكلية القداسة » وباقي العبارة التي فيها يذكر الذين من أجلهم يرفع الشكر والذين من أجلهم يصلي. الا انه لا يذكر التقدمة نفسها. لماذا؟ السبب انه لا حاجة الى ذلك هنا. هو يظهر ما هي التقدمة عندما يتناول قطعة من الخبز ويكرسها لله.

وفي الحالة الثانية، على كل حال، فالكاهن لا يقوم بأي عمل. فالتقدمة

---

١ ــ سبق لنا ان عالجنا الأمر في حاشية.

تتم على نحو غير منظور. والنعمة تجعل الذبيحة غير منظورة عبر الصلوات التقديسية التي يرفعها الكاهن. لذا من الضروري التعبير بالكلام عن هذه التقدمة غير المنظورة.

لنفس السبب يدعو التقدمة ذبيحة عقلية، أي لأنه نفسه لا يعمل شيئاً. بل فقط يقوم بعمل التقديم باستعماله كلمات التقديس.

في الحقيقة ان التقدمة الأولى هي أمر يمكن للإنسان ان يقوم به. فالكاهن عندما عمل ذلك، كان عمله نوعاً من خدمة فعلية (عبادة فعلية)[1]. الا أن الثانية، تحويل القرابين الى الجسد والدم الطاهرين، التي هي الذبيحة الحقيقية، هو فوق قدرة الانسان، وتحصل بالنعمة، اما الكاهن، فيصلي فقط. وبالتالي فالذبيحة هي بحقٍ فعلٌ وحقيقة. وما دام الكاهن لا يقوم بشيء بل يلفظ الكلمات فقط، فهو يصفها لا فقط كعبادة فعلية بل كعبادة عقلية[2].

ثمة سؤال آخر ينبغي مراعاته. طالما ان الذبيحة شكرية وابتهالية لماذا لا تحمل الاسمين معاً؟ لماذا تسمى ببساطة « افخارستيا »؟

السبب هو انها تأخذ اسمها من العنصر الأكثر أهمية. ان الأسباب التي تدعونا الى الشكر هي اكثر من الأسباب التي تدعونا الى الابتهال والتضرع (Deïsis). لأن عدد الخيرات التي تسلّمناها، يفوق تلك التي نحتاج اليها. فاللاحقة هي مجرد جزء، والسابقة هي الكل. إن الخيرات التي نطلبها، هي جزء مما قد حصلنا عليه في الحقيقة.

---

١ ــ أي قام فيها بافعال وحركات على المذبح في « خدمة الذبيحة ».

٢ ــ بولس قال (رومية ١٢:١) كل المؤمنين ذوو رتبة كهنوتية لتقديم نفوسهم ذبائح لله. ما مرّ معنا عن إيداع بعضنا بعضاً (الفصل ١٤) هو عمل من أعمال كهنوت جميع المؤمنين.

وما دامت امور الله هي المعنية، فنحن قد أخذنا منه كل شيء[1]. ليس هناك شيء ما،لم يهبه لنا. وبعضها (أي الخيرات)،لم يحن الوقت كي نتمته بها، أعني عدم فساد الجسد، والخلود، وملكوت السموات. واخرى أيضاً لا نحتفظ بها عندما نتسلمها، أعني غفران الخطايا ونِعَمَ وبركات اسرارية اخرى. بعضها فقدناه بسبب سوء استعمالنا له، وذلك لئلا نصبح في حالة اردأ، كالراحة والصحة والثروات التي جعلناها أدوات للشر، والمتعة الأثيمة، وربما حرمنا منها كأيوب ناظرين الى ما هو أعظم.

من هذا يتضح ان ليس الله هو الذي يجعل الابتهال ضرورياً، بل نحن. لقد هيأنا فقط بسببٍ للشكر، لكننا بضعفنا جعلنا أنفسنا في فقر. لهذا فالابتهال ضروري.

ما الذي نطلبه؟ هل نطلب غفران الخطايا؟ الا اننا قد نلنا هذا بوفرة في المعمودية وبدون أي جهد من جهتنا. فلماذا نطلب (غفرانها) من جديد؟ لأننا قد اصبحنا مذنبين من جديد ومديونين بخطايانا. ونحن سبب الذنب[2]. لهذا نحن سبب التضرع، والابتهال.

وأيضاً نسأل ان نصبح ورثة الملكوت. الآن وقد أعطي لنا ميراث الملكوت لأننا قد اصبحنا اولاد الله، قلب الملكوت، ومن يرث الملكوت سوى الأبناء؟ وماذا يخسر الوريث من خيرات أبيه؟ لا شيء. اذاً لماذا نطلب ما قد اعطي لنا؟ لأننا عدنا،بعد أن وَلَدَنا الله وارتفعنا الى مثل هذا الشرف ــ فسلكنا على نحو معاكس للابن المُتبنَّى ــ وهكذا، تحولنا

---

١ ــ قال يسوع: « اطلبوا أولاً ملكوت الله... » (متى ٦:٣٣). وأمام فيض مراحم الله، لا يليق بنا ان نكون كأهل الطمع والشراهة فاغرين أفواهنا نهمين. الشكر أولى بنا. وأبونا السماوي يعرف حاجاتنا قبل ان نسأله. ذهولنا به ينطق السنتنا بالتسبيح بحمده اكثر من التماس الخبز كما فعل اليهود (يوحنا ٦:٣٤).

٢ ــ فالذنب ذنبنا.

من ابناء الى عبيد اشرار. لهذا نحن نرتجي الملكوت الذي فقدناه وصار غريباً وبعيداً عنا. وبالتالي فنحن انفسنا سبب التضرع والابتهال.

وما دامت الأمور العالمية هي المعنية، فقد قال ربنا: « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وتلك كلها تزاد لكم ». (متى ٦:٣٣). وعلّمنا أيضاً بأن لا نهتم بما نأكل او بما نشرب لأن ابانا السماوي يعلم ما نحن بحاجة اليه. (متى ٦:٢٥ ــ ٣٢ ولوقا ١٢:٢٢ ــ ٣١). لكن عندما تعوزنا هذه، نطلب هذا بسبب كسلنا وعدم ايماننا وبسبب عدم حفظ الوصايا المتعلقة بها. وهكذا بمقدار الحاجة يكون التضرع. هذه مهمتنا. واما من جهة عناية الله ومحبته، كما هو حال أيوب، فذلك لنجني ما هو أعظم واثمن. عندئذ فإن هذا الفقر أمر يتعلق بالله وليس هذا بسبب تضرع او ابتهال إنما بسبب شكر وتسبيح كما قال أيوب: « ليكن اسم الرب مباركاً... » (أيوب ١:٢١).

ويمكنك ان ترى ان العطايا التي يهبها الله لنا تقود الى الحمد والشكر فقط. نحن سبب الطلب والابتهال. وهكذا فإن كل الخيرات المادية والروحية التي تصلنا اثناء اتصالنا بالله، نذكرها بشكر، سواء كنا نمتلكها ام لا. فهو قد منح مرة والى الأبد ولم يبعد عنا شيئاً وقد ادرك القديس بولس هذا عندما كتب: « افرحوا... وفي كل شيء... » (١ تسا ٥:١٦ ــ ١٨).

وبالنتيجة كان من اللائق ان نسمي أحاديثنا العميقة والصافية مع الله شكراً، أعني سر المناولة الذي فيه لا نذكر أية نعمة خاصة، بل نتكلم بعبارات عامة عن الخيرات الممنوحة لنا من لدن الله، تلك التي عندنا والتي لم ننلها بعد. وكان حقاً أن يؤخذ الأسم من جود الله اللامتناهي ليس بسبب ابتهالاتنا التي هي بسبب تعاستنا،بل بسبب إحسانات الله الينا. ولا من فقرنا،بل من غنى ذاك وجوده.

إنه لصحيح اننا في الذبيحة المقدسة نرفع الابتهال والشكر الى الله لكن الشكر هو شأن الله،والابتهال،هو نتيجة ضعفنا. الشكر ينتمي الى مجال أوسع من مجال الابتهال. إنه ينتمي الى كل شيء. بينما الابتهال ينشغل بالبعض فقط. لهذا سمي السر (شكراً). أي افخارستيا. فهو يأخذ اسمه من العناصر الأعظم والأهم. وبالصورة نفسها، الإنسان ــ رغم اشتراكه على نحو ما في طبيعة الحيوانات ويسمى « حيواناً عاقلاً » ــ آخذاً اسمه من القسم الأنبل والأهم في طبيعته.

وسبب آخر أخير، هو أن ربنا يسوع المسيح الذي أسس السر لم يتوسل الى الآب عندما فعل ذلك بل شكره[1]. هكذا فالكنيسة التي تسلمته منه، قد دعته افخارستيا (أي شكر). وكفانا درساً لهذه المسألة.

---

١ ــ « أخذ خبزاً وشكر » (لوقا ١٩:٢٢) « وبارك » (متى ٢٦:٢٦) « وأخذ الكأس وشكر » (متى ٢٧:٢٦) انظر (لوقا ١٧:٢٢ ويوحنا ١١:٦). هذا السبب سبب قوي للتسمية لأنه يعتمد على الانجيل نفسه، الذبيحة ذبيحة شكر لله. وأي شيء يستدعي الشكر أكثر من ذبيحة يسوع المدفوع الينا في القربان طعاماً وشراباً؟

الشكر والصلوات الختامية
الشكر بعد المناولة ثم الصلوات الختامية

ثم ان الكاهن يدعو جميع الذين قد تناولوا لأن يشكروا الله ويشكروه بحماس، لا من باب الواجب الثقيل، وهذا هو معنى الصرخة « لننتصب »[1] التي تعني انهم يجب ان يكونوا منتصبين لا مائلين أو جالسين،في راحة،بل رافعين الى الله نفوسهم وأجسادهم. وبعد أن يدعوهم الى تقديم الطلبات الأخرى في الصلاة الى الله، يغادر الهيكل ويقف أمام الأبواب ويتلو صلاة بالنيابة عن جميع الحاضرين[2] وبعد اتمام الذبيحة والإعلان الختامي والاحتفالات المقدسة ينبغي ان نلاحظ كيف ينهي الكاهن اتصاله بالله، وبالتدريج يهبط من هذه الارتفاعات للكلام مع الناس. ويفعل ذلك وهو يصلي. وطريقة الصلاة ومكان الصلاة تظهره نازلاً.

اولاً في الهيكل يوجه نفسه الى الله ويصلي بالنيابة عن نفسه. ثم يغادر الهيكل ويقف في الوسط أمام الرعية[3] ويقول بصوت مرتفع يسمعه

---

١ ــ الترجمة العربية تقول: « اذ قد تناولنا مستقيمين أسرار المسيح... » الترجمة الصحيحة هي : « لننتصب (واقفين). اذ قد تناولنا... ».

٢ ــ يقف امام إيقونة يسوع ويقول: « خلص يا رب شعبك... ».

٣ ــ أمام صورة السيد.

الجميع (صلاة التضرع المشترك عن الكنيسة وعن المؤمنين كافة)[1]. ثم تقطع الخبزة التي قدمت والتي منها أخذ الحمل المقدس، إلى قطع صغيرة وتعطى للمؤمنين اذ تقدست بتكريسها وتقديمها لله[2]. ويتناولها المؤمنون بورع وهم يقبلون اليد التي منذ عهد قريب لامست جسد ربنا يسوع المسيح الكلي القداسة[3]. اليد التي بعد أن تقدست يمكنها أن تنقل هذا التقديس الى الذين يلمسونها. ويمجدونه لأنه أصل هذه البركات وهو الذي يوزعها. وهذا التمجيد مأخوذ من الكتاب المقدس « ليكن اسم الرب مباركاً... » وما الى ذلك (أيوب ١:٢١).

وهذا يُعلن مرات عدة. ثم ينشدون مزموراً يعبر على نحو خاص عن تسبيح وشكر. ما هو هذا المزمور ؟ إنه مزمور (٣٤) « ابارك الرب في كل وقت... ». وبعد توزيع الخبز، وبعد المزمور، يتلو الكاهن الصلاة الأخيرة أمام الناس. وهذه الصلاة لا تقال فقط خارج الهيكل وبشكل يسمعه الكل، بل ان كلمات الصلاة توجه مباشرة الى الجماعة المصلية مظهرة المدى المتزايد الذي يسعى الكاهن الى تحقيقه بينه وبين الناس.

ما هي هذه الصلاة؟ انها ان نخلص بحصولنا على الرحمة، لأنه ليس لنا من انفسنا، ما يعطينا الخلاص، بل نتطلع الى من يحب الناس ويقدر على تخليصهم. لذلك عند هذه النقطة، يذكر شفعاء كثيرين قادرين على مساعدتنا، ولا سيما والدة الاله الإناء الذي به جاءتنا الرحمة. ونهاية الصلاة هي:

« المسيح الهنا الحقيقي... »

ليس هناك بعد الآن سؤال عن الآلهة الكاذبة، (أنصاف الآلهة) الذين عبدناهم مرة بأعداد كثيرة، بل هو الهنا الحقيقي الذي وجدناه بعد

---

١ — « خلّص يا رب شعبك.. ».

٢ — أي البروتي. بروتي لفظة يونانية تعني « الاولى ».انتيذورو

٣ — أي يد الكاهن.

جهادات عظيمة. لذا نحن ندين بالمجد والكرامة والعبادة له وحده فقط بما أنه الله، مع أبيه الأزلي وروحه الكلي القداسة الصالح والمحيي الآن وكل أوان والى دهر الداهرين. آمين.

اعداد الأب منيف حمصي

اسئلة تتصل بالقداس الالهي

سؤال:

ما هي غاية سر المناولة؟

غاية سر المناولة « الافخارستيا » هي ان يتحد الانسان بالله من جديد بعد سقطة الجدين الأولين، وذلك لكي ينطلق تدريجياً في الكمالات الروحية بغية العيش مع الله.

والرب في حكمته اللامتناهية، ومحبته الفائقة الوصف، جعل للانسان سبلاً عدة لاسترجاعه الى الحظيرة الأبوية. اولاً، وجّه الانسان بالشرائع، بالناموس، بالوصايا، بالذبائح، بالفروض، فكان يزرع في خليقته، عبر الأنبياء وجميع اللاهجين باسمه، مشيئته وقصده والتي هي غاية مساعيه نحونا. لكن يبدو ان الانسانية ما اكتفت بدور الانبياء والناموس، فجميع هذه قد قصّرت ووهنت امام عمق الخطيئة المستشرية في نفوسنا والمتجذرة في أعماق كياننا. فدواء الخطيئة كان فوق قدرة الأنبياء. وهكذا نسمع الكتاب الالهي يقول بأنه لما حان ملء الزمان ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة... وكل ذلك لكي يقدم الدواء الناجع ضد الخطيئة. وانحراف الانسان عن الله ما كان من الممكن ان يزول بدون تدخل الله. هذه كانت خبرة البشرية المتمرغة في اوجاعها وآلامها. والخطيئة وحدها تفسر لنا

سبب نزول الرب الينا. ان احتجاب الله، بيّن عجز الأنبياء والأديان. هذا ما ادركه الأنبياء انفسهم. من هنا كانت عيونهم ترنو الى الخلاص الحاصل في عمانوئيل (الله معنا). وأشعيا خص عمانوئيل جزءاً من سفره وتحدث عن العذراء التي منها سيأتي عمانوئيل.

من هنا يمكننا القول ان المناولة هي استمرار حضور الرب في حياتنا. ومن جهة ثانية، هي اصرار النفس على خلاصها بالمسيح ربها، فهو وحده الطبيب والشافي.

سؤال:

لماذا يكون اتمام السر بالخبز والخمر وليس بأية مادة منتجة أخرى؟

القدماء قدموا لله باكورة غلالهم ومحاصيلهم واغنامهم وقطعانهم ومواشيهم وما إلى ذلك. وها نحن نخصص لله باكورة حياتنا التي هي من القوت البشري. فالخبز يمثل الحياة: الحياة تبقى بفعل الخبز. رغم قول الكتاب المقدس « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله». وعندنا، برهاناً على ذلك، حادثة اقامة الصبية من الموت. فالرب بعد أن أنهضها طلب أن يُعطى لها لتأكل وذلك لكي يبرهن على حضور الحياة بالطعام. لذا من البديهي ان يكون الطعام باكورة الحياة الانسانية نفسها. فالتغذية امر تشترك فيه كل الخلائق الحية.

لكن الخبز محصور بالانسان فقط دون سواه. كذلك فإن الخمر هو نتاج بشري صرف لا ينتجه غير الانسان. لماذا اذاً نقدم الخبز والخمر؟

الله قدم نفسه من أجل حياة العالم، فهل نقدم له نحن خبزاً وخمراً مقابل صنيعه هذا؟ هل نقابل حياة الله بخبز وخمر؟ هل يتساوى الله بالخبز والخمر؟ الله دفع حياته من أجلنا حبا بنا، لذا فمن اللائق ان يكون شكرنا له على مستوى الحياة. وهكذا، لا تكون حياة المسيح مساوية لتقدماتنا لا في الكم ولا في النوع. الا أن الانسان يقدم للرب ما يؤمن حياة الناس.

فحضور الحياة يكون بالطعام. يسوع هو الخبز الحي النازل من السماء، ونحن عرفاناً بالجميل نقدم له لا حياتنا بل ما ينوب عنها ويمثلها. وبالطبع فإن تقدمتنا لا بد أن تشتمل على رفع كل حياتنا اليه عربوناً لمحبته،فهو يريد كياننا (يا بني اعطني قلبك).ويبقى الأمر غريباً. كيف نشتري حياة الله بما ينوب عن حياة الانسان؟ كيف نقتني الخالدات بالزائلات؟ الا أن هذه مسرة الله. فالله يفرح بسعينا رغم صغره ومحدوديته. ترى كيف تكون تقدمتنا عملاً يليق بحبه ؟ الجواب بسيط : عندما نقتدي بموته لنستحق القيامة معه. وكيف نقتدي بموته؟ عندما ندفن حياتنا في الماء كما لو في قبر.

وهكذا فان المؤمن اذ يقدم لله الخبز والخمر باسم البشرية كلها، فإنما يتعهد امام الرب ان تكون حياته لمجد الله فقط، فتكون هذه التقدمة رمزاً للتكريس الأسمى.

سؤال:

التقديس أيجري على خمير أم على فطير ؟

معلوماتنا تبين أن ربنا قد تمم سر الشكر بخبز خمير وليس بخبز فطير. الرب أسس هذا السر قبل فصح اليهود (يوحنا ١٣:١). فاليهود كانوا يستعدون للتعييد للفصح لما تم الحكم على يسوع (يوحنا ١٩:٢٨). لذا فإن سر الشكر تأسس قبل الفصح اليهودي. واليهود يستعملون في العيد فطيراً، من هنا فإن اتمام الشكر لا بد أن يكون قد حصل على خبز خمير. واذا ما درسنا سفر الخروج (١٢:٦ ــ ٨، و١٨ ــ ١٩) فإننا نجد أن اليهود يعيدون للفصح مساء ١٤ نيسان ومن عشية ذلك اليوم يبدأون بأكل الفطير. فعند دخول العيد،يرفع الخمير من البيوت ليحل الفطير مكانه.

ماذا يقول الأنجيليون؟

متى قال: « في اليوم الأول من الفطير... » (١٧:٢٦).
مرقس قال: « في اليوم الأول من الفطير... » (١٢:١٤).
لوقا قال: « وبلغ يوم الفطير... » (٧:٢٢).

لدى قراءة انجيل متى، يتبين لنا أن الرب طلب أن يأكل الفصح قبل حلوله : « زماني قد اقترب وعندك أصنع الفصح ». كذلك متّى ومرقس يشهدان ان اليوم الذي كان فيه يسوع على الصليب كان يوم تهيئة لا يوم عيد (متى ٦٢:١٧) (مرقس ٤٢:١٥). ويوحنا يشهد أن محاكمة يسوع جرت في التهيئة وليس في العيد (١٣:١٩ ــ ١٤). فإذا كان يوم الجمعة تهيئة العيد، فماذا أكل الرب يوم الخميس؟ لا ريب أن الخبز كان خميراً. ويقول الذهبي الفم معلقاً على هذا المقطع: « بلغ يوم الفطير... » تعني أن اليوم كان على الأبواب (راجع Post Nicene fathers تفسير انجيل متى). السؤال الآن: لماذا سمي الخميس أول الفطير؟ من المعلوم ان لليهود عادة وهي أن يعتبروا مساء كل يوم بداية لليوم الذي يليه. فعشية الاربعاء هي اول الخميس، وعشية الخميس هي أول الجمعة. فلما كان ١٥ نيسان يوم سبت الذي كان سبتاً عظيماً (يوحنا ٣١:١٩) وهو أول الفطير. أي ان بدايته هي عشية الجمعة. وهنا لا بد من طرق أمر جديد وهو أن فصح الرب طغى على الفصح اليهودي ومحاه. فالناموس قد زال بورود النعمة. الأمر التالي هو أن العبارة التي استعملت في الكتاب هي artos = خبز خمير. وليس azymos = الخبز الفطير.

ولا بد من القول أيضاً ان ايام الفطير كانت سبعة، فأي نوع من الخبز كان اليهود يأكلون خارج أيام الفطير (أعمال ٤٢:٢ ــ ٤٦). فضلاً عن ذلك، نرى ان الرسل لم يأتوا على التوصية بالفطير ولا بكلمة واحدة (أعمال ٢٣:١٥ ــ ٣٠) وفي هذا الصدد يقول القديس ابيفانيوس في كلامه عن الابيونيين الهراطقة الذين كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية،

وضوحاً: ان عادة الكنيسة ليست أن يأكلوا خبزاً فطيراً (ابيفانيوس هرطقة ١٤:٣٠) (٣٠ ــ ١٦).

واللاتين يعترفون بجواز الخمير والفطير معاً لاتمام السر، الا أنهم لا يستعملون سوى الفطير، كيف ذلك؟.

سؤال:

ما معنى قول الرب « اصنعوا هذا لذكري »؟ (١ كور ٢٦:١١)

ما سبب هذا الطلب وما الغاية منه؟ اعتقد انه دعوة كي لا ننسى احسانه الينا. انه يدعونا الى الجهاد ضد الوحش الروحي العملاق (النسيان). فالبشر ابتكروا وسائل لاحياء ذكرى احبائهم: ابتكروا نصباً تذكارية، اعمدة رخامية هائلة في الحجم والجمال، ابتكروا مهرجانات واجتماعات والعاباً رياضية. وكل هذه ترمي الى غاية واحدة هي تخليد ذكرى الراحلين العظماء والطيبين. والرب عاملنا بالمثل. فهو يعرف ان الناس يطلبون كل العلاجات والأدوية ضد النسيان. فالمدن مزدانة بآثار عظمائها. ونحن أيضا ننقش على تقدماتنا موت الرب الذي حقق نصراً نهائياً يفوق كل انتصارات البشر. انه انتصار على عدو لا نقوى عليه بأشد الأسلحة العصرية فتكاً ودماراً،أعني عدو السلام والمحبة والحرية، ساكب الأوجاع، سيد القلق، محب الفتن، مسبب الآلام، الشيطان.

سؤال:

بعض الارثوذكسيين لا يواظبون على القداس الالهي في الآحاد والأعياد وربما ينقطعون عن الكنيسة لسنوات الا عند الواجب. امثال هؤلاء في حال وفاتهم، هل يدفنون بصلاة ام ماذا؟

في الحقيقة ان مجمعين (ترولو وسرديكا) انشغلا بهذا الموضوع. والكنيسة، ومع كبير الأسف،لم تفرض على ابنائها عقوبات في حال كسلهم

الليتورجي. السبب هو انها فقدت حزمها وجرأتها، وربما يعود فقدان الحزم والجرأة في المواقف التي تتخذها الكنيسة،الى محاولة الكنيسة التكيف مع الوضع الجديد الذي يعيشه ابناؤها،اعني الظروف المختلفة التي يصطبغ بها هذا العصر. والكنيسة، محقة في مواكبتها احوال ابنائها. لكن لا يجوز ان نواكبهم الى درجة التغاضي واللامبالاة.

الأمر نفسه يصح فى مسألة الدفن. فالكنيسة لا تقدر أن تتكلم بدقة لأن ابناءها مسؤولون وغير مسؤولين بآن. الا ان الكنيسة لا يجوز ان تقف مكتوفة الأيدي بل يجب ان تقول الحق والحق فقط. والا فإن التراخي قد يؤول بعد مرحلة تاريخية،الى الدفن بطريقة مغايرة للطريقة الكنسية (راجع للاستزادة كتاب الشرع الكنسي ــ منشورات النور (مجمع تروللو وسرديكا)

سؤال:

اثناء القداس الالهي يتلو الكاهن مزمور التوبة (٥٠) وفيه نسمع العبارة التالية: بالآثام حبل بي وبالخطايا ولدتني امي » ما معنى هذه العبارة؟

بالآثام تم الحبل بي وبالخطايا تمت ولادتي، تعني مسيحياً ان الانسان مجبول بالخطيئة. فهو عندما يولد بالخطيئة، تفعل فيه في اللاوعي. وفعلها يبلغ اليه وهو في بطن امه،بمعنى انه يجبل في الحشا على الضعف والفساد. فالفساد يورث الفساد. وهذا بالطبع لا يعني أن الزواج دنس وان المضجع غير طاهر. فالرب قد بارك الزواج واشترك في قانا الجليل واجترح عجيبة. من هنا نقول بأن لا علاقة للحبل بالخطيئة كما وانه لا علاقة للولادة بالخطيئة. الخطيئة ليست في ان تحبل المرأة. الخطيئة ليست في الولادة. الخطيئة هي في الطبيعة الانسانية.

ثم ان الانسان المعاصر يشترك في خطيئة آدم ليس بمعنى انه نفسه ارتكبها،بل بمعنى انه يشترك مع آدم في ما نتج عن خطيئة آدم. وهذا ما يفسره علم الوراثة (heredity). حيث ان الانسان يأتي الى الوجود ممثلاً بصفات[1] اجداده، فهو يشترك في هذه الصفات وراثياً دون أن يكون مسؤولاً عن اصلها فيه. فنحن نعيش الخطيئة وهي تحيا فينا دون ان نكون مسؤولين عن وجودها فينا، انما نحن مسؤولون عن بقائها. وهنا تكمن المشكلة.

بخطيئة آدم اندسَّ علينا الموت الروحي وكل نتائجه من موت الجسد والفساد والانحلال والبلى والميل الى الخطيئة ودخول الخطيئة الى العالم. ورثنا طبيعة آدم الساقطة : « ليس الجسد الذي يخطأ من تلقاء ذاته بل النفس بواسطة الجسد » (كيرللس الاورشليمي ؛ مين ٣٣:٤٨٤). الخطيئة داء الارادة (الدمشقي مين ٩٥:١٨٤ و ١٦١). هذا يؤيّد رأينا في ص ١٦٣ ــ ١٦٤.

سؤال:

ما الفرق بين الخمر في العرس والخمر في القداس؟

الخمر في العرس هو مجرد خمر لا أكثر ولا أقل. فالعرس انفصل عن خدمة القداس الالهي[2] فالكأس في العرس يشير الى كأس المناولة التي كانت ولا تزال في القداس الالهي. أما الخمر في القداس فهي حتى لحظة ما قبل الاستحالة وحلول الروح القدس، مجرد خمر؛ اما بعد الاستحالة،فيكون قد تحول الى دم السيد. من هنا يظن البعض ان الكأس في العرس هي المناولة. هذا خطأ لا يجوز التمسك به.

---

١ ــ بالعربية تُدعى الصبغيات (Cromosoms)

٢ ــ حصل ذلك في القرن العاشر.

سؤال:

ما معنى رفرفة الأغطية أثناء تلاوة دستور الايمان في القداس الالهي؟

البعض يفسرون رفرفة الأغطية كرمز للزلزلة وتشقق القبور أثناء موت الرب يسوع على الصليب. البعض يقولون ان غطاء الكأس يشير الى حجر القبر الذي تزعزع عندما قام الرب من بين الأموات. الا أن كتاب (تعاليم الرسل) المكتوب في القرن الرابع يطالب الشمامسة بالرفرفة فوق الكأس بهدوء وتأنٍ (الكتاب ٨:١٢). كذلك فإن بطريرك القسطنطينية فيلوثوس يقول بأن الترويح والرفرفة هما بهدف منع الذباب والحشرات الطائرة من الوقوف على القرابين، وان هذه الرفرفة كانت في أيامه تتم بورع كبير. فكانت هناك مراوح خاصة مصنوعة من أقمشة معينة كما هو مبين في كتاب تعاليم الرسل. وفي القديم لم تكن الرفرفة مرتبطة او منوطة بالكاهن، بل كان يقوم بها الشماس من وراء المائدة ومن أطرافها. وكانت عملية الرفرفة تدوم منذ دخول القرابين الى الهيكل بعد الدورة الكبرى الى ساعة المناولة لحظة الخروج بها لمناولة الشعب،وهذا ما يحصل الى الآن في الكنائس السلافية.

لكن لما اضطر الكاهن أن يقيم الخدمة الالهية بمفرده وذلك بسبب الضغوط التي كان يمارسها الاستعمار العثماني، تحجمت الرفرفة زمناً حتى وصلت الى شكلها الحالي فأخذت تتم بالأغطية. يعاون الكاهن فيها شماس اذا كان في القداس شماس. هذا هو تاريخ الرفرفة كما يتبين من المخطوطات والمراجع التاريخية. أما الرفرفة عن طريق صليب خشبي أو معدني، فليس لها أساس في التقليد الارثوذكسي على الاطلاق. وربما ادخلت بسبب ان بركة القرابين كانت على شكل صليب وذلك لكي تكون البركة أفضل وأكمل.

سؤال:

هل يجوز للكاهن مناولة امرأة انجبت لكنها لم تنه الـ ٤٠ يوماً؟

الافخولوجي الصغير (كتاب الصلوات الذي يستخدمه الكاهن)،يحدد فترة اربعين يوماً، وهذا بالطبع مأخوذ عن العهد القديم. والسؤال الآن: هل نناول مثل هذه المرأة ام لا؟ لماذا لا نناولها قبل فترة الـ ٤٠ من ولادتها؟ هل نمنعها من تناول جسد الرب ودمه الكرَيمين لمجرد انها وضعت طفلاً؟ ما العيب الاخلاقي في الولادة؟ أتمنعنا عملية خلق انسان جديد من التقدم من الخالق لشكره على نعمه وخيراته وعطاياه؟ هل نمنعها من المناولة لأنها دنسة كما يقول البعض؟ ما علاقة دنس الخطيئة بحالات بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالطهارة والقداسة أبداً؟ قد يكون بين الرجال من يتقدم من المناولة وهو في كامل عدم الاستعداد للشركة مع الرب والاتحاد به. وفي أفشين يُقال على المرأة الولود، نسمع : « إرحضها من وسخ الجسد ودنس النفس في تمام الأربعين يوماً... » عبارة وسخ الجسد واضحة لكن عبارة وسخ النفس ؟ والرب نفسه قال للمرائين... تكونون من خارج انقياء أما من الداخل فكلكم نجاسة. الرب نفسه لا يربط بين دنس النفس ودنس الجسد، فكيف نجيز لأنفسنا ذلك؟

ورب امرىء يقول: المرأة بعد ولادتها متقلبة داخلياً ومشتتة وضعيفة وغير قادرة على التركيز والانتباه والاصغاء... وهذا في الواقع غير صحيح، ولا يجوز ان صح ذلك أن نجعل من الجزء سبباً للحكم على الكل. هناك اعتبارات طبية تراعيها المرأة، الا انها لا تنقطع عن نشاطاتها الروحية والانسانية والاجتماعية واليومية طوال فترة الأربعين يوماً. ولا سيّما اذا كانت مؤمنة.

ويبقى ان هذا واقع رغم كل ما قيل ويقال.انه واقع يصر عليه سواد الكهنة. وربما يليق بنا حباً بالحقيقة ان نسألهم رأيهم تجاه هذا الأمر

لنعرف منهم حقيقة الموقف. ويبقى السؤال مطروحاً: ما الصحيح لاهوتياً وروحياً؟ هنا لا بد لنا ان نقول مع الرسول بولس: لا شيء يفصلني عن محبة السيد. لا حزن ولا ضيق ولا جوع ولا موت ولا....

سؤال:

في القداس الالهي هل نتلو الافاشين علناً أم في السر؟

الأفشين في اليونانية يعني صلاة[1]، والصلاة لا تنفصل عن سلسلة المعاني التي تؤلف القداس الالهي. فالقداس وحدة متماسكة، سلسلة واحدة متجانسة. حبكة مسرحية من نوع روحي رفيع. لذا فإن كل بتر أو الغاء أو تقطيع أو حذف أو تلاوة غير مسموعة من شأنها أن تؤول الى تشويه في تسلسلية معاني الخدمة والنصّ. مثلاً نرتّل في القداس الالهي «قدوس، قدوس، قدوس... أوصنا في الأعالي». يليها مباشرة خذوا كلوا... فإذا ما اقتطع الافشين أو تُلي سرًّا، أية صلة ستكون بين قدوس... » وخذوا كلوا...؟ إلّا أننا اذا تابعنا الافشين حتى نهايته فاننا سنصل الى عبارة... أعطى تلاميذه الرسل القديسين... خذوا كلوا.. ألاحظتم الفرق بين القراءة الكاملة والقراءة المقتطعة؟ في مطلع الافشين نسمع: «ومع هذه القوات المغبوطة... مَن هي هذه القوات المغبوطة التي يتكلم عنها هنا؟ انها الملائكة التي تردّد ما سمعناه «قدوس قدوس...». من هنا فإن أي الغاء أو حذف، من شأنه أن يلغي جمال المعنى الليتورجي المتسلسل والرائع. كذلك هناك نوع من الأفاشين غير سري إلّا انه يُقال بصوت منخفض (القنداق ــ مسرة، صفحة ١٠٥) كما هو في الافشين التالي : « لكي يكونا للمتناولين... » (راجع القنداق بهذا الصدد). ما مضمون هذا الأفشين ؟. يدور مضمونه حول الآباء والأجداد والرسل والأنبياء... وهو أفشين غير سرّي. وفي الصفحة ١٠٦ من كتاب « قنداق مسرة »، نجد أفشيناً يُتلى

---

١ ــ Proseukhee

سرًّا ومعناه يدور حول المعمدان والرسل والقديس اليومي وجميع القديسين. السؤال الآن: لماذا ذاك الأفشين سرّي بينما هذا غير سرّي ما دام مضمون الأفشينين متشابه كل الشبه؟ ان التلاوة السرّية للأفاشين ليست أمراً لائقاً لما فيها من بتر وتقطيع وتجزئة. انها عمل مستهجن نمارسه في أوصال المعاني الليتورجية السامية. ينبغي أن نتلوها علناً، لكن بتقوى وعلى مسمع جميع المصلين. ولا يجوز أن ننسى أن الأفاشين في حدّ ذاتها مهمة لما فيها من معانٍ رفيعة تكشف لنا ميزة القداس الالهي، وترسم خطوطه والمقاصد منه. لذا فان كل اصرار على سرية الأفاشين، لا مبرّر له ولا معنى. وفي الوقت نفسه هو علامة جمود ولا مبالاة ازاء خدمة رفيعة نحتفل بها. القداس الالهي يُعتبر أجمل خدمة ممسرحة على وجه الأرض، والجمال في هذه الخدمة يستند الى الأفاشين وسواها من أقسام القداس.

سؤال:

متى ولماذا يُغلق الباب الملوكي أثناء القداس الالهي؟

ان اسدال الباب الملوكي لا يرتبط أبداً بمناولة الكاهن. فالبعض يفسّرون اغلاق الباب الملوكي على انه علامة تقوى وخشوع. فالكاهن يكون في حالة تأمل وانخطاف لحظة تناوله جسد الرب ودمه الكريمين. والبعض يقولون بضرورة اغلاق البابا حرصاً منهم على عدم تشتّت الكاهن. إلّا ان هذا مستحيل، لأن انتباه الكاهن غير مرتبط بالباب الملوكي ولا علاقة بين الباب الملوكي ويقظة الكاهن.

ولكن كان لاغلاق الباب في القديم معنى هامّ. فالباب الملوكي يمثّل باب الفردوس الذي وقف به ملاك يحرسه بسيف ملتهب ليمنع آدم وحواء من الدخول. أمّا فتح الباب فهو دلالة على المسيح لما كان على الصليب.

وكيف ان حجاب الهيكل انشقّ من فوق الى أسفل وقام كثيرون من الراقدين (هذا التفسير يؤيّده سمعان التسالونيكي في التفسير ٦ فصل ١٣٣ — ١٣٩). الباب الملوكي يرمز الى الحجاب الذي كان في الهيكل اليهودي (عبر ٧:٩).

في التقليد القديم كان الباب يُغلق بعد دخول القرابين (في الايصودون الكبير). هذا ما يؤكّده سمعان التسالونيكي تفسير ٨٣. ثم يُفتح الباب الملوكي من جديد بعد تلاوة دستور الايمان. في الأديار يُغلق الباب الملوكي بعد دخول القرابين في الايصودون، ويظل مغلقاً حتى الكينونيكون (ترتيلة ما قبل المناولة). والكاهن اذا همّ ببركة المصلين، كان يقوم بذلك والباب مغلق أو انه كان يزيح الستار قليلاً ليباركهم وبعد ذلك يسدل الستار من جديد. وقد اعتاد بعض الكهنة أن يفتحوا الباب أثناء دستور الايمان ويغلقوه عند عبارة « لنشكر الرب » هذا ويعتبر البعض الآخر، ان فتح الباب يشير الى دحرجة الحجر عن قبر السيد. إلّا ان عادة فتح الستار واغلاقه، ما تزال مُتبعة في الكنائس السلافية الى اليوم كما في قداس البروجيازميني. (السابق تقديسه).

سؤال:

في أفشين الشاروبيكون ورد « ارتضِ أن تقدم لك هذه القرابين مني أنا عبدك الخاطىء... ».

نعلم ان الكاهن يكون في هذه اللحظة أمام المائدة وليس أمام المذبح. في مثل هذه الحال تكون كلمات الأفشين في غير محلها ولا سيّما ان القرابين ما تزال على المذبح ولم تُنقل الى المائدة. فالدخول الكبير لم يتمّ بعد. وفي حال اعترض أحد زاعماً ان هذا ليس خطأ، عندئذ فإن مِنَ الواجب القول « ... أن تُقدم لك تلك القرابين... » وليس هذه القرابين. ما تفسير ذلك؟

السؤال منطقي جداً. فالكاهن في تلك اللحظة يكون أمام المائدة لا أمام المذبح. يمكننا، للردّ على هذا السؤال، أن نقول ان كاتب هذا الأفشين يتكلم عموماً عن القرابين دون أن يشير الى مكان جغرافي محدّد. لكن يبقى هذا الكاتب غير موفّق في اختيار العبارة ولا سيّما والكلام يدور حول واحد من أهمّ أفاشين الكنيسة على الاطلاق. لذا لا بدّ من التفتيش عن جواب في موضع آخر.

الأفشين نفسه نجده في قداس الذهبي الفم، وهو نفسه نجده في قداس باسيليوس. لكن يبدو تاريخياً ان هذا الأفشين لا ينتمي الى أحد من هذين القداسين: انه في قداس غريغوريوس في الطقس الاسكندراني. والقداس في الطقس الاسكندراني يتوجّه الى شخص الاقنوم الثاني. (أي يسوع المسيح) كما هو حال سائر أفاشين الطقس الاسكندراني. إلّا ان هذا الأمر لا نجد له أثراً في قداس الطقس البيزنطي.. ما الجواب؟ الجواب هو ان هذا الأفشين، كما هو في الطقس الاسكندراني يُقال بعد أن تكون القرابين قد نُقلت الى المائدة. فالأفشين، هذا، أدخل الى النص البيزنطي، كما هو،دون أن يراعى في ادخاله النطاق والسياق والمعنى. وهذا الجواب يجعلنا نبدأ بالتفتيش عن القرابة التاريخية والتداخل الموجود بين الخدم الالهية المختلفة المعروفة في العالم المسيحي.

سؤال:

ما الفرق بين القربانة المكرّسة والقربانة العادية؟

القربانة المخصّصة للقداس الالهي « لتذكار ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح »، منها يؤخذ الحمل الذي سيتناول منه المؤمنون في نهاية القداس الالهي. لذا فان القربانة التي منها يؤخذ الحمل تُعتبر مقدسة في نهاية الخدمة، هذا ما يؤكّده نيقولا كاباسيلاس في تفسيره للقداس الالهي. الموقف نفسه نجده عند سمعان التسالونيكي (حوار ـــ فصل ١٠٠ ـــ تفسير

١٠١). فالحمل المنتزع من القربانة يمثل المسيح يسوع. والقربانة ذاتها تمثل الجسد البتولي (أي مريم العذراء). السؤال الآن:اذا كانت القربانة مقدسة، هل نستعملها في المناولة في حال كان عدد المتناولين كبيراً جداً؟ بالطبع لا. لأن الخلاص والعتق من الخطايا،أتتنا بيسوع المسيح فقط،فهو وحده بدون عيب،وهو وحده القدوس. ونحن نقول بأن القرابين المكرّسة مقدسة،بمعنى أنها تختلف عن الخبز العادي. لكن في حال كثُر عدد المتناولين، يستعمل القربان المكرّس كبروتي (انديذرون). ماذا نفعل بالبروتي اذا فضلت في نهاية القداس؟ من الأفضل ألا يُترك منها شيء على الرفوف أو عند مداخل الكنائس، وذلك لئلا تسقط على الأرض،لأنها مباركة ومقدسة. يبقى أن نجيب على السؤال التالي: ماذا نفعل في حال كثُر عدد المتناولين وفرغ الكأس؟ لا نستطيع اللجوء الى القربانة بل ينبغي استعمال الذخيرة المقدسة التي توضع داخل الهيكل لمناولة المرضى والمدنفين. لكن لتجنّب مثل هذه الحالات ينبغي على الكاهن أن يكون منتبهاً فيقدّر عدد المصلين قبل المناولة. لكن في أية حال من الأحوال، لا يجوز الاحتكام الى القربانة كحلّ لفراغ الكأس من جسد الرب. وكل مَن يعمل بخلاف ذلك هو مجرم الى جسد المسيح ولا يعرف لا هوت الخدمة الالهية ومبرّر وجودها.

سؤال:

لماذا لا يُسمح بنقل الحمل في القداس السابق تقديسه، من كنيسة الى أخرى بغية اتمام الذبيحة الالهية. بينما يُسمح بنقل الحمل يوم الخميس العظيم من أجل مناولة المرضى؟

في الحقيقة ان نقل الحمل من كنيسة الى أخرى ممنوع حتى ولو كان الهدف اقامة القداس الالهي. فالحمل يقدّس مسبقاً من أجل اقامة قداس الهي في بحر الأسبوع طيلة فترة الصوم الأربعيني المقدس. ولا

ينقل بل يستعمل في الكنيسة التي تقدس فيها. ما هو سبب المنع؟ أولاً لا بد من القول أن مناولة المرضى يمكن أن لا تكون بالضرورة بالقداس السابق تقديسه،لأننا في حالة المرض،نستعمل الذخيرة المحفوظة خصّيصاً لهذا الغرض. إلّا ان هناك أدلّة تاريخية مدوّنة في المخطوطات تشير الى أن المسيحيين القدامى عرفوا القرابين من كنيسة الى أخرى (Codex, 510, Athens). وبالطبع عرفوا أيضاً خروج القرابين من الكنيسة لمناولة المرضى والرهبان والنسّاك. ربما كان سبب نقل القرابين،رهبانياً،أصلاً كما تبين بعض الدراسات الحديثة، اذ ان قداس السابق تقديسه أتانا أصلاً من النظام الرهباني. وكما هو معروف فان هذا القداس مرتبط جذرياً بصلاة الغروب. من هنا فان القداس سيجري في الأديار في الكاثوليكوس (الكاثوليكوس هو الكنيسة المركزية في الدير، اذ نعرف في الأديار الارثوذكسية ان هناك أكثر من كنيسة واحدة في الدير الواحد).فالرهبان ما كانوا ينقلون القرابين الطاهرة من كنيسة الى أخرى،لكنهم كانوا يخرجون بالقربان المقدس لمناولة النسّاك في الجوار. وهذا الجوار قد يعني نقل القرابين من كنيسة الى أخرى في الدير نفسه كما أسلفنا، أو قد يكون بسبب مناولة النسّاك العائشين في أطراف الدير وجواره. هذه الممارسة نعرفها منذ أيام القديسة مريم المصرية وكيف انها كانت تناول جسد الرب ودمه على يد الراهب الكاهن زوسيما. من هنا فان المنع على الأرجح، يرتبط بشيء من الخوف على القرابين في حالة وقوع شيء منها على الأرض قبل وصوله الى المتناولين. والسبب الثاني،حرصاً على الوقار الكامل في التعامل مع القرابين الطاهرة. ويسجّل لنا بعض الكتاب المسيحيين حوادث لا تليق بقدسية القرابين حصلت بسبب لامبالاة حامل القرابين واستخفافه.

سؤال

هل يمكننا أن نناول المرضى جسد الرب ودمه الكريمين في أية ساعة من الليل؟

المناولة ليس لها وقت محدّد. فاذا عدنا الى أيام الرسل نجد ان القداس الالهي كان يُقام في المساء، وبالتالي كانت المناولة عند المساء (أعمال الرسل (٢٠:٧ — ١٠)). واليوم يُقام القداس الالهي عند الصباح. وبالتالي فان المناولة تجري عند الصباح.وفي قداس الفصح تجري المناولة قبيل طلوع الفجر. وفي بعض الكنائس الارثوذكسية في أوربة وأميركا تُقام خدمة القداس الالهي عند الظهر. كذلك في قداس البروجيازميني السابق تقديسه تُقام خدمة القداس الالهي مع صلاة الغروب، وفي برامون الميلاد والظهور والخميس العظيم المقدس والسبت العظيم المقدس أيضاً. فان القداس الالهي يُقام بعد الظهر كون الخدم هذه مرتبطة بصلاة الغروب. وفي جبل أثوس تُقام الخدمة الالهية بعد الظهر أيضاً. من هنا فان المريض الذي يحتضر لا بدّ من أن يأخذ زاد الحياة الأبدية. والكهنة اعتادوا أن يناولوا المرضى جسد الرب ودمه الكريمين من صندوق الذخيرة، اذ ان المريض يتعذّر عليه الاشتراك في الخدمة الالهية والمناولة في نهاية القداس. وهذه المناولة (مناولة المرضى) يمكن أن تحصل في أي وقت كان. في الليل أو في النهار حسب الحاجة الرعائية الحاصلة.

سؤال:

هل نناول الجميع بدون تمييز؟ وهل يمكننا أن نمنع خاطئاً من المناولة وكيف ؟ وهل نناول مَن سبق فطلبنا اليهم التوبة والاعتراف أمام الكاهن لكنهم تقاعسوا؟

ان هذه الأسئلة كلها ترتبط بالكاهن. انها أسئلة صعبة حقاً لأنها ترتبط بمسؤولية الكاهن أمام الله كخادم للسرّ. ولكن قبل الردّ على هذا السؤال، لا بدّ من القول ان لكل رعية وضعها الخاص بها وظروفها التي تنطبق عليها وحدها. والكاهن في كل ظرف وحال، عليه أن يحيي الأسرار. لا يجوز أن تعطى اعتباطياً، لأن مَن يتناول جسد الرب بدون استحقاق،انما

يصنع لنفسه دينونة. وأذكر ان سؤالاً يتعلق بالمناولة المرتجلة طرح أمام مسمعي على راهب اثوسي، فكان جوابه: لا تطرحوا دركم أمام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها (الراهب ثيوكليتس ذيونيسياتو ــ حديث جرى في قاعة المحاضرات في مطرانية الروم في سالونيك، اليونان). والكلام هذا صحيح لا سيّما اذا كان المسيحي هذا لا يقيم وزناً لسرّ المناولة ولا يعرف كيف يتعاطى معه بوقار. ولكي يحلّ الكاهن مثل هذه المشكلات لا بدّ أن يلجأ الى عظات ودروس توضيحية لتبيان كيفية التعاطي للأسف مع هذا السرّ. وهذا بدوره يطرح عليه مشكلة ثانية، وهذه المشكلة هي أمر الرعية التي لا تعرف راعيها، والراعي الذي لا يعرف رعيته بأسمائها. فيسوع علّمنا انه يعرف خرافه بأسمائها وخرافه تعرفه وتسمع صوته وترفض الانصياع للرعاة الغرباء (يوحنا ١٠:١١ ــ ١٧). فلا بدّ حتى تتوفّر المعرفة بين الراعي والرعية، من معرفة على مستوى الأسماء. لا بدّ أيضاً أن يتوقف الكاهن عن اعطاء المناولة كيفما اتفق اعتباطياً. ولا بدّ له أن يدرك أن جسد الرب في الكنيسة الارثوذكسية لا يعطى لأرثوذكسي غير معتمد. ولا يجوز أيضاً أن يناول مسيحي من كنيسة أخرى. لا على أساس روح فئوية طائفية، بل على أساس المبدأ: (وحدة الايمان تؤول الى وحدة الحياة).

في القديم كانت الكنيسة تمنع من المناولة مَن سقطوا في الخطايا، واليوم هذا كله يقع على كاهل الكاهن وهو وحده المسؤول أمام الله عن كل تقصير واستخفاف بالسرّ. ثم ان المزمع أن يتناول جسد الرب ودمه ينبغي أن يكون مستعداً. وهنا لا بدّ من التذكير بسرّي التوبة والاعتراف. الاعتراف كسرّ، ليس هو مجرد اعتراف، انه توبة أصلاً، تنعقد بالاعتراف. الاعتراف يلي التوبة والتوبة تسبق الاعتراف. الاقرار بالخطأ هو الاساس الذي منه ننطلق. أمّا ان بعد التوبة اعترافاً فهذا ما طلبه الرب نفسه (مَن غفرتم خطاياه تُغفر له، ومَن أمسكتم خطاياه أمسكت).

فالتوبة هي التي ترفع عنا ثقل الخطايا وليس الاعتراف. ان الجواب على كل هذه الأسئلة منوط بالكاهن المحبّ للرب والساهر على حياة الروح في الرعية. والكاهن ما عليه سوى أن يفتح قلوب أبنائه بالتعليم القويم والمحبة المبذولة والتذكير اللطيف حتى يدخل الرب ويسكن في النفس ليبنيها بناءً جيداً.

سؤال:

ما لون الثياب الكهنوتية؟

لا بدّ من القول قبل البدء في الجواب ان الألوان في الكنيسة لها سبب. فاللون يضفي جوًّا من الانسجام على الخدمة الكنسية، وهو أيضاً مكرّس ليكون في خدمة كل الكنيسة،فغياب الألوان من الكنيسة يؤدّي،الى نقص في المشاركة الحسّية في العبادة.

الى جانب ذلك،فان لكل لون رمزية خاصة به،ليس فقط في العبادة، بل في الحياة اليومية أيضاً. فالأسود يرمز الى النوح والحزن، وربما لهذا السبب هو اللون الأول والوحيد عند الرهبان. والأبيض هو لون الفرح والطهارة. والأحمر يرمز الى الذبيحة والموت. فالألوان ورموزها ينبغي أن تُستخدم وذلك لكي تصلنا بالغاية الروحية المنشودة. فالحواس تتأثر بالألوان،ومن شأنها المساعدة على النهوض من الخطيئة الى الحياة[1].

الألوان في الكنيسة مرتبطة بلاهوت الأيقونة الأرثوذكسية. الألوان وسيلة تربوية استخدمتها الكنيسة لارشاد النفس الى الله. لذا فليست هي مجرد زخرف وتأنق. انما هي أدوات ذات هدف، وربما لا يقل هدفها قيمة عن لاهوت الأيقونة الأرثوذكسية نفسه.

---

١ ــ راجع كتاب لونيد اوزبانسكي « لاهوت الأيقونة ».

نعود الى لون ثياب الكهنة:لون الثياب الكهنوتية لم يُدرس تاريخياً. ولا نعرف اذا كان هناك تقليد بهذا الخصوص. كما ولا نعرف الأعراف التي تلتزم بها كل كنيسة. فمعلوماتنا عن تاريخ ذلك قليلة. فالأسقف وكل الكهنة كانوا يلبسون الأبيض أثناء خدمة المعمودية. وفي أيام الصوم الأربعيني المقدس كان لباس الكهنة قاتم اللون. أمّا استيخارة الشمامسة فكانت بيضاء، كذلك استيخارة الأسقف التي كانت أحياناً بيضاء وأحياناً حمراء مصنوعة على نحو خاصّ.

في الغرب هناك قوانين تتعلق بلون اللباس ورمزيته. فالأبيض كان رائجاً في أعياد السيد والسيدة والقديسين غير المستشهدين. وكانت حمراء في أعياد آلام السيد وفي أعياد الروح القدس والرسل والشهداء. وكانت خضراء في آحاد ما قبل الميلاد. وبعد الغطاس. كان اللون الرائج بنفسجيّاً. أمّا في الصوم الأربعيني المقدس وخدمة الجناز والذكرانيات،فكان اللون الأسود هو الرائج.

إلّا ان الكنيسة الأرثوذكسية ليس عندها تشريع بهذا الخصوص،لدرجة اننا نجد في الخدمة الواحدة خليطاً من الألوان. فعندنا كهنة يلبسون الثياب الكهنوتية بلون لا علاقة له بمعنى الخدمة أو العيد، كأن يكون اللون ابيضاً في الصوم الأربعيني مثلاً. ليس عندنا ترابط بين ألوان الثياب الكهنوتية والثياب الأسقفية. وكثيراً ما يبدو الثوب الأسقفي قطعة من الفسيفساء المزركش. لكن رغم كل ما قيل،يبقى ان اللون الغالب على اللباس أيام الفصح هو الأبيض، واللون القاتم في خدمة الآلام هو الأسود. لكن الانسجام بين الألوان لا يجوز أن يقود في أي حال من الأحوال الى المغالاة في الزركشة أو الفخفخة. وأعتقد انه يجب أن يكون اللون الأبيض رائجاً في خدمة أسبوع الآلام المقدس، وذلك لأننا نؤمن ان الموت في تعليم الكنيسة ليس سوى نوم أو رقاد. فليس من فناء في حياة المؤمن لأن المسيح هو القيامة والحياة. من هنا أرى ان مدرسة الألوان يمكنها أن تكون وسيلة

لاهوتية في الرعايا والأبرشيات الأرثوذكسية. ان هذا صحيح اذا انطلقنا من لاهوت الأيقونة مروراً بكل ما يتعلق بها وصولاً الى الثياب الكهنوتية.

سؤال:

هل يجوز أن نناول المتخلفين عقلياً؟

ان الردّ على هذا السؤال يقتضي العودة الى المنطلقات السليمة والارتكاز على البديهيات اللاهوتية. ماذا يمنع من مناولة انسان متخلف عقلياً؟ انه انسان لا ارادة له. غير مسؤول عن تصرفاته. فمَن لا عقل له، لا ارادة له، ولا حرية له ولا اختيار، وبالتالي هو غير مسؤول عمّا يفعل. كذلك فان مَن كان متخلفاً عقلياً، عاجز عن التجديف على الله... بهذا المعنى هو بريء من كل خطيئة لا سيّما بعد أن صار متخلفاً. واذا كان الانسان المتخلف معموداً حسب أصول الكنيسة الأرثوذكسية فليس هناك ما يمنع من مناولته. فمَن اعتمد صار عضواً في جسد المسيح، وحصل على الولادة الجديدة وتميرن، وبالتالي نال كل مواهب الروح القدس. ونعمة الروح القدس قادرة أن تفعل في الانسان في كل أحواله وظروفه وأوضاعه. فما دام الروح القدس يهبّ حيث يشاء، ألا يعني هذا ان المتخلفين عقلياً هم في مجال تحرّك الروح القدس ؟ الله يعرف أعماق القلوب وكل شيء ممكن له. ومن جهتنا كبشر لا نعرف كيف يفعل الله في النفس، لا سيّما في نفوس مَن يسميهم العلم متخلفين عقلياً. فنحن نجهل مفاعيل الله، لأننا نظن ان الله لا يفعل إلّا في العاقلين. أليس هو الذي يسوس الخلائق غير العاقلة؟ أيعجز مَن علّق الأرض على المياه أن يحاكي جبلته في أية حالة كانت؟ وفي هذا الصدد يقول القديس نيقوديم الاتوسي: مَن كان متخلفاً عقلياً لا يمكن أن يُظهر أي جحود أو قلة ايمان. كذلك لا يشك بأن الخبز والخمر يتحوّلان الى جسد الرب ودمه. لا يشك، لكنه لا يعترض أيضاً. أليس هذا مدعاة الى التقرّب من المتخلفين ؟ من هنا

فان المتخلف عقلياً يمكنه أن يتناول جسد الرب ودمه، فالتخلف لا يحول دون الاتحاد بالرب. فدعوة الرب هي أن يكون المخلوق قريباً منه.

سؤال:

اذا كانت المرأة في فترة الحيض. فهل يجوز أن تأتي الى الكنيسة من أجل المناولة والصلاة؟

هذا سؤال مهمّ جداً، لأن منع المرأة من ارتياد الكنيسة في فترة الحيض هو ظلم بحقها واجحاف بشخصها وكرامتها واحتقار لما خلقه الله فيها. أليست هي أيضاً على صورة الله ومثاله؟ أليس بولس هو الذي يقول ان لا ذكر ولا أنثى بل الكل واحد في المسيح؟ لكن سأحاول من المراجع المختلفة الوصول الى جوابٍ شافٍ.

عند ديونيسيوس الاسكندري، في قانونه الثاني نجد، انه يمنع المرأة أو الفتاة في فترة الحيض ليس فقط من المناولة بل من دخول الكنيسة أيضاً. وهاكم نص القانون المنسوب اليه : « لا يجوز للنساء والفتيات في حيضهن أن يتقدّمن من المائدة المقدسة ويتناولن جسد ودم الرب الكريمين. بل لا يجوز أن يدخلن الى الكنيسة أيضاً. أمّا من جهة واجب تقديم الصلوات والعبادة فيقمن بها في مكان آخر (راجع كتاب الشرع الكنسي، صفحة ٨٧٤، منشورات النور الأرثوذكسية). كذلك فان العالم الكبير والقانوني الشهير بلسامون يدافع عن هذا القانون المذكور استناداً الى انجيل المرأة النازفة الدم التي لمست هدب ثوب الرب فنالت الشفاء. هذه المرأة كما يقول بلسامون لم تلمس الرب بل لمست هدب ثوبه فشفيت. السؤال هو:

هل تُمنع من كانت في فترة الحيض من دخول الكنيسة للصلاة والمناولة؟

موسى كان يلزم المرأة في هذه الفترة بالاعتزال لمدة سبعة أيام. لماذا؟

السبب هو حتى تَتَنَقَّى، ربما. ان الجواب على هذا السؤال ليس سهلاً. ولا يجوز أخذه اعتباطياً. فالمسألة بالغة الدقّة وينبغي التفكير فيها ومعالجتها على درجة كبيرة من الدقة والعمق. أولاً: لا بدّ من القول ان ثمّة تمييزاً واجباً بين دنس الجسد ودنس النفس والروح. الجسد يمكنه أن يكون دنساً بينما الروح تبقى طاهرة، نقية. كما ان النفس يمكنها أن تكون نجسة بينما يكون الجسد نظيفاً. ان الفصل بين الأمرين واجب. وربما بهذا المعنى تكلم الرب عندما قال: « الويل لكم أيها... لأنكم كالقبور المكلسة التي تبدو من الخارج نظيفة لكنها من الداخل.... لا علاقة البتة بين وضع بيولوجي من جهة،ونقاوة القلب من جهة ثانية. لا بدّ من التمييز بين نقاوة القلب ونقاوة الجسد. وأنا أسأل:هل تكون المرأة نجسة اذا كانت في فترة الحيض؟ قد تكون غير نظيفة جسدياً لكن وضعها البيولوجي لا يفرض عليها دنساً روحياً. مَن قال ان الرجل ينجو من حكم الدينونة؟ أين يتجلى الدنس الجسدي عند الرجل؟ ألا يمكن أن يكون الرجل نظيفاً في الظاهر دنيئاً في الداخل؟ لا بدّ من الانصاف في الحكم على الرجل والمرأة. لا بد من رؤية الاثنين واحداً في المسيح. مَن كان غير طاهر فليستعد لتقبّل الطهارة بغية دخول الكنيسة.ثم لا ننسى ان الحالة البيولوجية ليست أمراً ارادياً. وبالتالي لا خيار للمرأة فيها. انها فعل آلي.هكذا خلقه الله في المرأة. ومَن منا يجيز لنفسه حق الاعتراض على خلق الله؟ من هنا فاني أرى ان المرأة يجوز لها أن تدخل الكنيسة في أي يوم من الشهر. يكفيها انها عندما تدخل تسكب نفسها أمام الله لكي يرفع عنها ثقل الخطايا ويمدّها بالنعمة والقداسة. وهذا شأن الرجل أيضاً.

سؤال:

هل يستطيع الكاهن أن يقيم القداس الالهي بمفرده وهل يجوز له أن يلغي صلاة السحر يوم الأحد؟

لا بدّ من القول أولاً ان صلاة السحر مستقلة عن القداس الالهي كل

الاستقلال. لكن هناك قداديس مرتبطة بصلاة غروب. لهذا فهي تؤلف مع القداس الالهي خدمة واحدة متكاملة لا تنفصل. وبسبب هذا الربط بين خدمتين في خدمة واحدة، فان هذا يعني ان الصلاة لن تنتهي قبل ساعات. فالبعض من هذه الناحية يرى ضرورة الفصل بين خدمتَي السحر والقداس. والكاهن لا بد له من أن يقيم خدمة السحر منفرداً حتى ولو ألغاها في الرعية. والسبب هو كون صلاة السحر صلاة صباحية يومية. لكن لا بدّ أن نقول ان المطالبة بالغاء صلاة السحر يرقى الى شيء من الكسل. وأنا أرى ان الخدمة الرشيقة توفّر الوقت دون التفكير بالحذف. فالترتيل الجميل ذو الايقاع الحي الرشيق يجعل المصلي يستعذب الخدمة ولا يفكر بالغائها. يبقى أن نقول ان تحديد مواعيد الصلوات والدقّة في الحفاظ عليها، تساعد كثيراً في عدم التفكير بالحذف أو في الالغاء.

أمّا السؤال الثاني والذي يتعلق بامكانية اقامة الخدمة على يد الكاهن فقط دون أن يعاونه في الخدمة أحد،فان الجواب بسيط. الكاهن لا يستطيع أن يحضر الى الكنيسة بمفرده لاقامة خدمة الذبيحة الالهية. لأن ما في الخدمة يشترط وجود جماعة مصلية، مثلاً عبارة « السلام لجميعكم » «ولروحك» « وبخوف وايمان ومحبة تقدموا » وغيرها من العبارات التي لا تجيز على الاطلاق للكاهن أن يقيم الخدمة بمفرده.

سؤال:

كم هي مدة الصيام قبل المناولة؛ وهل تجوز المناولة بدون صيام!؟

لكي يشترك المؤمن في جسد الرب،يجب أن يكون مستعداً.لأن كل مَن أكل جسد الرب وشرب دمه بغير استحقاق فهو مجرم الى جسد الرب ودمه. فليعتبر الانسان نفسه وهكذا فليأكل هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس... (١ كور ١١:٢٧ ــ ٣٢).

في كل مناولة هناك مصالحة مع الله من جهة الانسان. والاستعداد للمناولة مرتبط بالتوبة على الخطايا. اذ ما قيمة المصالحة مع الله بدون التوبة على الخطايا. ومنذ القديم دخلت ممارسة الصيام قبل المناولة وكان المؤمنون ينقطعون عن تناول أي شيء منذ ١٢ من منتصف الليل. كذلك في قداس البروجيازميني كانت العادة أن يصوم المؤمنون منذ منتصف الليل ايضاً. للمزيد من المعلومات راجع كتاب الشرع الكنسي، منشورات النور صفحة ١٠٢ باب الصوم. كذلك فان يوحنا الذهبي الفم يقول في هذا الصدد بأن المتقدم من جسد الرب ينبغي أن يكون مستعداً بالصلاة ومخافة الله والصيام.

أمّا الصوم الطويل فلم تكن عليه أية شواهد في الكنيسة الاولى.

والكنيسة الارثوذكسية ترى في الصيام وسيلة عظيمة تسبق التنقية والمناولة. فالكتاب المقدس يقول بأن الشياطين لا تخرج إلّا بالصلاة والصوم. وبالطبع فان المرضى يعفون من الصيام لا سيّما اذا كانت حالتهم الصحية لا تسمح به. أمّا القول بالصيام ساعتين أو ساعة أو أكثر قبل المناولة فهذا أمر ترفضه الكنيسة الارثوذكسية. فالمسألة ليست مجرد قوانين وتحديدات، بل هي سعي الى طريقة فضلى من أجل نمو الاتحاد بالرب. الاعفاء من الصيام يبتّ فيه الأب الروحي. الصيام قبل المناولة يؤجج روح الانتظار؛ انتظار السيد من أجل الاتحاد به. لكن الصيام في ذاته مبتور بدون الصلاة والتوبة الحارّة والاستعداد بالقراءات الروحية ويبقى الصيام. ويبقى السؤال : لماذا نصوم قبل المناولة ؟

نحن نصوم قبل المناولة لكي نشترك جسدياً ايضاً في انتظار السيد. هذا ما يقوله القديس يوحنا كرونستادت. نصوم لكي يصغر الانسان البيولوجي أمام عظمة وصلابة الانسان الروحي (الآب ليف جيله). ان صوم المؤمن قبل المناولة هو للتشبّه بما قاله القديس يوحنا المعمدان (ينبغي أن أنقص أنا ويكبر هو).

سؤال:

هل نحذف الأفاشين الخاصة بالموعوظين أم نقولها بصوت منخفض أثناء القداس الالهي؟

اعتاد بعض الكهنة أن يقولوا الأفاشين سرًّا. وقد رأينا سابقاً ان الافاشين ينبغي أن تُقال علناً لا في السر. أمّا السؤال المتعلق بأفاشين الموعوظين هل تُحذف أم تُقرأ. فهو سؤال وجيه.

كان الموعوظون فئة مهمّة لا يُستهان بها في الكنيسة الاولى. أمّا اليوم فعلى وجه الاجمال، يعتمد الكل منذ الصغر وبالتالي فان عدد الموعوظين تدنّى والنظرة الى الموعوظية تغيرت. لكن يبقى ان العالم مليء بالأطفال والكبار غير المعمودين الذين لم ينالوا سرّ العماد بعد. من هنا فان طلبة الموعوظ لا يجوز أن تُلغى من الكنيسة لأن الموعوظين ما يزالون في الكنيسة حتى الساعة رغم شيوع معمودية الأطفال. إلّا ان الموعوظية الروحية تبقى رغم انحسار الموعوظية المرتبطة بالعماد، فلا بدّ لكل المؤمنين أن يسمعوا. ان المؤمن الحق لا يقف عند حدود العماد انما يتوجّب عليه أن ينمّي وديعة الايمان ويتدرّج في معارج التوبة.

أنا لا أشجّع على الحذف لأن الموعوظية لم تلغ نهائياً من الكنيسة. كما ان كل ميل الى الحذف هو أمر مُرتجل ولا يجوز الاقدام عليه بدون خبرة الكنيسة الجامعة وعلى مدى زمني بعيد رغم تبدّل الظروف والأحوال.

سؤال:

بعض الكهنة يباركون بالصليب أثناء قولهم « السلام لجميعكم »، هل هذا صحيح؟

الممارسة الصحيحة المعمول بها في الأديار لا تنصّ على البركة

بالصليب. البركة تتمّ باليد فقط. لكن بعض الكهنة اعتادوا البركة بالصليب وذلك عند « ولتكن مراحم الاله العظيم ومخلّصنا يسوع المسيح مع جميعكم ». ربما جاء استعمال الصليب للبركة من خدمة رئيس الكهنة (المطران). لكن في الكنائس السلافية يبارك الكاهن الشعب بالصليب وذلك عند « ارحمنا وخلّصنا بما انك صالح وحدك ومحب للبشر... ». أي عند الوصول الى نهاية الخدمة الالهية. لكن لا أعرف اذا كان السلاف متأثرين بخدمة رئيس الكهنة أم لا. إلّا أن البركة في العرف الارثوذكسي يجب أن تجري باليد. فالكتاب المقدس يشير الى اليد للبركة، لا الى الصليب. وفي مواقف يسوع (المسيح) المختلفة نجد تأكيداً على ذلك راجع (مرقس: ١٦:١٠) — (متى ١٨:٩) — (مرقس ٢٣:٥) — (لوقا ٤٠:٤) — (عبرانيون ٢:٦) — (تيمو ١:٢ — ٦) — (أعمال ١٢:٩) — (أعمال ٦:٦).

سؤال:

كيف يتناول الكاهن الذي لم يشترك في القداس الالهي، أيدخل الى الهيكل أم يتناول من خارج مع المؤمنين؟

في هذا الحال يدخل الكاهن الى الهيكل ويقرأ أفشين الاستعداد والمطالبسي, إن أمكن ويستعد للمناولة بعد أن يلبس البطرشيل ثم يتناول. فقد جرت العادة منذ القديم أن يتناول الكاهن من الكأس مباشرة. هذا ما تبيّنه سائر المخطوطات.

سؤال:

أثناء المناولة هل يأخذ الكاهن ثلاث جرعات على اسم الآب والابن والروح القدس أم جرعة واحدة فقط على اسم الآب والابن والروح القدس؟

في القديم كانت العادة جرعة واحدة ويشهد على ذلك كيرلس الاورشليمي في (المدخل الى الأسرار). كما ويشهد على ذلك كتاب (قوانين الرسل) ومخطوطة تحمل الرقم ١٢٠ في دير السيد المذبوح (إيسفيغمنوس) في جبل آثوس. في هذه المخطوطة جاء ان الكاهن يتناول في المرة الثالثة جسد الرب وفي مخطوطة تحمل الرقم ٤٢٥ ورد ذكر للمناولة على الشكل التالي: (على اسم الآب... بدون أن يذكر مناولة على اسم أقانيم الثالوث. كذلك عندنا مخطوطة من القرن الرابع عشر منها ما يُنسب الى البطريرك فيلوثيوس ودير بندلايمون (اليونان) (٧٧٠ ــ ٦٢٧٧) والمكتبة الوطنية في أثينا (٧٥١، ٧٥٢، ٧٦٦، ٧٨٢، ٨٧٨) وسواها من المخطوطات في جبل آثوس وكل هذه المخطوطات تذكر المناولة الثالوثية وتذكر ان الأقانيم الثلاثية تصاحب المناولة.

البعض يقولون ان يسوع يسكن في المؤمن مع أبيه وروحه القدوس. وهذا ما يدعو الى المناولة على اسم الثالوث (نيوفيلس كامبانياس). باختصار ان المناولة الثالوثية المراحل قديمة، لذا فان خير طريقة لاستحضار الأقانيم الثلاثية هي المناولة على الشكل التالي: على اسم الآب... آمين والابن... آمين. والروح القدس... آمين، أي مع كل أقنوم يتناول جرعة خفيفة من الدم الطاهر.

سؤال:

لماذا يقف الكاهن الى جهة اليمين من المائدة أثناء قراءة انجيل الايوثينا في قداس الأحد؟

ان ترتيب انجيل الايوثينا مرتبط بأحداث قيامة الرب. فانجيل الايوثينا يقرأ يوم الأحد. والكاهن الذي يقرأ الانجيل يرمز في هذه اللحظة الى الملاك الذي زفّ نبأ قيامة الرب للنسوة. فالكاهن يرمز الى الملاك. الملاك وقف عن يمين القبر لهذا يقف الكاهن عن يمين المائدة (مرقس ١٦:٥

ـ ٦) وهذا هو معنى الانديمنسي (ما ينوب عن القبر) والانديمنسي الموضوع على المائدة يجعل المائدة بمثابة القبر.

في الكنيسة الاولى كان انجيل الايوثينا يقرأ من المنبر وليس من يمين المائدة المقدسة. والمنبر الذي كان ينتصب وسط الكنيسة قبالة الباب الملوكي يرمز للحجر الذي دحرج على قبر السيد. وهذا التفسير يقدّمه سمعان التسالونيكي، تفسير الهيكل الالهي ٢٣.

سؤال:

ما هو القداس السابق تقديسه ؟ مَن وضعه ؟ وما هي المعلومات المتوفرة عنه ؟

يعرف هذا القداس باسم آخر (البروجيازميني) أي القداس الذي تقدست فيه القرابين من قبل. والكاهن أثناء اقامته القداس الالهي يوم الأحد يرفع حملاً من أجل قداس الصوم الأربعيني المقدس. اذ لا يجوز اقامة خدمة الهية أيام الأسبوع من الصوم الكبير. ولكي لا يحرم المؤمنون من نعمة المناولة نرى أن المجمع المسكوني الخامس والسادس (مجمع ترولو) في القانون ٥٥ قد حدّد اقامة هذه الخدمة (القداس) في الصوم الأربعيني المقدس عدا السبوت والآحاد ويوم البشارة. والقديس سمعان التسالونيكي في رسالة له الى أحد المؤمنين ويُدعى جبرائيل يقول بأن القداس السابق تقديسه لا يجري فيه تقديس الخمر بل القربان فقط لأن تقديس الخمر يحصل عندما يتحد الخمر بجسد الرب في القداس السابق. وعلى هذا جرت العادة في القسطنطينية بأن لا يقدس الخمر بل القربان فقط. مَن وضع هذه الخدمة؟ ان هذا القداس، كما يتبيّن من كتاب « القنداق » للمطران مسرّة، هو من وضع غريغوريوس ذيالوغوس. لكن لدى الدراسة النقدية يتبيّن لنا ولعدّة أسباب ان غريغوريوس ذيالوغوس ليس هو واضع الكتاب وذلك للأسباب التالية:

١ ــ غريغوريوس ذيالوغوس هو بابا روما وهو لا يعرف اليونانية كما يتبيّن من الرسالة (٢٩) في كتابه السادس.

٢ ــ ان هذا القداس غير مسجل في عداد الكتب المنسوبة لغريغوريوس ذيالوغوس.

٣ ــ تاريخ هذا القداس يعود الى أيام خلفاء الرسل كما ورد في الجواب رقم (٥٦) لسمعان التسالونيكي. وكانت هذه الخدمة كما يتبيّن من الأدلة العلمية قبل غريغوريوس ذيالوغوس نفسه، وهذا ما نجده في القانون رقم (٤٦) من مجمع اللاذقية. وكانت هذه الخدمة معروفة في الشرق والغرب معاً.

سؤال:

لماذا ذكر بابا روما غريغوريوس ذيالوغوس كواضع لهذا الكتاب؟ ولماذا حمل الكتاب اسمه ما دام ليس له أصلاً؟ للردّ على هذا السؤال لا بدّ من أن تُراعى الأمور التالية:

١ ــ ربما لأن غريغوريوس بابا روما أدخل الخدمة هذه الى روما لأول مرة.

٢ ــ ربما انه هو الذي أوحى للشرقيين اقامة هذه الخدمة أيام الصوم الأربعيني المقدس.

٣ ــ ربما انه هو الذي جمعها ورتّبها في شكلها الحالي رغم عدم نسبتها اليه فعلياً.

متى نقيم هذه الخدمة؟ نقيمها في الصوم الأربعيني المقدس لئلا يحرم المؤمنون من ذخيرة الحياة الأبدية فيتزوّدون بالرب في مسيرة الصيام الأربعيني المقدس. لماذا لا يجوز أن نقيم قداساً الهياً أيام الأسبوع من الصوم الكبير؟ أجمع جميع الدارسين ان القداس الالهي بطبيعته يعكس

فرحاً، بينما نحن في الصيام نكون في فترة نوح على الخطايا.إلّا اننا رغم هذا كله ما نزال في انتظار السيد لأن الكتاب يقول: لماذا يجب أن يصوموا ما دام العريس معهم، متى ارتفع العريس عنهم حينئذ يصومون. ونحن فانما نصوم لأن العريس بعيد عنا ومتى جاء في القيامة (يوم الأحد) فاننا لا نصوم.

ان اقامة هذه الخدمة في الصباح أمر خاطىء لأن الخدمة هذه بطبيعتها هي مسائية لأنها ترتبط بصلاة غروب كما يتبين من نصّ الخدمة ذاتها.

سؤال:

قبل بدء القداس الالهي، ماذا نقول بعد المجدلية الكبرى « اليوم صار الخلاص للعالم... » أم « لقد قمت من القبر... »؟

بحسب بعض التقاليد الكنسية القديمة والكتب الليتورجية، فقد جرت العادة أن ترتل « اليوم صار الخلاص للعالم... » اذا كان لحن الأسبوع (الأول، الثاني، الثالث، الرابع). أمّا اذا كان لحن الأسبوع (الخامس، السادس، السابع، الثامن) فترتل « لقد قمت من القبر... ».من حيث اللحن، فان قطعة « اليوم صار الخلاص للعالم... » هي باللحن الرابع. أمّا قطعة « لقد قمت من القبر... » فهي باللحن الثامن.

إلّا ان تقليداً آخر مفاده اننا نرتل « اليوم صار الخلاص... » اذا كان لحن الأسبوع (الأول، الثالث، الخامس). وفي الكنيسة الأرثوذكسية هناك كنائس ترتل القطعتين (الطروباريتين) حسب التقليد أي نرتل « اليوم صار الخلاص... » مع الألحان (١، ٢، ٣، ٤) لكن ثمّة كنائس لا تعرف « لقد قمت من القبر... » ولا ترتلها أبداً. وأنا أرى أن نراعي القانون الأول بحيث ترتل القطعتان كل واحدة مع مجموعة ألحان. لماذا؟ لأن قطعة « لقد قمت من القبر... » هي قطعة قيامية لا وجود لها في الليتورجيا

في غير هذا المكان. والأفضل أن لا تلغيها لأن الغاءها يعني ازالتها من الخدمة نهائياً.

سؤال:

لماذا تمنع الكنيسة الزواج[1] أيام الصوم الأربعيني المقدس ؟

الكنيسة الارثوذكسية لا تمنع الزواج في فترة الصيام الأربعيني المقدس لأن الزواج في نظرها دنس ونجس، انما هناك غاية أخرى تتطلّع اليها الكنيسة في هذه المناسبة، وهي التالي: أثناء الصيام تدعونا الكنيسة أن نعيش لله. والحياة لله في فترة الصيام لا بدّ أن تقوم على ايقاع خاص يختلف عن ايقاع سائر أيام السنة الأخرى. الدعوة ليست محصورة بالمزمعين أن يتزوجوا، انما هي موجّهة لجميع المتزوجين أيضاً. فالمهم هو أن تتوطّد حياتنا بالله. المهم أن تنمو فينا مفاعيل الروح القدس. وهذا هو المعنى العميق لعبارة (حياة روحية).لماذا تمنع الكنيسة في هذه الفترة؟ في هذا حكمة عميقة يفهمها ويقبلها مَن يختبرها، بينما يرذلها مَن لا يعرفها في حياته وخبرته. انه النسك. النسك منوط بالمتزوجين وبغير المتزوجين ايضاً. اذ ليس من حب حقيقي بدون نسك. ليس من عفاف بدون نسك. والرسول بولس نفسه يقول للمتزوجين بأن يصلّوا قبل أن يجتمعوا. ان الحياة الروحية هي الأساس الذي عليه تُبنى الشركة الزوجية. لا زواج حي حقيقي بدون حياة في الله. ولا زواج حقيقي بدون تغيير في ايقاع الحياة اليومية لا بالتلهّي أو العربدة، بل بالصلاة. الحياة العصرية كثر فيها المجون وكثُرت فيها الاباحية والحريات غير المقيدة. ولا غرابة في النسك نلجم به جماح هذه الحضارة. فأين الغرابة في دعوة الكنيسة للتفرّغ الى الله؟

ان مَن يفهم هذا التدبير على انه احتقار للزوجية فهو ما يزال عبداً

---

١ ــ ارتبط الزواج قبل القرن (١٠) بالقداس الالهي.

للذات وأسيراً لهذه المفاهيم. أمّا مَن يفهم الدعوة الروحية تدعيماً للزواج فهو وحده سيذوق ثمار هذا المنع إن أحسن التعامل معه. الزواج مبارك والمضجع طاهر والرب هو للجميع. والكنيسة لا تدعو الى الامتناع عن الزواج فقط اولئك المزمعين أن يتزوجوا، انما تشمل الدعوة المتزوجين الذين تتمنى الكنيسة أن يمتنعوا عن كل ما يعطّل حبهم للرب وتعلقهم به. فالمتزوج مدعو الى الرب تحقيقاً للوحدة معه. والزواج لا يعني ان الصلة الزوجية دنسة، إلّا أن هذه الصلة تعطّل التكرّس للرب لا سيّما في فترة الصوم الأربعيني المقدس. كذلك فان الدعوة هذه تتشعّب حتى تطال الكهنة وسائر الاكليروس المتزوج في عشيّة السبت وقبل قداس الأحد، لأن المهم هو جدّية انتظار النفس لعريسها الأوحد الرب يسوع المسيح. هذه خبرة الكنيسة ونحن مدعوون الى الوصول اليها لقبول موانع الزواج في الصيام. ان غياب الحياة الروحية هو الذي يدعو الى الاستغراب أمام موانع الزواج وكفى.

سؤال:

أثناء الدورة الكبرى، اعتاد البعض أن يذكروا أسماء الراقدين، والأحياء. ما الصحيح؟

لقد جرت العادة في العديد من الكنائس الارثوذكسية أن يذكر الكهنة أثناء دورة الكأس (الدورة الكبرى) أسماء راقدين، أو أسماء أحياء أو أسماء الذين قدموا القرابين على المذبح السماوي أو أسماء الذين شيّدوا الكنيسة أو رمّموها أو ساهموا مالياً في تحسين حالتها وما الى ذلك من أسماء أخرى كان لأصحابها مساهمة ما في الكنيسة وحياتها. السؤال الآن: هل ذكر الأسماء عادة سليمة أم لا؟ ماذا تقول لنا الكتب المستعملة داخل الهيكل « القنداق »؟ اذا قرأنا بامعان في « القنداق » الذي أنفقت على طبعه هبات الراقد بالرب لطف الله خلاط والمطبوع سنة ١٩١٢ صفحة (٦١، ٦٢، ٦٣) لا نجد أي ذكر لأسماء الأحياء أو الراقدين أثناء الدورة

الكبرى. وفي نفس الكتاب، في القسم المتعلق بقداس باسيليوس الكبير صفحة (٩٣ ــ ٩٤) أيضاً لا نجد ذكراً لأسماء الأحياء والراقدين. كل ما في الأمر اننا نذكر رئيس الأبرشية دعماً لرسالته الروحية وتوطيداً لمسؤوليته. وفي « القنداق » طبعه المثلث الرحمات جراسيموس مسرّة بيروت ١٩٢٥ صفحة (٩٦ ــ ٩٧) أيضاً لا نجد ذكراً للأسماء ما عدا ذكر رئيس الكهنة راعي الأبرشية. وفي نفس القنداق (صفحة ١٣٧ ــ ١٣٨) خدمة القديس باسيليوس، لا نجد ايضاً ذكراً للأسماء. تُرى لماذا؟

وفي « القنداق » المطبوع ١٩٥٣ في أميركا على عهد المثلث الرحمات صموئيل داوود والذي عني به وبوّبه قدس الارشمندريت حنانيا كساب (صفحة ٥٣) لا نجد ذكراً لأسماء الأحياء والراقدين ما عدا ذكر رئيس الكهنة راعي الأبرشية.

من أين أتت عادة ذكر الأسماء؟ ربما هذه العادة قديمة لكن لا يبدو ان هذه العادة تعود الى ما قبل القرن السابع عشر. فجميع المخطوطات المتعلّقة بالليتورجيا لا تشير الى ذلك لا مباشرة ولا مداورة (البروفسور، فوندوليس، تساؤلات ليتورجية، الجزء الأول، سؤال ١١، صفحة ٣١).

وبعض رؤساء الكهنة قد عمّموا على كهنتهم ضرورة عدم ذكر الأسماء أثناء دورة الكأس وذلك تحاشياً لكل اضطراب وفوضى وأمور انسانية لا شأن لها بتلك اللحظة الروحية الحاسمة من دخول القرابين الى الهيكل. ومن الخبرة تعلم هؤلاء وجوب اغفال الأسماء لما ينجم عن ذلك من بلبلة وفوضى وضعف بشري ومحسوبيات ووجاهات وما الى ذلك. ولكن رغم وجود هذا النوع إلّا أننا نجد نوعاً آخر منهم يغالون في ذكر الأسماء أثناء الدورة كما لو كان الأمر مسألة لاهوتية لا غنى عنها لحياة الكنيسة. وفي الوقت ذاته عندنا النوعان المذكوران في فئة الكهنة. فبعض الكهنة يهملون الأسماء لعدم ضرورتها أثناء الدورة، بينما البعض الآخر يتمسّكون

بها اما لأنها أتتهم من أسلافهم وامّا لأن الرعية تسرّ بذلك. وارضاء الرعية واجب المحب،لكن الارضاء في أمور غير مهمة مسألة فيها نظر. البعض ينسبون عادة ذكر الأسماء الى عهود الدولة العثمانية التي تجبّرت واستعبدت وداست كل شيء. فيقولون: هذه العادة كانت في أول عهدها تقوم على ذكر وجهاء الطائفة. فالطائفة كان لها معاناة كبيرة ابان العهد التركي وطغياناته. هذا واقع الأقليات في كل التاريخ. الضعيف يخشى القوي. قد لا يتربص به عبر الفرص المؤاتية لكنه يخشاه. ومنطق الأقليات يقوم رغم صغرها وضآلة شأنها عسكرياً. يقوم على اثبات الموجودية وبكل الوسائل الممكنة حتى ولو دعت الضرورة الى احتكام المقدسات لترسيخ وجودها وبقائها. وقد دخلت نتائج هذه الذهنية الى العبادة ثم أن شيئاً من صغر النفس (Mikro psekheia) لحقت بطغمة الكهنوت الذين كان يُؤتى بهم دون استعداد ليُشرطنوا في فترة وجيزة لقيادة الطائفة، ليس بهدف القيادة الروحية، بل بهدف الابقاء على صفوف الطائفة ضمن حدود الفرامانات التي أطلقها الباب العالي.

والسؤال الآن : ما دامت كتب « القنداق » المتعدّدة قد طبعت في بلادنا في فترة كان سلطان الأتراك موجوداً، لماذا أغفلت الأسماء في نص الخدمة؟ الجواب بسيط. لأن لا دمج بين المحسوبيات والالهيات في العبادة الارثوذكسية.

أمّا من جهة ذكر الأحياء والأموات، فمن اللائق أن تذكر على المذبح داخل الهيكل وأثناء اعداد الذبيحة الالهية. هذا هو الصحيح واللائق. وهو ما تنصّ عليه الخدمة الليتورجية ذاتها (راجع خدمة اعداد الذبيحة الالهية للاستزادة بالمعلومات).

سؤال:

هل يجوز التبخير أثناء ترتيل المجدلية الكبرى وقبل البدء بالقداس الالهي؟

كتاب (التيبكون) لا يشير صراحة الى التبخير أثناء المجدلية الكبرى. إلّا أن بعض الكهنة اعتادوا ذلك ليس فقط في الأعياد الاحتفالية، بل في كل قداس.

كما هو معروف فإن المجدلية الكبرى هي خاتمة صلاة السحر. يليها مباشرة القداس الالهي. وكما نعلم فإن خدمتَي السحر والقداس الالهي خدمتان مستقلتان.

ماذا تقول المخطوطات والشواهد القديمة ؟ تشير الى أنه قبل البدء بالقداس الالهي يبخّر الكاهن المذبح وكل الكنيسة مع الأيقونات المترامية على الجدران. هذا ما يقوله ديونيسيوس الاريوباغي في كتابه (حول المراتب الكنسية).وسمعان التسالونيكي يؤكد الأمر نفسه ويضيف بقوله: ان الكاهن يبخر المائدة والمذبح على شكل صليب (حوار فصل ٩٦). وفي قوانين فيلوثيوس بطريرك القسطنطينية، نسمع أيضاً ان الكاهن يبخر المذبح والمائدة بشكل صليب وذلك قبل بدء القداس الالهي. وان الشماس بعد الانتهاء من إعداد الذبيحة الالهية. يسجد أمام المذبح ويبخّره بشكل صليب وهو يقول مزمور الخمسين (٥٠). وبعد التبخير يقول (أيها الملك السماوي المعزي روح الحق... والمجد لله في العلى...) وباقي الخدمة المنصوص عليها في كتاب القنداق. (راجع كتاب القنداق لمعرفة ما يُقال فيه بهذا الصدد). إلّا ان الترتيب القديم الذي أشارت اليه الشواهد حفظ في الأديار واختفى من كنائس الرعايا. وأخيراً لا بدّ من القول أن التبخير قبيل البدء بالقداس الالهي مسألة صحيحة، حبذا لو يُعمل بها في كل الكنائس اليوم.

سؤال:

في قداس عيد الغطاس هل يصير الختم قبل تقديس الماء الكبير أم بعده؟

ان تقديس الماء الكبير يجري مباشرة بعد القداس الالهي يوم الغطاس. ولمّا كانت خدمة تقديس الماء الكبير تفتقر الى خاتمة، كان الزاماً أن يجري الختم في القداس الالهي. فالعادة كما هو معروف تنصّ على أن يقوم الكاهن برش المصلّين بالماء المقدس. وبعد الرش يغادر أغلب المصلين الكنيسة. من هنا فان اللائق،هو،اجراء الختم عند القداس الالهي. وتكون خدمة الماء الكبير بمثابة ملحق.

سؤال:

لماذا يقول الكاهن : « اذ قد رأينا قيامة المسيح... واستنيري استنيري يا أورشليم... يا ما أشرف يا ما أحب... أيها المسيح الفصح الأجل الأمثل... » بعد أن يتناول جسد الرب ودمه الكريمين ؟

ان كل هذه المقطوعات بدون شك قد دخلت على القداس الالهي بعد تشكّله. فجميع المخطوطات لا تذكرها أبداً، والبطريرك فيلوثيوس بطريرك القسطنطينية أيضاً لا يذكرها. كل ما هنالك ان الكهنة اليوم يتلونها بعد أن يكونوا قد تناولوا. ولكي نفهم معنى هذه المقطوعات، ودورها، علينا أن نفهم ما يجري في هذه اللحظة.

عادة يتناول الكهنة أولاً وبعدهم يتناول المصلّون دون أن يكون هناك توقف البتّة في إنشاد الكينونيكون. ونعلم أن الشعب في القديم كانوا يتناولون كما يتناول الكاهن أي من الكأس مباشرة.

ولا يتمّ سكب الأجزاء التي في الصينية، داخل الكأس، إلّا بعد أن يكون جميع المصلين قد تناولوا. ولئلا ينشغل العقل بأي من الأمور

العالمية، فقد أدخلت هذه المقطوعات لتشغل النفس دون أن يكون هناك مجال للشرود والتشتّت.

أمّا اختيار هذه المقطوعات كي تُتلى في هذه اللحظة، فانما يعود الى ارتباط هذه المقطوعات بالمسيح مباشرة كونها أصلاً قطعاً قيامية.

وليس كالمناولة تقودنا الى دنيا القيامة للاشتراك مع يسوع في موته وقيامته.

سؤال:

عندما يحين وقت تلاوة دستور الايمان، مَن يتلو دستور الايمان الجوقة أم الكاهن أم مَن؟

في جميع المخطوطات يرد أن دستور الايمان يتلوه الشعب، بينما يكون الكاهن يروّح القرابين بالستر. لكن في بعض الكنائس اليوم يشترك الكاهن مع الشعب في تلاوة دستور الايمان. وفي كنائس أخرى،يتلوه المرتّلون فقط. لكن الغريب جداً ان بعض الكهنة اعتادوا أن يتلوا سرًّا أثناء دستور الايمان الأفشين المعروف باسم « بحق وواجب نسبّحك ونباركك » (القنداق، مسرّة، صفحة ١٠٢). وهكذا لا يكون الكاهن قد تلى دستور الايمان من جهة. ومن جهة ثانية يكون قد عجّل في الخدمة. وهذا لا يليق،لأن ما يفعله الشعب يطلب من الكاهن أيضاً. وقانونياً يجب على جميع الموجودين في الكنيسة أن يتلوا دستور الايمان بصوت واحد، لأنه رأي الكنيسة وموقفها من الرب. وهذا ما يجب أن يعوَّل عليه، فهو الممارسة التي نعرفها منذ القرون الاولى للمسيحية.

سؤال:

عندما يقول الكاهن أثناء الاستحالة أما هذا الخبز فجسد مسيحك

المكرّم آمين...) فانه ينحني ثلاثاً أو يسجد ثلاثاً أو يقف منتصباً. ما الصحيح ؟

ان السجود ثلاثاً ابان الاستحالة تشهد عليه بعض المخطوطات.مثلاً المخطوطات (٧٥٢، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٧٠، ٧٧٣، ٧٧٦ في المكتبة الوطنية في أثينا). فقط مخطوطة واحدة في المكتبة المذكورة ــ رقمها (٦) من القرن ١٢ تشير الى سجدة واحدة. ونجد عند البطريرك فيلوثيوس كلاماً عن ثلاث سجدات أمام المائدة المقدسة. يبدو أن الانحناءة لا وجود لها أثناء الاستحالة، بل يجب السجود ثلاثاً. وهذه السجدات الثلاث تكون على اسم الآب والابن والروح القدس.

سؤال:

هل التبخير أثناء المجدلية الكبرى صحيح أم خطأ ؟

ليس هناك توضيح تام في التيبكون يختصّ بالتبخير أثناء الذكصولوجيا إلّا ان العديد من الكهنة اعتادوا على ذلك ليس فقط في الأعياد الضخمة (السيدية) فقط، بل في كل خدمة قداس الهي.

وتعلمون ان المجدلية هي آخر حلقة في صلاة السحر. يليها طروبارية « اليوم صار... » أو « لقد قمت... ». وبحسب الشهادات القديمة، كان الكاهن يبخر كل الهيكل في هذا الوقت (قبل بدء القداس الالهي). وهذه المعلومات نجدها في كتاب (المرتبية الكنسية) المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي. ويقول في هذا الصدد سمعان التسالونيكي بأن الكاهن في هذا الوقت، يبخر المائدة على شكل صليب (أي من الجهات الأربع). ويبخر أيضاً الشعب (الحوار، فصل ٩٦).

اذاً يمكننا أن نقول ان عادة التبخير أثناء المجدلة، هي عادة قديمة في الكنيسة، من هنا هو أمر صحيح في الممارسة الليتورجية.

سؤال:

بعض الكهنة اعتادوا أن يقولوا بعد الهجمة في قداس عيد الفصح: « افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد... »، أي ان الكنيسة ترمز الى الجحيم الذي نزل اليه المسيح ليعتق نفوس المقيّدين هناك. أليس هذا تجديفاً ولا سيّما ان الجحيم هي مكان الشيطان ؟ إذ هل من المعقول أن تكون الكنيسة مكان سكن الشيطان ؟

ان هذه العبارة « افتحوا الأبواب... » مأخوذة من المزمور (٢٣:٧ ــ ١٠). وآباء الكنيسة الذين اشتغلوا في تفسير الكتاب، فالبعض منهم فسّر هذا الكلام على انه حديث الرب ملك المجد، أو حديث الملائكة الذين رافقوه. والبعض الآخر فسّره على أنه حديث الرب مع الملائكة. أو انه حوار الروح القدس مع الملائكة. ومن المعروف ان هذه العبارة المأخوذة من « المزامير » تذكر أيضاً لدى تدشين كنيسة جديدة. هنا هي تعني ان السلطان هو للرب في الكنيسة. ليس هذا فقط، بل نجد في الافخولوجي البيزنطي القديم وبعض التيبيكونات ذكر لهذه العبارة أثناء العديد من الخدم الكنسية. وعندنا أدلّة تشير الى أن هذه العبارة تستعمل أيضاً عند الدخولين الكبير والصغير في القداس الالهي. لذا من الأفضل أن نفسّر هذا المقطع على انه حوار الرب مع الملائكة أمام مدخل الملكوت. أو على انه حوار بين الملائكة أنفسهم. وصلاة الهجمة المعروفة اليوم، عندنا عليها العديد من الشواهد التاريخية. اذ ان الكهنة كانوا يخرجون من الكنيسة ولا يبقى في الداخل سوى القندلفت الذي يطفىء جميع الأنوار ويبخّر الكنيسة من الداخل جيداً. إلّا انه ليس هناك ذكر في صلاة الهجمة لأي انجيل أو طلبات سلامية، لأن الطلبات السلامية كانت تُقال داخل الكنيسة. وكان الدخول يتمّ عند ترتيل « المسيح قام من بين الأموات.. » دلالة على ان المسيح بموته وقيامته فتح أبواب السموات التي كانت مغلقة قبل ذلك.

ان الحوار هذا « افتحوا الأبواب... » نجده في تيبيكون دير القديس سابا... وكان القندلفت الواقف داخل الكنيسة يقول: مَن هو هذا ملك المجد؟ والجواب هو: انه الرب القوي والعزيز في القتال... وعندنا شواهد من القرن ١٤ ان الأبواب كانت تُفتح في القسطنطينية بدون هذا الحوار.

سؤال:

اعتاد بعض الكهنة أن يبخّروا في الأعياد السيدية المائدة والأيقونات والمذبح والايقونسطاس والشعب وكل الكنيسة وذلك بعد الدخول الصغير وأثناء ترتيل الطروباريات، هل هذا صحيح؟

ان هذه الممارسة غير صحيحة وربما هي مجرد زركشة ليتورجية في قداس العيد. فالتبخير غير موجود أبداً في المخطوطات. كذلك لم يأت على ذكرها شراح القداس الالهي المعروفون.

سؤال:

أثناء ترتيل قطعة الشاروبيكون، يكون الكاهن يبخر ويتلو صلاة هي (المزمور ٥٠). هل يتلو سوى ذلك؟

لا بدّ من القول أولاً ان صلاة (المزمور ٥٠) هي صلاة تحضيرية. لأن الكاهن مزمع أن يحمل القرابين من المذبح الى المائدة لتكريسها وتقديسها. كذلك فان أفشين الشاروبيكون « لا أحد من المرتبطين بالشهوات الجسدية... » فهو أيضاً أفشين تحضيري لنفس الغرض. أمّا مقطوعة « اذ قد رأينا قيامة المسيح... » فليس هناك مخطوطات تذكرها. لكن ربما أدخلت بسبب طابعها القيامي (نسبة الى القيامة).

سؤال:

متى يستطيع الكاهن أن يأخذ (الكيرون)[1] من أجل اقامة خدمة السابق تقديسه؟ وهل صحيح انه يستطيع بدء الخدمة بدون (كيرون) لأن القرابين سبق أن تقدّست؟

الكاهن والشمّاس يأخذان الكيرون، للقيام بخدمة السابق تقديسه. وهذا الكيرون موجود أيضاً في قداس الذهبي الفم وقداس باسيليوس الكبير. ولمّا كان القداس السابق تقديسه، قد تمّ تقديسه فعلاً في قداس سابق، فإن المهمة المتبقية هي نقل القربان الطاهر الى المائدة لمناولة المؤمنين. إلّا أن هذه المهمة تحتاج الى كيرون أيضاً لأن الكاهن يتعاطى مع المسيح حتى في قداس السابق تقديسه. لهذا السبب لا نسمع في خدمة السابق تقديسه (ترنيمة الشاروبيكون، ولا نسمع أفشين الشاروبيكون « لا أحد من....) فالقرابين هي مقدسة حقيقة ولا تحتاج الى نصّ الخدمة المستعمل في قداس الذهبي الفم. وحسب المخطوطات المتعلقة بالقداس السابق تقديسه، يقف الكاهن والشماس وسط الكنيسة ثلاث مرات. ثم يدخلان الى الهيكل ويسجدان هناك (كما هو معروف في أخذ الكيرون). أمّا في ما يختصّ بوقت الكيرون فهو في الساعة التاسعة قبل بدء صلاة الغروب لا سيّما بعد التطوبيات « اذكرنا يا رب اذا أتيت في ملكوتك ».وفي مخطوطة تحت الرقم ٧٥٨ في المكتبة الوطنية في أثينا يذكر ان هذا التوقيت يعمل به في الرعايا وليس في الأديار. واليوم اعتاد الكهنة أن يأخذوا البركة مباشرة بعد بدء مزمور الساعة التاسعة وذلك لكي يكونوا مستعدين للتبخير فيما بعد.

---

١ ـ الكيرون هو البركة لبدء الخدمة. ويؤخذ عادة من المطران أو البطريرك.

سؤال:

هل يجوز أن نقيم قداس عيد الفصح بعد منتصف الليل يوم السبت؟ ومتى يكون الموعد والتوقيت الصحيح؟

في الكنيسة الاولى كانت خدمة عيد الفصح تبدأ من غروب السبت على أن تنتهي مع صباح يوم الأحد. وفي التيبيكون البيزنطي عندنا ذكر لغروب السبت الكبير، بحيث انه أثناء القراءات كانت تجري معمودية الموعوظين. وعندنا ذكر لقداس باسيليوس، وقراءة طويلة من سفر أعمال الرسل. يلي ذلك السحر المطول والقداس الفصحي. وفي الرعايا، ولأسباب رعائية بحتة انفصلت هذه الخدمة الطويلة الى قسمين؛ فالغروب مع قداس باسيليوس يجريان يوم السبت من أجل مناولة المؤمنين، أمّا خدمة عماد الموعوظين فقد توقفت وقراءة سفر أعمال الرسل أيضاً توقفت. والباقي نقل الى اليوم التالي باكراً. هذا ما نجده في بعض المخطوطات القديمة الموجودة، على وجه التحديد مخطوطة في دير فيلوثيوس. فالرب قام من بين الأموات بعد منتصف الليل. لكن هناك تقليد آخر لنيكيفوروس كسانتوبولس الذي يحدّد منتصف الليل وقتاً لبدء الخدمة حيث يقول بأن الملاك جاء ورفع حجر القبر وقام الرب. إلّا أن تغيير هذا التوقيت تعدّل كثيراً،لا سيّما ان هناك كهنة يقومون بأكثر من خدمة واحدة في اليوم.

سؤال:

متى تكون العظة في القداس الالهي؟

المكان الصحيح للعظة هو ما بعد الانجيل مباشرة. هذا ما نعرفه من العهد القديم ومن العهد الجديد مباشرة (لوقا ١٦:٤ ــ ٢٧). كذلك فان يوستين الشهيد في دفاعه الأول (فصل ٦٧) يقول بأن المتقدم يقدم كلمة بعد قراءة المقطع الانجيلي. لكن جرت العادة في كنيستنا أن تُنقل

العظة الى ما قبل المناولة أي الى الكينونيكون، وهذا يحصل لسببين:

١ ــ أثناء قراءة الانجيل المطلوب: لا يكون جميع المصلين قد وصلوا.

٢ ــ بهدف الاختصار؛ إذ بدل أن ترتل قطعة الكينونيكون يؤخذ الوقت المخصّص لها وتكون العظة فيه. وهذا يعني ان وقت القداس لن يطول.

ان السببين مهمّان وينبغي أن يؤخذا على محمل الجد والأهمية. فنحن قد اعتدنا على العظة بعد الانجيل،وأيضاً على العظة قبل المناولة.إلّا أن عملية النقل رغم توفر الأسباب الداعية لها،تبقى مُستهجَنة رغم كل الظروف والاعتبارات. أمّا السبب الثاني الداعي الى تقصير زمن القداس، فهو انما يشجّع الناس على الوصول الى الكنيسة في وقت متأخر.والسؤال الآن: أليست العظة أمراً ذا شأن بالنسبة الى حياة الرعية؟ أليس من البديهي تذكير الناس ان القداس هو لهم وليس للكاهن فقط؟ ألا يعني تأجيل العظة الى مرحلة ما قبل المناولة ان الناس لا يكونون مستعدين للمناولة الاستعداد اللائق؟ ألا يعني تأجيل العظة ان الناس قد ابتعدوا عن تفاصيل المقطع الانجيلي المقروء؟ فوقت المناولة للمناولة. ووقت الانجيل للانجيل. ان تأجيل العظة الى ما قبل المناولة هو أمر غير عملي ولا أرى ضرورة للتمسك به والعمل بموجبه.

الفهرس

صفحة

١ ــ الاهداء ٣
٢ ــ كلمة واجبة ٥
٣ ــ كاباسيلاس وعصره ٨
٤ ــ تصدير ١١
٥ ــ المقدمة ١٩
٦ ــ شرح القداس الالهي ٤١
أ ــ ما هي الغاية من القداس الالهي ؟ ٤١
ب ــ لماذا لا يُؤتى بالقربان والخمر الى المائدة
مباشرة لتُذبح ؟ ٤٥
ج ــ لماذا تأخذ القرابين هذا الشكل ؟ ٤٥
د ــ لماذا نُقدم القرابين على أنها باكورة حياتنا؟ ٤٦
هـ ــ لماذا لا تُقدّس كل القرابين التي تُحمل الى
بل يُكتفى بالجزء الذي يَفصله الكاهن ؟ ٤٧
و ــ كيفية اعداد الذبيحة ٤٨
٧ ــ قداس الموعوظين ٥٧
٨ ــ قداس المؤمنين ١٠١
٩ ــ الشكر بعد المناولة ثم الصلوات الختامية ١٣٩

أسئلة تتصل بالقداس الالهي من اعداد الأب منيف حمصي

١ ــ ما هي غاية سر المناولة ؟ ١٤٣
٢ ــ لماذا يكون إتمام السر بالخبز والخمر وليس بأية مادة مُنْتَجة أخرى ؟ ١٤٤
٣ ــ التقديس أيجري على خمر أم على فطير ؟ ١٤٥
٤ ــ ما معنى قول الرب : اصنعوا هذا لذكري ؟ ١٤٧
٥ ــ بعض الارثوذكسيين لا بل القسم الكبير منهم لا يواظبون على القداس الالهي في الاحاد والأعياد وربما ينقطعون عن الكنيسة لسنوات الا عند الواجب. أمثال هؤلاء، في حال وفاتهم، أيُدفنون بصلاة أم ماذا ؟ ١٤٧
٦ ــ أثناء القداس الالهي يتلو الكاهن مزمور التوبة (٥٠)، وفيه نسمع العبارة التالية : « بالاثام حُبل بي وبالخطايا ولدتني أمي ». ما معنى هذه العبارة ؟ ١٤٨
٧ ــ ما الفرق بين الخمر في العرس والخمر في القداس الالهي ؟ ١٤٩
٨ ــ ما معنى رفرفة الأغطية أثناء تلاوة دستور الايمان في القداس الالهي ؟ ١٥٠
٩ ــ هل يجوز للكاهن مناولة امرأة انجبتْ لكنها لم تُنْه الـ ٤٠ يوما ؟ ١٥١
١٠ ــ في القداس الالهي أنتلو الأفاشين علناً أمْ في السر ؟ ١٥٢
١١ ــ متى ولماذا يُغلق الباب الملوكي أثناء القداس الالهي؟ ١٥٣
١٢ ــ في افشين الشاروبيكون ورد « ارتض ان تقدم لك هذه القرابين مني أنا عبدك الخاطىء ... » ما معنى مضمونها؟ ١٥٤

صفحة

١٣ ــ ما الفرق بين القربانة المكرّسة والقربانة العادية؟ ١٥٥
١٤ ــ لماذا لا يُسمح بنقل الحمل في القداس السابق تقديسه من كنيسة الى أخرى بغية اتمام الذبيحة الالهية، بينما يُسمح بنقل الحمل يوم الخميس العظيم من أجل مناولة المرضى؟ ١٥٦
١٥ ــ هل يُمكننا أن نُناول المرضى جسد الرب ودمه الكريمين في أية ساعة من الليل ؟ ١٥٧
١٦ ــ هل نُناول الجميع بدون تمييز ؟ وهل يمكننا أن نمنع خاطئا من المناولة وكيف ؟ وهل نُناول من سبق فطلبنا اليهم التوبة والاعتراف أمام الكاهن لكنهم تقاعسوا؟ ١٥٨
١٧ ــ ما لون ثياب الكاهن ؟ ١٦٠
١٨ ــ هل يجوز أن نناول المتخلّفين عقليا ؟ ١٦٢
١٩ ــ اذا كانت المرأة في فترة الحيض، هل يجوز أن تأتي الى الكنيسة من أجل المناولة والصلاة؟ ١٦٣
٢٠ ــ هل يستطيع الكاهن أن يُقيم القداس الالهي بمفرده، وهل يجوز له أن يُلغي صلاة السحر يوم الأحد ؟ ١٦٤
٢١ ــ كم هي مدة الصيام قبل المناولة، وهل تجوز المناولة بدون صيام ؟ ١٦٥
٢٢ ــ أنحذف الأفاشين الخاصة بالموعوظين أم نقولها بصوت منخفض أثناء القداس الالهي ؟ ١٦٧
٢٣ ــ بعض الكهنة يباركون بالصليب أثناء قولهم « السلام لجميعكم ». هل هذا صحيح ؟ ١٦٧
٢٤ ــ كيف يتناول الكاهن الذي لم يشترك في القداس الالهي، أيدخل الى الهيكل أم يتناول من خارج مع المؤمنين؟ ١٦٨
٢٥ ــ أثناء المناولة، أيأخذ الكاهن ثلاث جرعات على اسم الآب والابن والروح القدس، أم جرعة واحدة فقط على

صفحة

اسم الآب والابن والروح القدس ؟ ١٦٨
٢٦ ــ لماذا يقف الكاهن الى جهة اليمين من المائدة المقدسة أثناء قراءة انجيل الايوثينا في قداس الأحد ؟ ١٦٩
٢٧ ــ ما هو القداس السابق تقديسه، وما هي المعلومات المتوفرة عنه ؟ ١٧٠
٢٨ ــ لماذا ذكر بابا روما غريغوريوس ذيالوغوس كواضع للقداس السابق تقديسه ؟ ولماذا حَمل الكتاب اسمه ما دام ليس له أصلا ؟ ١٧١
٢٩ ــ قبل بدء القداس الالهي ماذا نقول بعد المجدلية الكبرى : « اليوم صار الخلاص للعالم » أم « لقد قمت من القبر »؟ ١٧٢
٣٠ ــ لماذا تمنع الكنيسة الزواج أيام الصوم الأربعيني المقدس ؟ ١٧٣
٣١ ــ أثناء الدورة الكبرى اعتاد البعض أن يذكروا أسماء الراقدين والاحياء، ما الصحيح ؟ ١٧٤
٣٢ ــ هل يجوز التبخير أثناء ترتيل المجدلية الكبرى وقبل البدء بالقداس الالهي ؟ ١٧٧
٣٣ ــ في قداس عيد الغطاس أيصير الختم قبل تقديس الماء الكبير أم بعده ؟ ١٧٨
٣٤ ــ لماذا يقول الكاهن « اذ قد رأينا قيامة المسيح ..... واستنيري استنيري يا أورشليم الجديدة ..... ياما أشرف ياما أحب ..... أيها المسيح الفصح الأجلّ الأمثل » ... وذلك بعد أن يتناول جسد الرب ودمه الكريمين ؟ ١٧٨
٣٥ ــ عندما يحين وقت تلاوة دستور الايمان، من يتلوه، الجوقة أم الكاهن أم الشعب ؟ ١٧٩
٣٦ ــ عندما يقول الكاهن أثناء الاستحالة « اما هذا الخبز فجسد مسيحك الكرم.... » ينحني (ثلاثا) أو يسجد (ثلاثا) أو

صفحة

يقف منتصبا ؟ ما الصحيح ؟ ١٧٩
٣٧ ــ هل التبخير أثناء المجدلية الكبرى صحيح أم خطأ ؟ ١٨٠
٣٨ ــ بعض الكهنة اعتادوا أن يقولوا بعد الهجمة في قداس عيد الفصح: « افتحوا الأبواب ليدخل ملك المجد...). أي ان الكنيسة ترمز الى الجحيم الذي نزله اليه المسيح يسوع ليعتق نفوس المقيّدين هناك. أليس هذا تجديفاً ولا سيّما ان الجحيم هو مكان الشيطان؟ هل من المعقول أن تكون الكنيسة مكان سكنى الشيطان؟ ١٨١
٣٩ ــ اعتاد بعض الكهنة أن يبخروا في الأعياد السيدية المائدة والايقونات والمذبح وأيضا الايقونسطاس والشعب وكل أطراف الكنيسة وذلك بعد دخول مسيرة الايصوذون وأثناء ترتيل الطروباريات. هل هذا صحيح؟ ١٨٢
٤٠ ــ أثناء ترتيل قطعة الشاروبيكون، يكون الكاهن يبخر ويتلو صلاة هي (المزمور ٥٠)، هل يتلو سوى ذلك؟ ١٨٢
٤١ ــ متى يستطيع الكاهن أن يأخذ (الكيرون) من أجل اقامة خدمة السابق تقديسه؟ وهل صحيح انه يستطيع بدء الخدمة بدون (كيرون)، لأن القرابين سبق أن تقدمت؟ ١٨٣
٤٢ ــ هل يجوز أن نُقيم قداس عيد الفصح بعد منتصف الليل يوم السبت؟ متى هو الموعد أو التوقيت الصحيح؟ ١٨٤
٤٣ ــ متى تكون العظة في القداس الالهي؟ ١٨٤

صدر حتى الان:

١ ــ « التيبيكون ». أو كتاب الاصول.
ويشتمل على ترتيب الصلوات عموماً.

٢ ــ الصورة الالهية في الانسان.
لدى القديس غريغوريوس بالاماس ت. البطريرك الياس (الرابع)

٣ ــ صلاة النوم الكبرى والصغرى.
ترجمة جديدة.